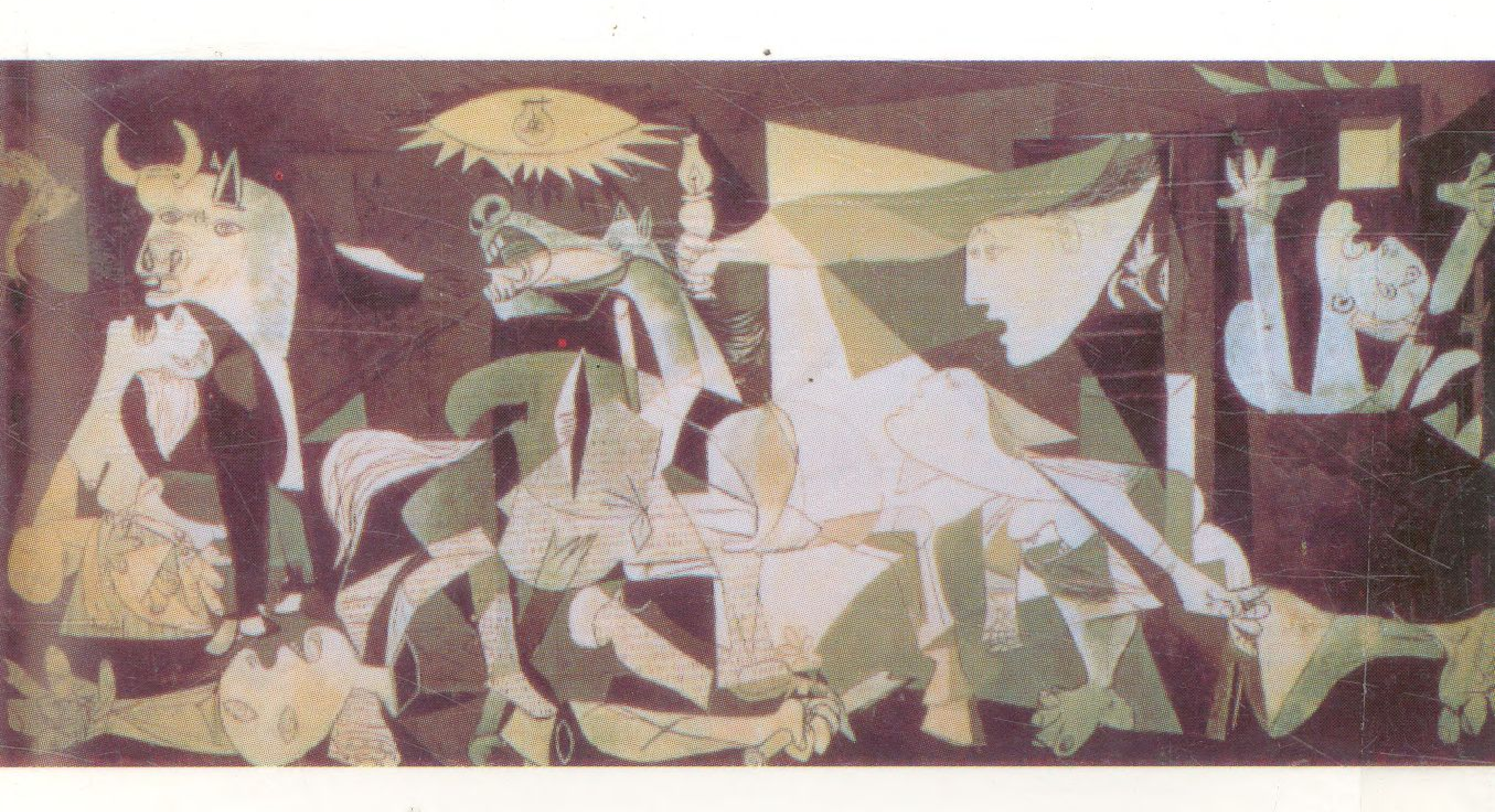
- ياسمينة خضرا -

بم تحلم الذئاب

ترجمة و تقديم : أمين الزاوي

رواية



دار الغرب للنشر و التوزيع

بم تحلم الذئاب ؟

رواية : ياسمينة خضرا
ترجمة و تقديم : أمين الزاوي

*Cet ouvrage est édité avec le concours
du Commissariat général
de l'Année de l'Algérie en France*

Djazaïr

الجزائر

دار الغرب للنشر و التوزيع

مقدمة

ياسمينة خضرا: جماليات عنف الكتابة
بين مرارة الواقع و شهوة المحكي

امين الزاوي

نشر ياسمينة خضرا باسمه الحقيقي و هو محمد مولسهول قصصا و روايات كثيرة قبل ان يتخذ له اسما ادبيا جديدا مونثا، منسوخا من اسم زوجته.

تمركزت هذه الروايات و القصص القصيرة و المنشورة ما بين الجزائر و باريس في مواضيعها حول الثورة الجزائرية و الأمراض التاريخية التي عرفتها الجزائر منذ الحرب العالمية الثانية و حتى مرحلة الاستقلال: الإمراض السياسية و الاجتماعية و النفسية و البيروقراطية، التي مثلت عطبا للنمو و للمعاصرة في جزائر الاستقلال.

يبدو لي ان السوال المركزي في كل هذه الكتب الادبية الاولى كان يدور حول : معنى الاستقلال الوطني؟ ما العلاقة بين الوهم و بين الفرح؟ ولعل البطل الرئيسي في كل ذلك كانت "الجزائر المستقلة" التي اخفقت موعدها التاريخي مع الحرية و مع البناء و الديمقراطية، اخفاق شامل ظهر عشية الاستقلال

السياسي سنة 1962 في ظل طغيان الوطنية الشعبوية والفوضى و الفردية السياسية.

لقد بدا استقلال منقوصا و غير كامل، وبالتالي ضاع حلم الجزائريين في ' الحرية' و ' الديمقراطية" و ' الكرامة". لقد احترقت الجزائر المحلومة (L'Algérie rêvée): جزائر العدالة و الحرية ، احترقت كفراشة في نور فرحة الاستقلال، عشية نهاية جحيم الحرب التحريرية ضد الاستعمار الفرنسي. لقد اغتصبت الجزائر من قبل طغمة جديدة، استولت على السلطة فبدات تتصرف في الجزائر وكأنها مزرعتها الخاصة. و من بين هذه الكتابات الأدبية التي نشرها ياسمينة خضرا ، محمد مولسهول:

Houria (recueil de nouvelles) Alger 1984

حورية (مجموعة قصص) الجزائر 1984

De l'autre côté de la ville Paris 1988

على الطرف الاخر من المدينة باريس 1988

Amen . Paris 1984.

امين ، باريس 1984

Privilège du phénix , Alger 1989

حظوة الفينيقس ، الجزائر 1989

*****

كان ذلك في سنة سنة 1989 حيث استعار محمد مولسهول اسمه الادبي الجديد " ياسمينة خضرا" و الذي من خلال ، به و فيه أصبح كاتبا عالميا. لقد وجد في استعارة اسم أدبي نسوي طريقا للافلات من الحصار الذي كانت تضربه عليه قوانين المؤسسة التي ينتمي اليها و هو الظابط في الجيش الوطني الشعبي، و للتخلص ايضا من الرقابة

العسكرية المتشددة العالمثالثية أن ياسمينة خضرا ضابط في الجيش الوطني الشعبي، قضى كل حياته في الثكنات و في ساحات العمليات الميدانية. كان يكتب في غفلة من مسووليه وروسائه. كان اختيار هذا الاسم من قبل محمد مولسهول هو بحث عن حرية القول، و هو الذي عشق الأدب منذ صغره ولم يكن يرغب أبدا أن يكون عسكريا، إلا انها الاقدار جرته الى ذلك جرا. فكان يجد في الكتابة ملجأه و ضالته و حريته ولسانه، يقول ياسمينة خضرا:

(En ce temps-là gerant très mal ma crise d' adolescence et mon statut de cadet, c'est-à-dire d'interné malgré lui en prise permanente avec la soldatèque ambiante, je croyais trouver, en la littérature, un refuge ou bien une manière salutaire de dédoubler de la personnalité.)

ان اختيار هذا الاسم المستعار، جاء أيضا رغبة من الكاتب في البحث عن سبيل لموضعة كتاباته و رواياته النقدية في إطارها الواضح و الحقيقي و الواقعي في كل ما يربطها بجغرافيتها التاريخية و السياسية الجزائرية، و قد نشر في هذه المرحلة التي بدأها كاتبا مشتغلا على النص الأدبي الروائي البوليسي، أو ما يسمى بالأدب الأسود (la littérature noire) ، سلسلة من الروايات، التي نالت شهرة عالمية كبيرة، و قرنت في كل بقاع الدنيا، و أهمها الثلاثية:

1) Moriturі (1997)
2) Double blanc (1997)
3) L Automne des chimères (1998)

بطل هذه الثلاثية المفتش (Llob) (اللب) المعروف بشخصيته المتميزة ، المدروسة و العاكسة لطبيعة و سلوكيات الفرد في المجتمع الجزائري و المتوسطي، و هو شرطي وكاتب في الوقت نفسه، و الذي ياخذ بعضا من ملامح الروائي نفسه و من خصوصية مساره في الحياة، إلا أن الشخصية متخيلة اكثر مما هي منقولة عن الواقع المباشر ، ففي رسمها كثير من الفانتازيا و اللعب الفني و الفن التشكيلي، فن بالكلمات و بالممارسات و السلوكات المثيرة و المفعمة بفن السخرية و عمق النكتة المؤسسة داخل " مجتمع الازمة"، يقول ياسمينة خضرا عن علاقة الكتابة لديه بالواقع الجزائري: (كل ما أقوله .. في كتبي- هو حقيقي، في قالب روائي، انه نقل حرفي من الحقيقة الجزائرية.) *

******

و قد اهتم الروائي ياسمينة خضرا أدبيا بظاهرة الإرهاب في الجزائر ، فنشر روايتن مرتبطتين و بشكل مباشر بهذا الورم الاجتماعي و السياسي و الديني الخبيث وهما :

(Les Agneaux du seigneur) (1998)

(A quoi rêvent les loups) (1999)

إنهما نصان متميزان ، قراءة جريئة و مدققة عن أزمة الجزائر مع الإرهاب الذي حول العشرية الأخيرة إلى دم وبكاء و موت و شجاعة أيضا.

انهما نصان يعتمدان في خلفيتهما الواقع بكل حرفيته الا أن الكتابة الروائية على الرغم من انها توحي و للوهلة

الاولى والقراءة الأولى بطابع المباشرة و بالحس الداكتيكي الا انها تعكس بصدق تعقد المجتمع الجزائري و اختلاط الساحة السياسية و تضببها و حجم الهاوية التي تمشي البلاد نحوها.

******

(*بم تحلم الذئاب*) التي أقدمها اليوم للقارئ بالعربية، رواية تزاوج ما بين أسلوب الأدب البوليسي الذي برع في كتابته ياسمينة خضرا و الأدب الروائي الفني القائم على واقعية قريبة من أدب أمريكا اللاتينية. لقد ذكرتني هذه الرواية حين قرأتها ثم تأكد لي ذلك وأنا أترجمها برواية (اللص والكلاب) للروائي الكبير نجيب محفوظ . تلتقي (بم تحلم الذئاب) ب (اللص و الكلاب) في الحركية الكبيرة التي تتميز بها الشخصيات الروائية و في إيقاع أسلوب الكتابة المراوح ما بين الأدب البوليسي بكل ما يتميز به من فنيات خاصة والأدب الروائي الفني بكل ما يميزه من تأمل شعري و تحليل نفساني و لغة محلقة تارة و و وصفية مباشرة تارة أخرى.

ان رواية (بم تحلم الذئاب) نص مخصص أساسا لدراسة وتحليل ظاهرة الارهاب الديني المسلح في الجزائر، هذه الظاهرة التي خربت البلاد و ملأت النفوس حقدا و ضغينة كما انها جعلت الجزائر على حافة التشرذم و التفكك و الفناء.

و إذا كانت روايات الكاتب الجزائري ياسمينة خضرا قد ترجمت إلى أكثر و أقوى لغات العالم، فاننا بهذه الترجمة الأولى من نوعها لرواية (بم تحلم الذئاب) نضع اول نص لياسمينةخضرا بين يدي القارئ بالعربية. وأعتقد ان القارئ بالعربية سيجد في هذه الرواية الجرأة الكبيرة و التحليل

الصادق و الدقيق لماساة البلاد من خلال تتبع شخصية شاب (نافا وليد) الذي ينحدر شيئا فشيئا إلى هاوية الإرهاب، وتلك حال الكثير من الشباب من أبناء الجزائر الذين انقادوا، في ظل الفراغ السياسي، وفي ظل تفاقم الازمات الاقتصادية والنفسية و كذا في ظل الفراغ الثقافي و تحجيم و قمع الحريات الفردية و الجماعية التي عاشتها الجزائر منذ الاستقلال، كل هذا الواقع الكابوسي و القمعي المغلق جعل السقوط في الإرهاب طريقا من طرق الانتحار التي يماوضسها الشباب كجواب على واقع سياسي لا يسمح بالتفتح و ضمان المستقبل و انسداد الافاق، واقع تسيره طبقة سياسية جاهلة همها الربح الفردي و الأنانية السياسية التي لا تعكس سوى الخواء الفكري و الممارسات القمعية و معاداة الديمقراطية.

في (بم تحلم الذئاب) تتحقق متعة القراءة، وفيها يجد القارئ تحليلا لواقع البلاد و أيضا صورة عن جيل جديد من كتاب الادب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية و الذي و مرة اخرى يؤكد ارتباطه ببنية المجتمع الجزائري و بتاريخ البلد الباحث عن الحرية و الديمقراطية و الجمال.

امين الزاوي
وهران في 05 يوليوز 2002

الإهداء:

الى اطفالي، و الى جميع أطفال العالم.

تصبح الرفاهية فقراً
بسبب تلك البساطة الكامنة فيها
سعيد ذاك الذي يستطيع أن يجد
الرفاهية في الفقر.

سوغاوارا نو ميشيزان.

لماذا لم يمسك جبريل رئيس الملائكة بذراعي عندما كنت اتاهب لقطع حنجرة ذاك الرضيع المتقد حمى؟ مع انه، بكل قواي، ما كنت أعتقد ابدا بان شفرة مديتي ستجرو على ملامسة هذا العنق النحيف الذي يتجاوز بالكاد معصم طفل صغير.

ذاك المساء، المطر المطر يهدد بابتلاع الارض كلية. السماء غاضبة. طويلا، انتظرت أن يدير الرعد حركة يدي، أن يخلصني برق من الظلامات التي تحتجزني رهينة ضلالاتها. انا الذي كنت مقتنعا انني جئت الى العالم للاعجاب و الابهار. انا الذي حلمت بالاستيلاء على القلوب كل ذلك بفضل البركة الوحيدة لموهبتي.

انها السادسة صباحا و النهار، والنهار لا يشجع كثيرا على المغامرة في الشوارع. منذ أن تنكرت الجزائر العاصمة لاوليائها، تفضل الشمس ان تبقى في عرض البحر، منتظرة ان ينتهي الليل من حزم مشانقها.

رجال الشرطة ما عادوا يطلقون نارا. أرى واحدا منهم كامنا خلف غرفة الغسيل، في أعلى كوخ. انه يراقبنا من خلال منظار بندقيته، الأصبع على الزناد. في الأسفل، في

الحي المحاصر ، لا شيء غير عربة متحجة و سبارتين برحاجهم المكسر ، لا علامه للحياة.

بهلع قيامي، اخلي المبنى مع الساعات الاولى للاشتباك. على الرغم من النداءات للهدوء، مع كل تراشق، أبار السلالم كانت تدوي بنحيب النساء و الاطفال. اصيب علي في اللحظة التي كان يحاول ان يرى ما يجري على درجات السلم. لقد انفجرت في وجهه عوينة البنب. سقط الى الخلف، معورا، سوخرة الراس مشروخة. ثم، عم سكوت سحيق غطى الاروقة الخالية. لقد قطع الغاز و الكهرباء ثم الماء. لكي نفلت، جربنا منارات عديدة للتسويه، دون جدوى. اقترح علينا أحد الضباط أن نضع السلاح و أن نسلم انفسنا. عيرته واصفا اياه بحقارة المرتد، ثم أفرغت في اتجاهه ملقم البندقية. لا ماسوف عليك، صرخ الضابط. كان في صوته نوع من الاحتقار .

انها النهاية. لقد تخلى عنا الأنبياء. لقد اصبحنا مثل الجرذان. كل شيء انقلب من حولنا. و كانما العالم قد وجد متعة خبيثة في التحلل، أن يسربنا بين اصابعه كنفثات دخان.

لم يبق شيء كثير في الشقة التي التجأت اليها مجموعتي. النوافذ فجرت، الجدران تقشرت تحت سعر وجنون الرصاص. ما عاد لرفيق حراك. انه غارق في بركة دم، العينان زانغتان و العنق ملتوية بشماتة. يحملق دوجانة في السقف المتشظي بفعل قنبلة. مات حنضلة في الدهليز ، الوجه موجه في اتجاه حذائه، الأصابع مغروسة بالأرض. اخوه الأصغر أسلم الروح على الساعة الثالثة صباحا. وحده ابو تراب لايزال يتنفس، منهارا اسفل حوض المطبخ، بندقيته فوق ركبتيه.

يرسل في اتجاهي نظرة استهزاء خاطفة.

نبهتك الى أنها ليست فكرة جيدة.

نظرته المهلوسة تجحظ بالألم . صدره ينقبض. انه يحاول ان يبحث فى اعماقه عن شهقة هواء تساعده على الإبتلاع. ببالغ الحذر، مد فخذه فى اتجاه كرسي و انقلب على الجنب الاخر كي يواجهني.

لو تفرست وجهك، قال لاهثا، كأنك منظف المداخن و قد علق في مدخنة.

عدل من نفسك، نصحته.

ضحكة عابرة عصبية خضته:

هذا صحيح، هناك سفر طويل ينتظرنا.

سيلان لعاب نزل من شفته قبل أن يدرك لحيته في رجفة مترددة. بيده اليمنى أزاح قميصه الملطخ بالدم عن جرح غائر كان يلتهم جنبه.

ان احشائي في الهواء و أنا لا أشعر باي شيء.

في الخارج، تقدم شاحنة مزنجرة تهتز لها الجدران.

انهم يحضرون المدفعية الثقيلة.

اشك في ذلك قليلا.. أتعتقد أنهم سيتذكروننا؟

حدقتا عينيه المراوتين تشعان للحظة ببصيص خافت. يقضقض فكيه ثم ساخطا:

و كيف !! إنهم لن ينسوننا أبدا. ستبقى أسماؤنا في الكشوفات، وعلى النصب. ستنشد الكشافة مدائح خاصة بنا في أعماق الغابات!. في أيام الاحتفالات ستوضع أكاليل الزهور على قبورنا. وخلال كل هذا الوقت ماذا يفعل الشهداء الخالدون؟سنهنأ بسكينة في الحدائق الخالدة.

نظرتي المستهجنة داعبته. إنه يدرك كم هو مرعب *الإلحاد* بالنسبة إلي.عادة، يحذر الجميع في ما يفصلونه ويتداولونه أمامي. لأول مرة، أبو تراب، الأكبر وفي لي من

كل أتباعي، يتجرأ ليثير حساسيتي. يمسح انفه على كتفه، يعود ليضطهدني بعينين من وراء القبر. صوته الاجش يصلني في نفس مغيظ:

هناك *في الأعلى* يكفي ان نفرقع اصابعنا لنجد رغباتنا مقضية. نختار حريمنا من جموع الحوريات اللواتي تملان جنات عدن، و عند كل مساء، عند الساعة التي يجمع فيها الملائكة ناياتهم، نذهب لقطف شموس بسلال مليئة في بساتين الرحمان.

قناصة النخبة ل GIS تقتحم السطوح المجاورة لتتموقع في أماكنها بوثبات خفيفة و ثابتة و دقيقة، غير مدركة كالظلال.

لا تقترب كثيرا يا *أمير* من النافذة. قد تصاب بلسعة برد.

بعيدا صفارات الإنذار تدوي، تتسلل بين منافذ الحي فتصل إلينا لتغمر ملجأنا. يقطب أبو تراب حاجبا و بوهن بدا يضرب مقياسا بأصبعه.

اخر السمفونية.. خذ، ها أنا أجد اسماء لأي شيء، فجاة. *السمفونية الأخيرة*... لو أنهم منحوني كل ثروات الارض ، ما كنت لأعثر على عنوان مثل هذا في عز الراحة الكاملة.كنت اجهل ان محاذاة الموت تمنح الموهبة.

لا تلهيني.

لقد ضيعت موهبتي.

ألا تتكتم.

يضحك ، يسكت لدقيقتين ثم، ضاما سلاحه، يستظهر :

" من كل أخطائي، لا ندم لدي, من كل افراحي، لا واحد يستحق. التاريخ لن يكون له عمر سوى عمر ذكرياتي، وللأزلية سهو و بهتان نومي." ... مسكين !! إن رأسه مليئة، سيد علي، كان شاعرا حقيقيا...غير ممكن، كيف أن الناس

طارنون. كنت أعتبره متخلفا عقليا، نوع من ذوي الشخصية الضعيفة الرخوة، و في ساعة الحقيقة، يظهر لك شجاعة لست ادري من أين له بها، ليقسمك إلى شطرين. هل تتذكر؟ لقد رفض الركوع. لم يرتجف عندما أغمدت مسدسي في صدغه. *هيا افعلها* ، كذا قال، *اني مستعد*. رأسه تفرقعت كدمل ضخم. ولم يخدش عجبا و لو بملمتر ابتسامته.

لا، لا اتذكر. لم أكن هناك. و لكني لم انس.

كيف يمكن للمرء أن ينسى حين يقضي الايام في التنكر لذاكرته ويقضي الليالي في إعادة تشكيلها و تركيبها كلعبة بوزل puzzle ملعونة كي تستقيم من جديد، مع الفجر، لتشويهها مرة ، و مرة؟. كل الأيام. كل الليالي. دون توقف...

نسمي هذا *هوس* ، و نعتقد أن الكلمة كافية للانتصار على الهاوية.

ماذا نعلم، حقيقة، عن *الهوس*؟

لقد قتلت أول رجل، اول ضحيتي يوم الاربعاء 12 جانفيي 1994 على الساعة السابعة و خمس وثلاثين دقيقة. لقد كان قاضيا. كان خارجا من بيته ، متوجها نحو سيارته. ابنته ذات الست سنوات كانت تسبقه، ضفائرها مزينة بأشرطة زرقاء، محفظتها على ظهرها. لقد مرت بمحاذاتي دون أن تراني. القاضي يبتسم لها، لكن نظرته كان بها شيء من الألم. وكأنما حيوان مطارد. لقد قفز إذ اكتشفني لابدا أمام باب العربة. لا ادري لماذا واصل سيره و كأن شيئا لم يكن. ربما اعتقد أنه وبتجاهل التهديد يكون له الحظ بإبعاده. أخرجت مسدسي و أسرعت للالتحاق به. توقف، واجهني. في كسر ثانية، هرب الدم من وجهه وانمحت ملامحه. في لحظة ظننت انني أخطأت في الشخص. "خوجة ؟ سألته. - نعم " ، أجابني بصوت دون نبرة. سذاجته - او ثقة بالنفس- جعلتني أتوانى.

شعرت بكل أتعاب العالم كي أرفع ذراعي. تسمر اصبعي على الزناد. "*ماذا تنتظر*؟ صاح بي سفيان. *أجهز لي على ابن الزانية هذا*." لم تستوعب الطفلة الأمر جيدا. أو انها كانت رافضة قبول ماساتها. " هذا غير صحيح، قال لي سفيان معنفا. ليست الان ساعة التخاذل. إنه ليس أكثر من وقح." الأرض تهدد بالتعري من تحتي. القيء يغمرني، يشبك احشائي، يكززني. لقد ظن القاضي ، في ترددي، بادرة حظ في حياته. لو أنه ظل هادنا، ربما لم يكن بامكاني الحصول على قوة للذهاب الى أبعد. كل طلقة نار كانت تزعزعني من راسي إلى اخمص قدمي. لم أدر كيف اتوقف عن إطلاق الرصاص، لم أنتبه لا إلى الدوي و لا الى صراخ البنت الصغيرة. كنيزك، اخترقت جدار الصوت، ساحقا نقطة اللارجوع: لقد اقدمت على دحرجة الجسم والروح نحو عالم مواز حيث لن أعود منه أبدا.

أبو تراب بدأ يكح. تشنج خاطف يقذف به نحو الوراء. يلتصق بأخمص بندقيته، يمدد ساقيه في أنين. بولته تنضح من خلال سرواله لتسيل فوق الأرضية.

- لا ينقصنا إلا هذا ! ها أنذا أفعلها في سروالي، الان. سيعتقد *الطاغوت* أنني رعديد. ماذا يفعل ملكاي الحارسان؟ ألن يكفيهما أنني أموت.

هل ستخرس، فاسق !

سكت.

العربة المجنزرة تقتحم الحوش، المدفع مصوب نحو مخبئنا. للمرة الأخيرة ، سلموا أنفسكم، يصرخ في مكبر صوت.

- مأزق !! يلهث أبو تراب، في أفغانستان الأمور تحدث بشكل مغاير. في كل مرة كان المجاهدون يسقطون فيها في

كمينن كانت الزوابع الرملية تهيج لتغطي انسحابهم، أعطاب عجيبة كانت تجمد دبابات العدو و أسراب من الطيور كانت تهاجم المروحيات السوفياتية... لماذا ليس لنا نحن أيضا الحق في المعجزة هنا في بلادنا ؟

يقرب أستون بندقيته الى صدغه. تتسع ابتسامته، وقحة ومرضية في الوقت نفسه. أنظر إليه كما في حلم، دون أن أحاول حتى على ثنيه عن ذلك.

امر في المقدمة، قائد. لا أحد يدري..

الانفجار يحمل مخه في تشظ مرعب من اللحم والدم، لتلتصق بعض قطع المخ بالسقف مسببة اندلاع مشادات بالذخيرة الحية بالخارج.

القسم الأول
الجزائر -الكبرى

وإذ تعبت
من البحث
تعلمت ممارسة المكتشفات
منذ أن أصبح الريح شريكي
أعمل شراعا لكل ريح.
نيتشه

(سعادتي)

1

- إن ملفك يرافع لصالحك، يا سيد وليد، قالها أخيرا مدير الوكالة. أتمنى ألا تخيب ظننا فيك. إن مصداقية مؤسستنا تقوم اساسا على سمعتنا.

اصابعه ذات النظافة الناصعة تقلب الاوراق في ارتجافة خفيفة. توقف عند صورتي، ثم عاد الى ملاحظة مقيدة اسفل البطاقة الكرطونية.

لقد اشتغلتم لمدة تسعة أشهر كسائق في الديوان الوطني للسياحة... لمادا توقفتم عن العمل؟

لقد اقترح علي أداء دور صغير في فيلم سينمائي . فكرت في أن امكانية بناء مستقبلي في السينما.

كم من فيلم؟

فيلم واحد.

شارباه الأصهبان يلتمان حول مطة اشمنزاز... استلقى على مسند أريكته ثم قال:

هذا غير كاف، لكنه يمكن أن يفيدك. ان وكالتنا يمكنها أن تقدم لك فرصة العمر. ستكون لك علاوات محترمة كما ستكون لك الفرصة لكي تبرز قيمتك أمام أشخاص ذوي حساسية لذلك ، ممرات داخل عالم الفرجة.

من جديد عيناه المزرقتان عادتا لتفحصي بتمعن.

وجه صغير و جميل، قال معترفا. و ليس هناك افضل من وجه طفولي كي يلوي ذراع القدر... هل تتحدثون الفرنسية بطلاقة؟

أتدبر امري.

عليك أن تتجنب مثل هذه الاجابات يا سيد وليد. عليك أن تكون واضحا، دقيقا و مختصرا. إن الأشخاص الذين ستشتغل عندهم ترعبهم هذه التقريبية.

مفهوم.

هذا النوع من الأجوبة في غير محله. من الان فصاعدا، قاموسك سيتمحور حول عبارة واحدة: " جيد، سيدي." أن تكون سائق واحدة من العائلات الأكثر رقيا في محافظة الجزائر الكبرى ليس عملية اصطياف. أنت مطالب أن تكون مستقيما، منتبها، مجاملا ودوما تحت التصرف. هل فهمت جيدا؟

جيدا سيدي.

أنا سعيد أن ألاحظ بانك تستوعب الدرس بسرعة.

يغلق الملف بحركة جافة.

سيقودك سائقي الى حيث هم مستخدموك. يمكنك الانصراف.

في اللحظة التي أقلعت فيها السيارة شعرت و كأن حياتي قد تغيرت. احسستني خفيفا، غير معقد، متفتحا او اكاد كزهرة في الحقل. ها هي الشوارع الاختبارية قد ولت، في حين ، امام ما يشبه البحر الأحمر قبالة موسى، الشوارع الكبيرة تفتح لي لكي تحتضنني. لم يسبق لي أن شعرت بإحساس مماثل في السابق. مع أنني كثيرا ما حصل لي و أن اعتقدت انني على قاب قوسين من اقتطاف القمر لكن المرة هذه،

حدسي ينكشف عن ملكة لا تخطئ، انها اعظم من مجرد حماس، إيمان صلب أن هذه الصبيحة من مارس هي جميلة بالنسبة لي. حين عرض علي دحمان العمل كسائق لدى واحدة من العائلات الأكثر مقاما في البلاد، رفضت على الفور. كان من الصعب علي أن أتصورني أضرب الأخماس في الاسداس خلف المقود في انتظار أن تنتهي *السيدة* من حصتها في رياضة الأيروبيك، أو أقاوم الملل بيسالة و أنا أنتظر أمام باب الثانوية مخلفات (أبناء) السيد الذين يصرفون الأزلية كي يغادرونها. كنت اعتقد أنني استحق ما هو احسن. منذ ان كلفني ذاك السينمائي المتواضع أداء ذلك الدور لم اتوقف عن الحلم بالخلود. أقضي جل وقتي في أن أتصور نفسي و قد حققت نجاحات خارقة، أوقع أوتوغرافات للمعجبين في كل ركن شارع، أسوق سيارة مكشوفة، ابتسامة أعرض من الأفق، العينان واسعتان بوسع عطشي للنجاح. ولدت في يوم عاصفة و و ردغة موحلة، ترعرعت دون ان أفقد الثقة في امالي الأكثر جنونا. كنت متأكدا من أن الأضواء، إن آجلا أو عاجلا، ستسحبني من الكواليس لتقذف بي بعيدا نحو القبة السماوية. في المدرسة، لم أكن أحلم سوى بما كان يبدو لي "مقدسا". من إنقاذ في المجلس التأديبي، كنت أستبقي الرأس معلقة في الغيم غير مكترث لابغضب معلمي و لا بحيرة والدي التي تكبر أكثر فأكثر. كنت كسولا وعنيدا، اعتمر آخر القاعة، أصبع في الأنف و العين مضطربة، و كنت لا أشعر بحالي إلا حين أنزوي خلف متاريس من وساوسي. كانت محفظتي تمتلئ بالمجلات السينمائية، دفاتري كانت تعج بعناوين نجوم الفن السابع و بقصاصات الجرائد التي تحكي عن قصصهم الغرامية وعن مشاريعهم. في بلد حيث يتحول جامعيون أكفاء و بكل طواعية إلى بائعي عصيات اللحم

المشوي لتغطية المصاريف حتى نهاية الشهر . فكرة الحصول على شهادات لم تكن لتغريني على الإطلاق. كنت اريد ان أكون فنانا. جدران غرفتي كانت مكسوة بصور لمناظر طبيعية. جيمس دين، عمر شريف، ألان دولان، كلوديا كاردينال يحوطونني، يجهدون في إنقاذي من ماساة العائلة: خمس أخوات في معاناة، أم ثائرة من شدة قبولها لقانون " دابة المحامل" و اب عجوز متقاعد و لايعرف فعل اي شيء سوى التقطيب و صب اللعنات علينافي كل مرة يتقاطع نظره بنظرنا. كنت أمنع نفسي أن أشبهه، أرفض ان ارث من فقره، أن أدجن الفصول و كأنما الأمر أمر واقع. لم أكن أملك قرشا ولكني كنت أملك اللباقة، و الموهبة للبيع. بحي باب الواد، في القصبة، من جهة سوستارا حتى أبواب باشاجراح، اينما ظهرت، كنت أجسد الأسطورة في كامل توهجها. يكفيني أن اقبع في اهم مكان بالشارع لانيره بنظري اللازوردي. تتسمر العذارى في البلكونات بشغف كي تلمحن خيالي، أوباش الركن كانوا يقلدونني في طلاقة سلوكي لكي يمنحوا انفسهم وقفة، لا شيء يثبت أمام قوة الساكنة لجاذبيتي.

هل لي بقطعة، هزني السائق.

عفوا؟ ..

اطلب منك أن تحضر لي قطعة.

قطعة ماذا؟

قطعة من قمر. منذ فترة طويلة و انا احاول ان اتصل بك، و لاسبيل لإنزالك من غيمك.

اعذرني.

أخفض من صوت الراديو. ضرب بيده الضخمة المشعرة على ركبتي.

- لاتأخذ هما، يا طفلي. كل شيء على ما يرام... هي المرة الأولى التي تشتغل فيها على هذا المستوى؟

نعم.

واضح.

تجاوز شاحنة و أسرع كي يلحق بركب من الحافلات. النسيم حرك الخصلات اليتيمة التي تسعى جاهدة لإخفاء صلعه. مكوم كنصب، كرش متدلية فوق الركبتين، يبدو متضايق في طقمه الملمع. كانت ربطة عنقه الممجعدة أضافت الى هيئة الكادح يوم عطلة الأسبوع شيئا مثيرا للشفقة.

في البداية، ينتابني قليل من الحيرة، صرح لي. ثم ننتهي بوضع القدم في الركاب فننطلق. الأغنياء ليسوا بالوقاحة التي يوصمون بها. قد يحدث أن تمنحهم الثروة أجنحة، لكنهم يحتفظون بالرأس فوق الكتفين.

يشير لي إلى علبة من العاج . فوق مقدمة السيارة على لوحة القيادة.

هناك سجائر امريكية بالداخل. إنها للرئيس، إنه لا يولي هذه الاشياء انتباها.

شكرا، إني أحاول قطع التدخين.

وافق مع خفض السرعة، أخذ مفترقا ثم التحق بطريق عرضي ثانوي. أمامنا، بعيدا خلف متاعب اليوم، أولى تماثيل أولمب الجزائر العاصمة تنثر جمالها و أناقتها بطريقة شعرية متجردة عند قدمي سلطانها.

اسمي بوعمران. في الوكالة ينادونني عادل. يبدو أن ذلك يجعلني أقل فلاحية و بدوية

نافا وليد

اذن، نافا، اذا أحسنت اللعب مع شلة المتعجرفين هذه فستذهب بعيدا. في أقل من ثلاث سنوات ستكون قادرا على

تأسيس شركتك الخاصة.إن مديرنا بدأ كرجل متاعب عند ناس من الطبقة العليا. اليوم، فليس لرؤسائه القدامى ما يحسدهم عليه. ان له سيارة مرسيديس، له حساب بنكي مرفه، وفيلته توجد خلف هذه التلة تماما، هناك. يجيء إلى المكتب مرة واحدة في الأسبوع. ما بقي من وقته يقضيه في الدوران في بلدان العالم داقا على التة الحسابية.

لا عليك سوى أن تلعب أنت الآخر لعبك، إذا كنت لا تريد ان تحسده على شيء ذات يوم.

نفخ حنكيه قبل أن يهز رأسه مستسلما.

شتان ما بين الامرين، عمري أربعون سنة، سبعة ابناء وحظ سيء كاللعنة الموسومة. من الناحية الجسمية المظهرية، فالطبيعة لم تكن رحيمة بي. إن المظهر مسألة أساسية في نسج العلاقات. إذا لم تثر الإعجاب من أول وهلة، فلا حظ لك كي تنقذ نفسك. هناك بشر هكذا جبلوا، أضاف بفلسفة. لا ينفع معهم الحاح. من شدة التطلع الى الأعلى قد نكسر مؤخراتنا. ثم بعد ذلك لن نتمكن من الجلوس بشكل مريح ومقبول.

السيارة تمكنت من التملص بسهولة من جلبة الأحياء القذرة، لتنطلق في طريق سريع مزدوج، التفت من حول التلة لتطل على قطعة من جنة بطريق معبد هانئ و أرصفة عريضة وواسعة بقدر الساحات، مزينة كانت بنخيل باسق. الشوارع خالية، متخلصة ومستريحة من قوافل الأطفال المتمردة تلك التي تعج بها الأحياء الشعبية الكثيفة. لم يكن هناك لا بقالية و لا كشك. فيلات صموت تدير لنا ظهورها، حبكها الضخمة منصوبة في اتجاه السماء، و كأنها تريد أن تتميز عن باقي العالم، أن تحمي نفسها من ورم بلد لا يتوقف عن الخراب.

مرحبا بك في بفورلي هيلس، وشوش لي السائق.

اقامة آل راجع تمد سحرها على الجهة الأخرى للحي، مقابل الشمس، بحوض سباحتها من الرخام الأزرق، ساحاتها المبلطة والتي يمكن مشاهدتها من الشارع ، واقفة في قلب الحدائق، تشبه الهة ساهرة على جنانها العدنية، إن القصر خارج لتوه من حكاية شرقية.

انزلني السائق عند حاجز من حديد مطروق. فجأة اختفت طيبة قلبه، و ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة صفراء. كان ينظر إلى ثروة الآخرين والتي تحاصره حصارا حربيا، منيعا، من شدة ثقلها حتى أن كتفيه تقوستا. بغتة مرت أمام عينيه تعريجات شاحبة باهتة مشحونة بضغينة عميقة وقاسية. في لحظة ما اعتقدت أنه منزعج مني لأنني لم أتمكن من العودة معه حيث الزحام و الروائح الكريهة المنبعثة من الأحياء الحقيرة.

اذا كنت بحاجة الى ممثل " دوبلور " ، فأنت تعرف أين تجدني، قال ذلك دون قناعة.

وافقت موافقة القائد.

أسرعت السيارة لتختفي في ركن الشارع. من خلفي، كلبا حراسة شرسان بدآ في النباح و شد العنق.

امتنع رئيس الخدم أن يمد لي يدا للسلام أو أن يشير لي بالجلوس. استقبلني ببرودة في مكتبه المضاء قليلا من خلال باب البلكون المثقل بستائر خشنة. وسط الغرفة، كان منتصب القامة كحرف (أ) على الرغم من أنه بلغ الستين، كانت نظرته جافة وحركاته متصنعة. كان ، و منذ البدء، يريد أن يهيمن علي جسديا و روحيا، أن ينزلني منزلة التابع والمرؤوس.

- هل هي عاهة خلقية، قال لي ذلك موحيا إلى لامبالاتي و فتوري.

عليك أن تكون لبقا مرنبا، قاطعني بلهجة سريعة. أنت لست أمام شباكي.

عيناه الخبيرتان و الثاقبتان رمقتاني بسرعة. لتزعزعا أفكاري في عمق مقلتي، ذاما حذائي مع انه ملمع، ربطة عنقي الجديدة و سترتي التي اشتريتها البارحة من عند صباغ راق.

هل عندكم خط هاتف في البيت؟

منذ عشر سنوات و نحن نرشي معاوني البريد لكي يركبوا لنا خطا...

لنختصر ، من فضلك.

لا.

اترك عنوانك عند سكرتيرتي.

و كيف يمكن اختصار عنوان؟

لم تصله وقاحتي إذ كان قد تجاهل وجودي أصلا.

- ستبدأ يوم الثلاثاء على الساعة السادسة بالتدقيق. ستكون لك غرفة في الجناح رقم2 . ستعدد لك سكرتيرتي مختلف الأعمال المنزلية المتوجبة عليك.

يضغط على زر. فورا تستجيب سيدة الطابق الأرضي لتصحبني.

هل هذه داخلية؟ سألتها في نهاية الرواق الاخر.

ابتسمت.

لا تعره اهتماما. إن السيد فيصل رجل لطيف حتى و إن كانت له عادة الظهور بالجدية البالغة. كن واثقا. سوف يروق لك الحال عندنا. إن آل راجا أناس رائعون و كرماء.

قادتني إلى مكتبها الصغير، أجلستني على أريكة ثم شرعت في تسجيل عنواني على دفتر . رقيقة و حنونة، *ربما*

يعود الفضل قليلا الى مجاملتها اذ قررت ألا أترك مجالا لعجرفة ذلك البخس كي يفسد علي يومي هذا.

ما قصة تلك الغرفة في الجناح رقم 2؟

لست مضطرا أن تقيم هنا. فقط لكي نعرف كيف العثور عليك حينما نحتاج إلى خدماتك. في رأيي عليك أن ترتب أغراضك القليلة هذه. سيطلب منكم مرات العمل في ساعات متأخرة من الليل. إن هذا يجنبك ضرورة ، و أكثر من ذلك، تدبر أمورك في ساعات يستحيل فيها الوصول إلى بيتك.

اشرت براسي موافقا.

ما الاسم الذي ساناديك به؟

هنا، علينا إلغاء استعمال الصيغ اللغوية الخاصة بالزمالة (On ne se tutoie pas) يا سيد وليد. قالت بلهجة واضحة و صريحة، مصحوبة بابتسامة بدا عليها الانزعاج واضحا حتى لا تشعرني بالإهانة.

حسنا سيدتي.

أنا آسفة. علينا الانضباط الصارم لتعليمات مستخدمينا.

لا يهم... ما مصير السائق القديم؟ اضفت كي أبدد سوء التفاهم.

لقد تعرض لحادث، فيما أعتقد.

ما طبيعة الحادث؟

لا أعلم أكثر من ذلك. تفضل، يا سيد وليد، كي أدلك على غرفتك.

خرجنا من باب الخدم. في صمت، إلتففنا على الساحات المبلطة، الشرفة المسقفة ثم المسبح كما ولو أن هذا الجزء من هذه الفيلة لا يعنينا. يوجد الجناح 2 خلف حاجز من النباتات التزينية، في بناية عتيقة مخصصة للخدم.تتموقع غرفتي في آخر الرواق، مزهوة بنافذتها المزينة بتعرشات

نبات اللبلاب و بمنظرها المطل على بهاء الحديقة. الجدران مغلفة بالورق المزين، الأرضية بالموكيت و السرير بشراشف زرقاء. هناك أيضا طاولة صغيرة، كرسي ارجحاني موضوع في الركن قبالة جهاز التلفزيون، خزانة ملابس، و ان هذا البذخ عزز لدي ذاك الشعور الذي امتلكني في الصباح عندما كانت سيارة الوكالة تاخذني بعيدا عن القبح الطاعوني للحانات المشبوهة.

انها الراحة، هنا، أكدت لي السيدة.

على من تقص ذلك...

طلب مني دحمان أن ألتحق به في *ليبانون* ، بار كان في العهد القديم مخصصا لاستقبال المثقفين و الفنانين و الذي، ها هو الان قد أصبح، يشهد توافد حشد من الساقطين بأذرع مثقبة بوخزات مشبوهة و بوجوه مفزعة. من قبل، كان الممثلون و الكتاب يتواعدون في هذا المكان للتنديد بانحراف الثقافة، بالرقابة القميئة و بالرداءة التي تهدد بتحويل المكتبات الى ملجا للعناكب. كان بامكاننا الجلوس الى طاولة سيناريست (كاتب سيناريو) أو شاعر ممنوع مكمم و الاستماع اليه ساعات يطلق خلالها مرارة نقده ضد مجتمع نشال غير عابى بالهاوية و الغرق الذي يهدد نخبته و لا الى تلك التصدعات التي تقرض بسرية و تكتم الأساسات. تذكر البيرة ببولة الحصان، لكن المكان كان له شرف أن ينسينا مرارتنا بقدرما كانت خيبة آمال جارنا غير مبررة. كنت من رواد ليبانون لأمور أخرى أيضا. أولا لأن مقاهي باب الواد كانت كئيبة، ولأن السينمائيين لم يكونوا ليلاقوا استقبالا لائقا بهم في مكان اخر ، كنت أتمنى لو أني أستطيع الاستحواذ على واحد منهم وأن أجلب انتباهه الى ذاك الدور المطلوب أدائه لدعم

طموحاتي. للأسف ، ومنذ أن أفسد المكان مدمنو المخدرات والشواذ ، لم يعد أحد ليجرؤ على ريادة المحل. من حين لاخر، بين دورتين مبهمتين للثمالة تنشب اشتباكات، وقد يحدث أن نتعثر في جثة مشوهة في ركن بالمراحيض. لقد فعلت الشرطة خيرا إذ شمعت الحانة، *ليبانون يستعد لإعادة فتح ابوابه، قضية لم تعالج بعد فاذا أخرى تلصق به، مؤكد أنها ستسرق منه التفرد و الأسبقية.* لطالما تساءلت مرات ما الامر الذي يشدني بقوة في هذا المعلم المشبوه المليء بالمدمنين، بالسحاقيات و ب و المتشردين المتماثلين للشفاء. ربما كل ذلك سببه هذا الجو المضبب الذي يجعل كل السموات في متناول اليد لأن كل مدمن متعود يطلق العنان لهلوساته. كامنا في ركني كنت أراقب هذا اللمامة من المهمشين بكثير من الاهتمام، تنكر البعض و الحركات المتصنعة للآخرين تمنحني قائمة لشريحة من الشخصيات المدهشة، و التي تساعد كثيرا في تكويني كممثل.

. كان دحمان ينتظرني بالقرب من الكوة المزججة، الأنف مغمور في منديل و الوجه محتقن، متضايقا كان من زكامه، تحرك بوهن كي يترك لي مكانا على المصطبة المقطعة ثم قال فجأة:

أتمنى أنك لم تقم بتصرف غبي.

ليست المرة هذه.

أرسل تنهيدة انفراج ثم استراح.

كنت لن أتحمل ذلك.

أنا ايضا.

كان دحمان صديقي الدائم. ولدنا في نفس المحسر، في مكان ما من منسيات القصبة، سوية سحقنا مؤخرتينا على الارصفة ذاتها ومعا وبذات التشهي عانينا من حنق معلماتنا

لأننا كنا في عيونهن عبارة عن كائنات طاعونية شرسة . ثم مات أبوه في حادث، فأخذ دحمان يتعقل. حين بلغ الثالثة عشر من عمره أضحى رب أسرة، عاهد امه الا يخيب ظنها. في الوقت الذي كنت أهيم فيه معلقا في غيم حلم، كان هو يعاني الامرين من أجل أن يؤدي واجباته العائلية و قد تمكن من الحصول على شهادة الباكالوريا بملاحظة. وبعد فترة تربص في معهد الفندقة بتيزي وزو، اشتغل في عديد من المركبات السياحية، رابطا علاقات كثيرة في اوساط البورجوازية العاصمية. الان، ها هو يتربع على *فاران-روا* (Varan Roi) : نادي ليلي شهير على الكورنيش، لقد اقتنى لنفسه شقة رائعة في شارع ديديوش مراد. إليه يعود الفضل في كل ما قمت به من أشغال صغيرة و التي لم أتمكن أبدا في الاحتفاظ بها بما في ذلك الدور الذي عهد به إلي رشيد دراق في فيلمه البسيط *(أطفال الفجر)* .

وهو يشد على يدي بقوة:

نافا، يا صديقي، الحظ مرافق متقلب الامزجة. لا تتركه يبتعد عنك، فهو لا يعود إلا نادرا على أدراجه. (أصابعه تؤلمني) أتسمعني؟

أظن أنني سأتعقل.

تظن فقط؟

تمكنت من تخليص يدي الموجعة.

كأنك لست سعيدا، ثم هزهزني.

لا يمكننا الحصول على كل شيء دفعة واحدة. رددت بنكهة مرارة.

ما معنى هذا؟

إنك، على كل، لا تنتظر مني أن أقبض على السماء لمجرد أنني خادم عائلة ثرية. ألنت مستوعب الأمر: أنا الذي يشتغل سائقا، أنا، نافا وليد.

و من يكون، نافا وليد؟ و قد اشتد غضبه... واحد من أولئك الذين يغرفون من المدخرات البئيسة لأمهاتهم كي يقتنون حذاء رياضيا من الماركة المغشوشة المنسوخة، أنت هذا لا غير. لا ينفع المرور أمام الآخرين بربطة عنق من الحرير والبطن فارغ. التباهي ليس معطى لاي جلف.
أنا لست جلفا.

برهن على ذلك. كم تملك في جيبك؟ هيا اكشف لأرى. أراهن أنك لا تملك حتى مبلغ أجرة الطاكسي. لا أعلم هل هو الزكام ام أنها وقاحتك التي تثير عصبيتي، لكن أأكد لك بأنك قد بدأت تتعبني. إن الفرصة تمر أمامك، تحت أعينك، ولكنك لا تحرك ساكنا. لا يحق لنا الحزن أو الاستياء حين لا نكون ذوي شأن كبير، يا نافا. إذا كنت ترغب حقا في رقي درجات مجد الرجال عليك أن تنتهز أول فرصة تمنح لك.
بما أني قلت لك باني سأحاول.

غمر أنفه في المنديل، مسح بعناية منخريه. نظرته المجمومة تحاصر عيني، حتى تحاصرهما. عاد إلى شحنته الانفعالية.

أعرف كثيرا من الناس الذين بدأوا حياتهم في أسفل الهرم الاجتماعي. الآن، لا يمكن مجاراتهم، لا يمكن اللحاق بهم، حتى ولو استقلينا صاروخا. كل هؤلاء الذين ترى من ذوي الوجاهات، هذه المخلوقات التي تثير لعابك اليوم لم يكونوا أي شيء قبل عشرية. أتريد أن تصل أنت الاخر؟ هل تريد ان تصل إلى ما هم عليه؟
نعم، قلتها و قد كدت ان اصرخ.

اذن، مسبقا انها الخطوة الأولى .

لم هذا الاصرار ؟ لقد نسي دحمان أن هناك أناسا يولدون واقفين، لهم حساسية رفض القيام بأية خدمة. اناس يدفعون غاليا اذا ما أحنوا ظهورهم. انه لم يفهم أن ما يسميه كسلا وخمولا كان في الحقيقة، بالنسبة للبعض، سمو، ابتعاد بالنسبة للعادي. *لم أكن من اولئك الذين يرغبون في النجاح في حياتهم بسخاء*. لم يكن ابدا في طموحاتي أن احصد النصيب الأكبر او أعتلي منصبا حساسا في الإدارة. كنت أرغب أن أكون ممثلا حتى فوق سرير موتي، كنت أريد ان أحيك لنفسي أسطورة اكبر من طموحي المفرط، كنت أتشبه بمميزات الالهة، و إلا كيف أفسر لماذا جبلتني الطبيعة هكذا جميلا وسليما كالمعبود.

ليخفف من حالي و يلاطفني، أخذني دحمان للعشاء في مطعم برياض الفتح. وطيلة السهرة، ارهقني بسيل من النصائح *و أمثلة كان يعتقد أنها تريحني*. و كنت كلما أهم مهددا بالخروج من هدوني ولطفي، يقدم لي بيرة. و حوالي منتصف الليل ، كنت ثملا. لا يمكن العودة الى البيت و انا على مثل هذه الحالة من السكر، ولأن أبي رجل مصر على مجموعة من المبادىء، لم أحاول أن اغرق العائلة في الفوضى و الشواش. قبل دحمان ايوائي هذه الليلة. في الصباح الباكر قادني الى منزلنا. بمجرد أن راني والدي على سلم العمارة، حذرني قائلا:

انبهك بأني لن أدفع سنتيما. لم أطلب شيئا ، و لاتهمني قذارة صلصلتك.

ابتعد كي يشير لي الى جهاز التليفون القابع فوق طاولة صغيرة في الرواق. غفي حلم للحظة طويلة. منذ سنوات و أنا أراكم طلبات العمل، طلبا فوق آخر، أرشي المساعدين

والشباكيين، أبعث برسالة تذكير ملحقة برسالة احتجاج من اجل تركيب جهاز هاتف، دون جدوى. لقد كفاني أن تركت عنواني لدى سكرتيرة ال راجا لكي يركب التلفون في ذات اليوم.

أترى؟ قال دحمان متعجبا. إن جميل ذوي الثروات الهائلة لا يتأخر.

هززت رأسي موافقا.

اذا كانت النقود لا تصنع السعادة، فليس ذلك من خطئها.

2

على الساعة السادسة بالتدقيق حضرت إلى بيت آل رجا و قدمت نفسي. تفحص السيد فيصل ساعته بوضوح وعلانية، قبل أن يومى برأسه ايماءة الرضى. قادني إلى مرآب واسع حيث كانت متوقفة خمس سيارات ذات المحركات الضخمة الفاخرة الجديدة. شرح لي كيفية استعمال كل واحدة منها، ثم انطلق في تلقيني المبادئ الاساسية لمهنة السياقة.

لا ينظر أبدا في عيني المعلم (الباترون)، لا تمد له أبدا يدا للسلام، قال ذلك بالحاح.

بين لي حيث يجب أن أقف، كيف أفتح باب السيارة، كيف اغلقها.

بلطافة، قال مؤكدا، بلا خبط و لا قرقعة. عليك أن تلف السيارة من الأمام، لا من الخلف. حين تكون خلف المقود، عليك أن تنظر مستقيما إلى الأمام. و إذا ما وجه خطابا إليك لا تلتفت. نظرة خاطفة في المرآة الارتدادية تكفي. ليس أكثر من مرتين في الرحلة الواحدة.

كلفني بفعل دورة في هذه الفيللا، حدد " نزهتي" مشيرا لي إلى الاتجاهات الممنوعة.

للوصول الى الشارع لا داعي للمرور بمحاذاة المسبح. لكم باب صغيرة ، هناك ، تحت الميموزا.

حوالي الساعة التاسعة أرسلني إلى محل لبيع الالبسة الجاهزة. من حقي أن أقتني نصف دزينة من الأطقمة المتشابهة، و الرائعة. ثلاثة ازواج من الاحذية الإيطالية، حزمة من الملابس الداخلية، أقمصة، ربطات عنق سوداء اللون و نظارات شمسية. في اليوم التالي، على متن سيارة بيجو متألقة، أسرعت لتوصيل أظرفة إلى عشرات النبلاء. كي أتعود على المسالك الأكثر أهمية. بعد خمسة ايام كنت قادرا أن أدق الباب المقصود معصب العينين و دون تأخر في الشوارع. لدى الأوساط العليا، تعد الدقة والانتظام فضيلة؛ ليس هناك أقبح انتهاك حرمات من أن تجعل أحد الأثرياء ينتظر.

و لأن آل راجا في سفر عمل، فإن السيد فيصل مصر على أن يدربني قبل عودتهم. كان يعفيني من اجتماعات التعليمات كل صباح، يطلب مني أن استظهر عليه قوائم أسماء و عناوين، كان يقيس مساراتي، مصححا *أوراق مخططات حركاتي*، ملتهبا لكل حركة خاطئة. حين تنتابه أزمته، يتقوس ظهره و يتجمر وجهه بسرعة و كأنما هو على حافة السداد. أثناء ذلك كنت أجهد نفسي للإختباء خلف مجاملة وتذلل. في المساء ، مسحوقا من أتعاب يوم ماراطوني، أعود إلى الجناح2 و قد أوشك رأسي أن ينفجر. محاصرا في غرفتي، شعرت وكأنما أصبحت مجنونا. حتى النوم هرب من عيني. ظللت مستلقيا على السرير ، اليدان خلف الرقبة، العينان مغروستان في السقف. أحاول ان أتسلى متهكما على ذلك الطفل الذي كنته، على محن خموله، على أسراره الكبيرة. مجهود ضائع. شيء ما لم يفهم اللعبة. ها أنذا

اشتاق وبسرعة إلى ضوضاء شوارعي.، إلى دعاء الفقر، إلى دفء ذويي. في مثل هذه الساعة بالقصبة، لي عادة استنشاق الهواء على السطح، أو الذهاب لزيارة سيد علي الشاعر كي اشاهده و هو يدخن سيجارة حشيش و يقرأ نثره بين شهقتين. هنا، الصمت، الغياب، و البرودة كلها تنتن نفسي في الوقت الذي اتجفف فيه و انا أستقبل في كفي رطوبة الوحدة.

" مربطي" يشبه شرنقة عقيمة حيث لا فرصة لأية فراشة من التخلص من حصارها.

يتعشى الخدم على الساعة السابعة، في اخر مضجع يشبه القبة قبالة المطابخ. ثلاثة رجال و امراتان ياكلان على مائدة من لوح البلوط، غير منتبهين لبعضهم البعض كمجموعة من المزاريب. البستاني شيخ نحيف يابس، حزمة من عظام مرمية كما اتفق داخل سالوبيت رثة ومهترئة، الرأس أشيب و العين منهكة، يستعصي عليه توصيل ملعقته إلى فمه ، فيبذل لذلك وقتا غير قصير كما الأحول الساعي إلى إدخال خيط في خرم ابرة. كان ملتزما البعد، شبحيا، منطويا على صحنه، مقاطعا العالم الذي من حوله بحقد أصم. امرأتا التنظيف متلاصقتان في ركنهما ، الوجه ذابل و الفك مضمور و قد بدا عليهما الانزعاج من مجاورة هؤلاء الذكور. منزعجتان من فضولي، ابتلع الخادمان الاخران حصتيهما، يبدو أنهما مستعجلان على تنظيف الطاولة.

ان اي ارهاق جديد يثير الحيطة والحذر البدني. فكرت انني وبمرور الوقت سأخلص إلى استتبات ابتسامة أو حركة من الحاجبين رمز الرضى و القبول. بعد اسبوع، الاستقبال البارد نفسه، الرفض ذاته. كنت أقول للجميع صباح الخير، مساء الخير، السلام على الجميع، في المقابل لم أكن أتلقى ظل نظرة، و لا حتى تذمر، الشيء الوحيد الذي كنت أتلقاه هو

صرير كرسي او الوقوف المؤقت لنقرة الشوكة، هو وحده الذي كسر ذلك التضايق الذي احدثه وجودي غير المرغوب فيه. اجلس في الطرف الاخر من الطاولة. تقدم لي الوجبة بخفية، بصمت له دلالاته، مرات يتم تنظيف الطاولة قبل ان أنهي أكلي. في رمشة عين، ينسحب الجميع على رووس أقدامهم؛ أجد نفسي وحيدا وسط المطابخ، بشعور الغربة الذي يتحول مع مرور السهرة الى احساس باكتئاب لا حد له.

سيد علي، شاعر القصبة ، كان يقول لى بان الجزائر كانت أكبر ارخبيل في العالم متكون من ثمان وعشرين جزيرة و أكثر. و قد نسي ان يضيف بأن محيطات سوء التفاهم التي كانت تفصل بعضنا عن الاخر كانت ، هى الأخرى ، أكثر حلكة و أكثر اتساعا على وجه هذا الكوكب.

في اليوم الثامن، حين كنت أستعد بشكل جدي لترك كل شيء و العودة الى متاهات حي القصبة، اقتحم غرفتي رجل.

ألنت ، الجديد؟

دون أن يترك لي فرصة التحرك، استحوذ على قنينة ماء معدني كانت على طاولة السرير و هم بها الى فمه.

كان رجلا قويا مفتول العضلات أسود اللون، مربعا كحلبة الملاكمة، مزودا بذراعين هرقليين و ووجه فظ ومورم. سحق القنينة بين أصابعه ، ألقى بها سلة المهملات ثم مسح شفتيه بكمه. عيناه الحادتان تفحصتاني من رأسي الى اخمص قدمي.

اني أبحث عنك منذ ربع ساعة.

كنت أتعشى مع الاخرين.

مع تلك الدمى المتحركة، أيعقل هذا ؟ ما ذاك بمكانك، يا فتى. هناك مطعم خفيف(سناك) في 61 شارع فخار.

الفوككيتس (Le Fouquet-s). إن المحل ملك لجونيور. من اليوم فصاعدا تتعشى هناك.

لم يكن لي علم بذلك، قلت بارتياح.

انت تعرف ذلك الان. (مد لي يده فجاة). اسمي حميد.إني اشتغل لحساب نجل الباترون. لنغادر المكان، لقد ابيض شعري لمجرد التاخر هنا.

خرجنا من الباب الصغير تحت الميموزا. الليل قد عم الشوارع ، إنه على وشك الاتيان على آخر جيوب القيض. في السماء، قمر متلألئ عارضا كبيباته من النجوم. طلب مني حميد ان اخذ مكانا في سيارة المرسديس التحفية، انساح خلف المقود ثم اندفع فوق سنان العجلات من خلال الشوارع الرئيسية الخالية.

يبدو أن وجهك مألوف لدي، قلت له بعد صمت طويل مزعج.

في ابتسامة افتخار ، كشف لي عن أسنانه الكبيرة.

ميدالية ذهبية في ألعاب البحر الابيض المتوسط، نائب بطل العالم العسكري، نائب بطل إفريقيا، حائز على البطولة العربية مرتين، مشاركتان في الألعاب الأولمبية.

ضربت على جبهتي براحة كفي.

حميد سلال، الملاكم.

كان سيخيب ظني.

الم تختر مستقبلا احترافيا.

نعم، إلا أن سماسرة الفيديرالية أبانوا عن شراهتهم وجشعهم. قلت: لن أقتسم معكم. لذلك طردوني. بقيت سنتين في مرسيليا. فزت بالمباراة الاولى قبل النهاية. و فجأة وجدت نفسي منظف صحون في حانة.

كيف ذلك؟

اخرج مسيرو الفيدرالية مجموعة من القوانين غامضة من رووسهم الخربة و العوا عقودي. رجعت الى البلد للانطلاق في نفس جديد. لقد حرضوا الجميع ضدي، ثم طردوني من الفريق الوطني.

لماذا؟

ارادوا استغلالي، سبيكة ثمينة. اللكمات لي و القمح لهم. هكذا تجري الأمور في الفيدرالية. بلال الروجي، رشيد يانس، الكوشي، كانوا ابطال العالم بدون منازع. و لانهم رفضوا الانسياق لمخططات سماسرة الرياضة فقد تم التامر ضدهم فحطموا. اغتنم بلال فرصة تربص في كندا فاسدل ستار العودة. تحول رشيد الى ميكانيكي في بوفاريك. وحده الكوشي فقد عثر على اصطبل بنواحي غيلزان. يدرب الاطفال في الصباح ويسكر في المساء. البلاد، يا فتى ليست للخيول الاصيلة. فكي تعيش فيها عليك أن تكون حمارا او حصانا مهجنا رديئا... اه ا اذا كنت ازعجك بكلامي فلتوقفني. ما يتصل بالثرثرة فانا لاأهزم ابدا وفي كل الاصناف دون تمييز.

أنت لا تزعجني. منذ أسبوع و أنا محبوس الأنفاس، دون كلام.

ربما، لكن ذلك ليس حجة للإفراط. جونيور، حين افتح موجاتي في الكلام، يرمي لي بقرص كي يقاطعني.

قبل أن أبدي موافقتي، واصل الكلام:

درت في كل مكان، مارست كل المهن الصغيرة الوسخة. لقد صرفت شهورا على ظهر مركب صيد. ذات مساء و انا اسكر كي أهضم خيبة امالي و مرارتي، اقترح على صاحب البار ان أشتغل لديه كهزي. كان المكان سيء السمعة. معرض أصيل للوحوش الادمية. بدون سبب تقطع حنجرتك.

بسرعة، أعدت الأمور الى نصابها ، فرضت النظام. ليس لاني كنت اضرب بقوة، لم أكن في حاجة الى فعل ذلك. كان للزبائن احترام خاص لبطل رياضي. في بلادنا، لن يحصل المرء على الخلود إلا عند الشعب البسيط، فعند البسطاء من الناس تجد العز كاملا. الرسميون يهنوونك في المساء وينسونك في اليوم التالي. ليس ذلك هو همهم الوحيد. كلهم زبالة... في الكابريه تعرفت على جونيور. كان يبحث عن حارس شخصي. قال لي: أرني قبضتي يديك . كشفت له عن قبضتي يدي. قال: انهما من برونز، الآن افتحهما. فتحتهما. قال جونيور: بالداخل لا يوجد سوى الريح. و بعد ذلك أراني قبضتيه. قلت: انهما لطيفتان، لكنهما من البورسلين. ضحك جونيور، ثم فتحهما. بداخلهما، كانت النقود... أنا ملاكم. مع كل ما تلقيته من لكمات على الوجه و الراس فقد اصبحت أقسى من الزناد. لكن، تلك الليلة لم اكن بحاجة الى لوح للشروح. لقد فهمت بسرعة. هكذا وظفني جونيور.

وصلنا أمام شالي مدسوس خلف غابة فتية ذات نباتات استوائية. ناحت السيارة فوق الحصيات، توقفت قبالة منفذ مزجج. على شاطئ المسبح، رجل يرتدي كيمونو يترنح في كرسيه المهزاز، السيجار المهيب و الضخم كشبح و النظر ملكي.

انه جونيور، نبهني حميد.

سويت هندامي و انتصبت عند حافة المدخل المرمري. نظر إلي جونيور باحتقار. انفرج لباس البيت (لاروب دو شومبر) عندما حرك ساقيه السمينتين و المزغبتين ليكشف عن كلسون أحمر أجوري. السحنة موردة و بدانة الوجاهة، كل ذلك يشعرك بالثروة و من بعيد. يبلغ من العمر ما بين الخامسة و العشرين و الثلاثين، إلا إنه كان يريد أن يشعرك

بانه اكثر سنا من ذلك بما يسمح له بتلك الحركات و المواقف البطريركية.
اقترب كي اتاملك عن قرب، امرني قائلا.
صعدت الاربع درجات، تلك التي كانت تفصل بيننا ثم وقفت على مسافة معتبرة حسب اوامر و تعليمات السيد فيصل. وضع جونيور سيجاره في منفضة على شكل زهرة النينوفر، حدق في، الشفتان ثقيلتان. بنقرة من اصبعه الوسط، رمى لي بتجاهل بطاقة زيارة عليها رسم كبير.
اذهب لتحضر لي امرأة. انها تنتظرك عند فوكا مارين. اتعرف على الأقل أين يوجد هذا المكان؟
على بعد ستين أو ثمانين كلمتر.
اننا هنا نعد بالوقت (timing) . لوحة القيادة هي ساعتك، هل فهمتني جيدا.
جيدا، سيدي.
المسار مخطط على هذه البطاقة. اريدك ان تعود قبل العشرة. انك متاخر ثلاث دقائق.
التقط حميد البطاقة ، أدخلها في جيبي ثم دفعني داخل المرسديس.
طوب كرونو.
زار المحرك.
اين هي اوراق السيارة؟
سيارات آل راجا ليست بحاجة إلى ذلك. أقلع، اقلع...
استغرقت من الوقت ساعة للوصول الى فوكا، دواسة المعجال كانت باستمرار على اخرها. كنت مصرا على الا اخفق في أول خرجة لي. أوصلني الطريق غلى فيلة، عند مخرج الحي. لمجرد توقف السيارة واذا بامرأة تخرج من الظلام لتنزلق خفية الى المقعد الخلفي للسيارة.

كان عليك أن تطفئ مصابيح السيارة ، ايها الغبي، نهرتني قائلة.

إنني جديد، سيدتي.

انه ليس عذرا.

ملأ وجهها المصفر المراة الارتدادية تكشيرا.

- Roule mon Dieu [1]

قالتها بالفرنسية.

فظاظة نبرتها أعجزتني. تلعثمت، و انطلقت مرتطما بالرصيف. الصدمة هذه خضت السيدة فارتطمت بالباب.

أيها الغبي ، قالتها بحنق، لتعد الى دوارك لترميم حنطورك.

أنا عاصمي أبا عن جد، جاوبتها بحدة بادية لكي أظهر لها أنني مستعد أن أتخلى لها عن سيارتها العتيقة و الرجوع إلى بيتي مشيا على الأقدام.

هدأت ، شعرت و كأنها قد فقدت شيئا، بحثت حواليها، ثم نبشت حقيبة يدها قبل أن تستلقي على متكئ المقعد، منهكة ومقطبة. حين ابتعدنا قليلا، أنارت مصباح سقف السيارة ثم عاودت البحث على أرضية السيارة ثم التنقيب في حقيبة يدها.

قلت لها مصالحا:

هل أستطيع مساعدتك، سيدتي؟

نعم: أن لا تتدخل فيما لا يعنيك.

تصادمت نظراتنا على صفحة المرآة الإرتدادية.

أتريد صورتي؟

أزحت نظري.

نفسها المتقطع شعرت به يحرق قفاي طيلة بقية المشوار.

كان حميد يرقبنا عند مدخل الإقامة. بمجرد أن تعرف على المرسديس حتى جرى و هم بفتح الباب حتى دون أن

ينتظر توقف السيارة. كانت المراة قلقة في مقعدها الخلفي، مراج خائب. في اللحظة التي كانت تنزل فيها انتبهت الى انها كانت عارية وقد لفت جسدها في معطف من فرو. التحق بنا جونيور، ضمها بكل وقاحة ثم قبلها على الشفتين.

انسيت ابتسامتك فوق علبة بودرتك، يا عزيزتي؟

اووف، أحضرت لك معي هدية، لكني ضيعتها.

اووف، اعتقدت انك لست مسرورة برؤيتي ثانية.

دفعها امامه، ثم ضربها على موخرتها ضربة رنانة.

سنحل مشكلة هذا المفاجاة، الكنز و على طريقتي الخاصة، طبعا.

اغلقا الباب الزجاجي في عقبهما.

أتعرف من هي هذه؟ سألني حميد بصوت محموم.

لا.

اذن حسنا، انها هي: ليلى سكار، أنها قادرة أن تدير رووس التماثيل. ابنة دبلوماسي، يحكى ان اميرا مشرقيا قد تخلى عن ألقابه لمجرد انها طلبت منه ذلك.

دون شك، علي ان أصدق هذه الحكايات.

أنا، أصدق ذلك. حتى اليوم، أية شخصية مهمة تكون سعيدة إذا ما لحس لها اصابع قدميها. في سنها الأربعين، لا تزال المرأة التي تثير الطمع أكثر في كل الجزائر الكبرى. عندما تعرف عليها جونيور كاد أن يفقد كل ثروته لاجلها. مع ان له حريم في كل ركن. تعد ليلى بالسبة اليه افضل وسام انتصار، مجده. على الرغم من فارق عمريهما الا أنهما يثيران غيرة المدينة كاملة.

انا مرهق، قلت، فقط لكي أوقف ثرثرته و هلوساته. أيمكنني الانصراف؟

ليس هذا بالسوال، ستعيدها إلى بيتها بعد سويعة. زوجها يعود مع الفجر، وعليها أن تكون هناك لتقبله.

زوجها يدخل عند الفجر؟...

هيه، هناك فانتازمات أساسها وفقط المخاطر التي تتسبب فيها. إنك لم تر شيئا بعد...

رافقت المرأة حوالي الساعة الثالثة صباحا. خلال المشوار كله لم نتبادل أية كلمة. كانت مستلقية على المقعد الخلفي محدقة في السقف دون رمش. دخنت سيجارة و هي تستمع الى الموسيقى المنبعثة من جهاز الراديو. حين الوصول أمام بيتها، انتظرت لأفتح لها الباب ثم دخلت دون أن تنظر إلي. قبل أن أعود أدراجي، لاحظت علبة صغيرة ما بين مخدات المقعد الخلفي. عدت لأسلمها إليها.

نسيت هذه، سيدتي.

نظرتها الموثرة الرقيقة لم تكن لتهتم بما كنت أحمله في كفي، كانت تفضل أن ترتمي داخل نظرتي كي تحاصر افكاري. شعرت بنظرتها تتسلل إلى اعماقي، مثل سيل من الحمم، لتغرق دواخلي و تقض روحي. بحركة واهنة، أصابعها أزهرت خدي و أثارت ارتعاشات في جسدي. ثم فجأة تمالكت نفسها و قالت:

أنا، أبدا لن أنس شيئا، يا صغير.

أدركت أنني ما فهمت شيئا، فأضافت:

يمكنك الاحتفاظ به.

على هذه العبارة، أغلقت الباب بهدوء ما بيننا.

عند عودتي إلى السيارة، فضضت العلبة لأسقط على ساعة هائلة من نوع رولكس مرصعة في سوار من ذهب.

نافا، يا طفلي، هكذا خاطبت نفسي، لا اعلم هل الدرجات التي تصعدها ستؤدي بك إلى منصة أو إلى مقصلة، ما هو مؤكد: إن ساعة الإنطلاق بدأت...

3

لقد عاد ال راجا من السفر منذ اسبوعين. ذهب حميد لإحضارهم من المطار، لم تسمح لي الفرصة حتى الآن و لو لمرة واحدة أن أصادفهم. لقد حرص السيد فيصل على سد البويب الذي يفصل فسحة غرفتي عن باحة المسبح. من الصباح إلى المساء أقضي الوقت في ترقب، أتفحص أظفاري و اتصفح المجلات ذاتها. باستثناء الطلبات والمشتريات الصغيرة التي يكلفني بها " القهرمان" (رئيس الخدم) ، والتي هي لحسابه الخاص، فإن مستخدمي يجهلونني. السيد راجا متغيب باستمرار. أما السيدة فلا أعرف منها و عنها إلا صوتها الخشن الذي يثير الفزع في الخدم و يحدث التفرقة والتشتت في القصر.

في أثناء ذلك، كلفني جونيور بمهمتين. الأولى: حين ذهبت الى تيزي وزو لتوصيل هدية الى أرملة أحد الصناعيين. أما المهمة الثانية فهي مصاحبة إحدى العاهرات إلى وهران. أربعمائة و ثلاثون كلمتر من العواصف، من الطرق الوعرة و الازدحامات الخانقة. هتفت إلى جونيور طالبا منه رخصة قضاء الليلة بالفندق. سأكون على أتم الاستعداد بعد حمام ونوم هادئ. " غير معقول، زعق في

وجهي في الطرف الاخر من الخط، اريد السيارة غدا، في الساعة الأولى." لم أمكث أكثر من وقت تناول سندويتش في محل حقير . ثم عدت اعقاب الطريق. سقط الليل. المطر يسقط حبالا، و البروق تخطفني. هذه الاربعمائة و ثلاثون كلمتر كادت أن تودي بحياتي. نمت على المقود لانتهي في زروع الحقول.

ستدفع ذلك من جيبك، حذرني حميد و هو يعاين مقدمة السيارة المرسيديس معوجا. لو كنت في مكانك لأسرعت بحثا عن مطال ممتاز.

اين هو جونيور ؟ ظننت أنه بحاجة الى السيارة.

لقد طار الى باريس في الساعة التي تلت مكالمتك.

لماذا أعادني بهذه السرعة، يا إلهي، في جو رديء كهذا؟

هذا، يا فتى، ليس من شأني، لا أحد يعرف السبيل اليه.

كان علي أن أتوسل الى دحمان لأجل مصاريف تصليح السيارة. بعد هذه الخيبة و المرارة عدت الى التدخين. كنت كشخص متهور عنيف. دون ان أنتبه الى ذلك، كانت أيامي تثقلني، سهراتي تمر بسرعة. في النادي الليلي فوكيتس؛ على الرغم من أن الجو مرح كنت أجدني لا اتوقف عن مراقبة الهاتف. السيد فيصل يحرص على معرفة كل تحركاتي. علي أن أترك له معلومات المكان الذي أكون فيه. باستمرار ، كان يهاتفني في ساعات غير متوقعة فقط ليتأكد بأنني لست ثملا ولا متهورا. عندما أرد عليه مكعكعا ، مرهقا، كان يجد حتما شيئا كي يبرر قهره لي قبل أن يطلب مني مغادرة المكان مفسدا بذلك علي مثل هذه اللحظات النادرة للراحة.

ثم جاء دور صونيا، البنت الوحيدة لال راجا. مخلوقة علقمية، جميلة كالوهم الذي لا يمهل كي يعيرك كل الافات. حين ذهبنا لاستقبالها في المطار، سقطت فورا في سحرها،

بدت لي نحيفة جدا وسط حقائبها. رأسها معصب بمنديل لبوهمية راقية، و فخذاها محصورتان في جورب لصوق مدهش. كانت طويلة القامة، شقراء، رشيقة القد، تذكر بحزمة قمح تحيي روعة الصيف. تكرمت علي بنظرة عميقة و ملحة اذ كنت أرتب رزمها في (المالة) صندوق السيارة الخلفي. خلافا لنظريات السيد فيصل، فقد اخذت مكانا لها في الأمام بجواري، ولم يفارق نظرها منظر وجهي الجانبي.

انت هو العامل الجديد؟

نعم، يا انسة.

يبدو و ان كلمة "انسة" التي صدرت مني أثارت التسلية لديها.

ما هذا، حكاية الفيس هذا؟ أصحيح أن المتطرفين لهم بلديات في بلدنا؟

نعم، يا انسة.

هل جميع الفتيات يرتدين الحجاب؟

ليس بعد، يا انسة.

حسب رأيكم هل سيحكمون البلد؟

هذا ممكن، يا آنسة.

في أوروبا لا يتكلمون سوى عن هذا الأمر. أتساءل هل احسنت فعلا اذ عدت.

استلقت على متكئ مقعدها و قد رفعت شعرها في حركة اشمئزاز:

كنت في غاية الراحة ، في جنيف... هل تعرفها؟

لا ، يا آنسة.

ثم، معتقدا انتهاز الفرصة، أضفت:

كنت أرغب العمل في السينما.

حملقت في لثلاث ثوان طويلة:

احقا ذلك، ان لك هيئة الممثلين.
شكرا، يا انسة.
سكتت و قد احزنني ذلك. كنت اتمنى ان يستوقفها الموضوع اكثر، ان تقول لي بانها ستحاول ان ترى ما باستطاعتها القيام به في صالحي، أعندها معارف في هذا الوسط السينيمائي، اشياء من هذا القبيل. لا شيء. اشعلت الراديو ثم انزوت خلف صمت منيع.
في اليوم الموالي، جندتني. أوصلتها الى ناديها، في القولف. وقد انتظرتها طوال الصبيحة في الموقف، تحت شمس من رصاص. عند منتصف النهار اخذتها الى باش جراح، هنا أيضا، اعترقت يداي على المقود. حوالي الساعة الثالثة زوالا، عادت الى النادي كي تنسى نفسها هناك حتى سقوط الليل. لم اتناول لقمة منذ فطور الصباح. اكتفيت بسندويتش الذي لم اتمكن حتى من استهلاكه كاملا.
طوال سبعة أيام و سبع ليال، لم أتوقف عن التململ على مقعد السيارة، على دعك علب سجائري بحركة عصبية. غير قادر على الابتعاد عن السيارة، لان صونيا كان يفزعها امر البحث عن خادم. ذات مساء، و لأنني التجات الى مطعم على الجهة الأخرى من الشارع، صرخت في معاقبة و مهددة:
- ثم ماذا أيضا؟ زعقت في، في حين بدا الناس يتجمعون من حولنا. إن السيد يريد ربما ان احضر له طعامه الى السرير. لا، تتصور نفسك من ؟ لا حق لك في مغادرة السيارة إلا برخصة مني. أشترط أن أجدك حيث أتركك. إذا لم تعجبك هذا فلتعد الى خيمتك.
حسنا، آنسة.
ايه، جيد. دمدمت.(؟؟؟؟؟)

لم أشعر أبدا أني قادر على كره شخص إلى هذا الحد. بصمت، فتحت لها الباب، أغلقتها خلفها بكل أناقة. شق علي رسم سبيل وسط هذه الغوغاء الساخطة. ثم انطلقت في اتجاه اعالي المدينة. اوقفت السيارة تحت شجرة خروب، في مكان خال .

قطبت صونيا بحاجبيها ثم قالت:

أين نحن هنا؟

التفت نحوها، و إذا هي ترتعش و قد أدركت ما بعيني. بهدوء وضعت يدي فوق كتفها و بحركة قوية و عنيفة سحبتها نحوي:

اسمعي أيتها الانسة. حقا ، فأنا لست سوى سائق سيارة خشن وسوقي. صحيح يمكنكم أن تتخلوا عن خدماتي متى عن لكم الأمر، لكن هناك أمر أنتم مخطئون فيه و لا تدركونه: إنني كائن إنساني، و لي الحب الخالص و الكبرياء. هذا لا يكفي لكي أسلم من الأحكام المسبقة، و لكن لاأملك غير كبريائي. إذا ما فقدتها، افقد معها الحياة.

ابتلعت ريقها حين أرخيت قبضتي و اخليت سبيلها.

ظننت أنها النهاية، و أن صديقي دحمان سيحاسبني على فعلتي هذه حتى اخر أيامه. لقد كنت مخطئا. في اليوم التالي حملت لي المنظفة علبة صغيرة. بالداخل، وجدت سلسلة من الذهب الخالص الممتلئ و قطعة من الورق المعطر كتبت عليها: إذا كنت ستسامحني، فعلقها في عنقك.. من يومها لم تعد صونيا توبخني، لكنها تمادت في استعبادي بشراسة إلى الحد الذي كنت أشعر فيه بسلسلتها حول رقبتي شبيهة بقلادة ثقيلة من حديد.

استدعاني السيد فيصل في ساعة متأخرة من الليل. صارما وصلبا من وراء مكتبه الفكتوري، بمنديل، كان يجفف

وبعصبية عرقا. شحوبه و جبهته المعراقة الراشحة جعلتني افكر في الاسوا. بدا برخي عقدة الفراشة حول عنقه، قطب جبينه و كأنما يجهل سبب حضوري في مكتبه. مستعيدا قدراته، مسح رقبته، ذقنه ثم حاول التركيز :

السيدة تريد الخروج... انبهك: انها تكره القلقلات. ايضا عليك ان تتحاشى الحفر و الطرق المهترئة غير المستوية عليك ان تسوق بتعقل. لا تفرط في السرعة سق بحذر.

دفعة واحدة وجه لي جملة من التعليمات، قبل ان تخونه انفاسه. وكان مصيره مرتبط بكفاءتي في السياقة. بديهيا ان السيدة راجا كانت تثير فيه رعبا وهميا. و كانما كانت تضع على عاتقه مسؤولية اي حادث منزلي.

نافا ، لن أكرر ذلك مرات: كن متزنا صاحيا و حذرا، اضاف وهو يسرع في الرواق.

اعدك.

لا بد و أن تكون السيدة راجا قد سحرت في شبابها الكثير من الطامعين. احتفظت رقة ملامحها باثار نبالة حقيقية. انهار جسدها و هي لا تزال في الخامسة و الخمسين من عمرها، لقد بدت كنصب مصعوق. داهمها الوقت في اللحظة التي لم تكن تنتظره فيها. لم تعد تدرك كيف تحاوره أو تتفاوض معه.

محنطة في لباس الساري ذي الانعكاسات الغسقية ، تربعت السيدة على المقعد الخلفي. كانت كالهة تستعد للتسلل الى تابوتها. عيناها الواسعتان معلقتان دائما بالنيازك، لكن وجهها الذي قرضه المرض بدا مستسلما و لم يعد يعتقد في المعجزات. انه يتآكل و يتضاءل بشجاعة وعزم داخل بهائه القديم الغابر ، شبيها بأسطورة قديمة لم يعد لها اي سحر ، بهاء شبحي، محمض، و قد عاد الى تعقله عن طريق ادراكه

عجز هذه الثروات الهائلة في الانتصار على الانهيار الذي تحدثه السنوات على الرغم من عمليات الجراحة التجميلية وشد الجلد واستعمال أجود مستحضرات التجميل.

لم تفه بكلمة منذ أن امتطت السيارة. و حتى عندما لم انتبه فمررت فوق حفرة مليئة بالماء، لم تنطق قط. اكتفت فقد بإعادة جناح من خمارها إلى وضعيته. ثم واصلت تأملها لأضواء المدينة بسكينة طفلة أمام حوض أسماك.

اجتزنا حيا سكنيا هادئا، الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ولا وجود لحركة ظل في الشوارع.

بين الفينة و الأخرى، كانت السيدة راجا تدلني على الطريق باحتقار - " إلى اليمين "، " إلى اليسار " ، " إلى الأمام" إلى أن طلبت مني أن أتوقف أمام بيت صغير بنوافذ منارة.

تعال معي.

نزلت من السيارة دون أن أساعدها. دقت على الباب. فتحت لها امرأة ثم انصرفت حينما تحققت من شخصية الزائرة. دخلنا إلى قاعة استقبال مرتبة: أرائك مغلفة بالبروكار ، عاكس نور صيني من البورسلين،وفضية متلألئة.

كان هناك سيد مستريح على الأريكة وفي يده غليون. كانت صلعته تلمع تحت الثريا اللامعة الصافية. انتفض حين رآنا ، كانت علامات الإنزعاج بادية عليه أكثر من المفاجأة. تناول معطفه و خرج إلى الشارع، دون أن ينطق بكلمة.

كانت السيدة راجا تتمنع من النظر إلى المرأة الشابة. ذلك لأنها كانت أن تظل فاضلة. انسحبت قليلا جانبا كي تفسح الطريق لمرور ذلك الرجل الذي يبدو و كأنما يثير فيها الاشمئزاز.

استندت المرأة على الجدران حملت سيجارة طويلة إلى شفتيها المنزوفة مصوبة دخانها نحو السقف .
ركب الرجل السيارة و التحقت به بكبرياء و برودة السيدة راجا ، و بلا مبالاة اشارت علي ان اعيدهما إلى البيت، ساد صمت مشحون المقعد الخلفي، حتى أنه بلع هدير المحرك. اطلق الرجل تنهدا ثم استدار نحو النافذة ، حيث انعكاسات المصابيح العمومية كانت تنزل على وجهه في شكل خطوط ضوئية لا يمكن القبض عليها.
كانت السيدة راجا تنظر إلى الامام، الشفتان مندملتان والعينان معتمتان. كنت أتخيلها و هي تقاوم للحفاظ على كرامتها. بعد ان سلكنا بعض كيلوترات، بدلت العزم وضربت بمعصمها على المقعد ، و قالت:
ما قصدك يا صالح؟ قد أتفهم أن تخونني مع سكريتيراتك الكثيرات، لكن أن يكون ذلك مع أختي....
لم يجب السيد راجا و أبقى وجهه ملتصقا بالنافذة، و هو يحدق بعناد في نصب مقام الشهيد المنتصب أعلى الهضبة المطلة على العاصمة.
ما أن قضيت خمسة أشهر عمل عند ال راجا حتى تشتت احلام طفولتي في عرض المتعب التي لا تنتهي و لا تحد، التقيت بشخصيات شهيرة، نقلت صحفيين و رجالا-صناعيين، ذوي النفوذ المطلق و اليد الطولى، و لكن و لا مرة واحدة اكتشفت انظارهم ذلك الثقل الذي كنت ارزح تحته، و اتمنى أن أتخلص منه.
لم يكن أي أحد من هولاء ليهتم لاضطرابي و قلقي، إلا حينما كان ينبهني إلى أغراض تافهة، أو كي يعاملني بقساوة لا لشيء إلا لتأخري عن موعد لبعض الدقائق.

لم يكن مظهري كافيا لإثارة أحد منهم، فلا ابتسامتي الأولمبية الملكية و لا هيئتي الممتازة كانتا لهما تأثيرا على كبريائهم، كنت كحال مكان مقدس في قلب وندالي همجي. لم أكن سوى عبارة عن حوذي الأزمنة الحديثة أو حمالا حقيرا عليه ألا يدخر جهده و أن لا يجهد نفسه في سبيل التآنس مع هذه الفصيلة غير القابلة للتعامل. و مع تراكم الخيبات ، راكمت في المقابل حكمة كانت كافية لي كي أتقبل شخصيتي دون عذر كاذب. كنت أواجه التغيرات المفاجئة لأمزجة صونيا و طيش أخيها، حيث كنت أتحمل كل الطغيان بصبر و تجلد.

في الأسبوع الماضي، أيقظني جينيور من نعاسي، كان ذلك على الساعة الثانية صباحا كي يأمرني بأن أذهب لأحضر له قنينة ويسكي. كان في سكنه الثانوي مع صديقة، متمددة بجسدها على جسده ناطة ، كانا يشاهدان شريطا بورنوغرافيا فوق الأريكة و هما يقهقهان.

كل الحانات مغلقة، رغم ذلك كان علي ألا أرجع بخفي حنين. ذلك أن جينيور كان سوف يغضب مني، كما أنه ما كان ليسامحني لو أني عدت دون القنينة. كان سيعتبر ذلك اهانة له أمام عشيقته العابرة. ذهبت اذا الى سيدي فرج، كي اتجنب كل سوء تفاهم. و عند الرجوع إلى المنزل لم أجد جينيور و أميرة الليلة، لقد كانا قد خرجا للهو و السهر في أماكن أخرى ، تحت سماوات أخرى.

أنا و القنينة في يدي، فارغا كنت، منهكا من قلة النوم ومن الغضب، بدأت أصب اللعنات على نفسي. و بما أنني لم اتجرأ أن أستقيل أو أن أنسحب، أدركت بأنني فاقد الكرامة. لقد خانتني شهامتي، كل ذلك نظرا للتنازلات التي أقدمت عليها. بين رغبة الانصراف و واقع الانسحاق، اخترت الذل

و المذلة، ببساطة ، التعذيب الذاتي، التسوط. ان القبول بالانحدار إلى هذا المستوى من الاهانة هو إعلان على اننا لا ننال إلا ما نستحقه. و بعد تفكير تساءلت عن " من أنا" في المحصلة النهائية؟ أنا نافا وليد ابن عامل متقاعد في السكك الحديدية، و هذا يعني أنني ابن رجل ما كانت له القدرة على المحافظة على عزة النفس. الانصراف و ترك العمل؟ لكن إلى أين؟ العودة إلى حي باب الواد لتشمم المجاري القذرة المهترئة، للتسكع طوال النهار في أزقة القصبة الملتوية وازعاج تلميذات ثانوية " سوسطارا، ثم العودة في آخر المطاف إلى البيت كي أقاطع الحياة التافهة منسحبا إلى غرفة مظلمة؟...

لقد فات الأوان. هناك حالات من الاختطاف و الانبهار لا يستطيع أحد أن يخلصه منها. كما أنه لا مفك له منها. هذا ما جرى لي.. الآن و قد تشكلت لي رؤية ما حول طبيعة جنة الاخرين، ها أنذا أجهد نفسي على قرض الأطراف و البقايا مكتفيا بالفضلة. أو بنتفة من هنا و بتغميسة من هناك. كنت متاكدا من أن رائحة الثروة حتى و إن كانت تمر من تحت أنفي ، تلك الرائحة كانت مساوية لكل فولكلوريات الأحياء الرديئة الدونية.

فاجأني حميد قائلا:

ها أنت تتحدث إلى جدار...

إنني أتحدث مع ملاكي...

أنا لا أرى بوقه.

قهقه ضاحكا، مسرورا و معتزا برده هذا، وسحب سترتي التي كانت معلقة على المشجب و رمى بها على وجهي:

أحتاجك يا ولد.

أطلب الإذن من فيصل.

لا داعي لذلك ، لقد ذهب جينيور إلى سطيف، وصونيا على الشاطئ، أما السيدة فهي مريضة، مهما كان الأمر فإننا لن نتأخر.

ساعة فيما بعد كنا قد وصلنا إلى" دار الرحمة"، إنها عبارة عن مأوى شبيه ببيت الأموات. استقبلتنا مديرة المؤسسة في مكتبها، امرأة قصيرة القامة، نشيطة، بتسريحة صارمة، الفم شبيه بذبحة، كانت تبدو منزعجة، و قد ألقت بنظرها الحاد على حميد ثم قالت:

عليك أن تعالج نسيانك يا سيدي ، و بعد تنهيدة عميقة أردفت، طيب إنك هنا، وهذا أفضا من لا شيء، تعالى معي.

قادتنا عبر ساحة محوطة بشجر الصنار ، هناك مجموعة من العجزة ، البعض منهن كن جالسات على المقاعد الخشبية، و أخريات كن على شكل مجموعات جالسات على درج سلم مرقد مظلم.

وشكت المديرة قائلة:

نحن مرغمين على إيوائهم مكدسين ، كيفما اتفق ، ذلك أننا في حاجة إلى أفرشة و إلى مراقد، فالمساعدات تحول وتسرق أما الجمعيات الخيرية فقد فقدت الثقة و أصبحت تتعامل بتحفظ أكثر فأكثر. إن معدل الوفيات ، هذه السنة، مقلق.

فجأة، تركتنا و عادت على أعقابها، و توجهت نحو امرأة عجوز منعزلة:

لا تبقي هنا يا ميمونة، فالشمس قاسية هذا الصباح.

الان فقط جلست.

لا تكذبي يا حبيبتي، إن مكتبي مقابلك، أنا أراقبك منذ فترة ...أرجوك التحقي بالأخريات.

قبلت العجوز، مع أنها لم تكن موافقة. أدخلت رأسها بين كتفيها و قد تكورت و تحولت إلى ما يشبه شيئا صغيرا.
قالت المديرة و هي تبتعد: إنها أقدم نزيلة بالمركز، ماتت رفيقتها في الأسبوع الماضي بسبب ضربة شمس، انها تحاول اذن أن تلحق بها و بالطريقة نفسها.

وصلنا أمام امرأة نحيلة في عقدها الثامن، كانت جالسة ملتوية حول نفسها إلى ظل شجرة صغيرة. حيتنا المديرة ثم انصرفت لتتركنا لوحدنا. وضع حميد على الارض سلة الفواكه، سعل سعلة خافتة في كفه ثم وبصوت رقيق دافئ قال:
حاجة...
انتفضت العجوز. هامت عيناها البيضاوين. مدت يدا مترددة استقبلها حميد بعناية.
ابني؟...
أنا حميد، فقط حميد يا حاجة.
ابتسمت، فالتم وجهها المشوه بالتجاعيد. انها مسكينة عمياء ملفوفة في لباس مهترئ، لكنه نظيف. لست ادري لماذا اجتاح روحي شعور بالشفقة و القلق. أحسست أن المضافة أظلمت وأن الأشجار أدارت لنا بظهرها.
- ألم يحضر؟ ...
- لا ياحاجة.
-لا بأس، أتمنى أن يكون بخير.
- انه بصحة جيدة.

انه فضولي، يحشر أنفه في أشياء بعيدة عنه، تلك هي طبيعته، صغيرا، كان اخر من يذهب لسريره كي ينام. حقيقة اني مشتاقة اليه و لكني أفهم الظروف. أنه يستميت في العمل.

صوتها المرتجف كان يبدو ملتفا حول الشجرة الصغيرة، شبيها بكفن متطاير في الريح. من جديد، بحثت يدها عن وجه حميد، و اذ عثرت عليه، داعبته بملامسة.

هل معك أحد؟

نعم، شاب رائع وخير، يدعى نافا.

أله قريبة هنا؟

إنه جاء يرافقني، فأصر على أن يسلم عليك.

إنه طيب، ما في ذلك شك.

قبلت لها أعلى الرأس، قدرت ذلك، فتناوات معصمي و أبقته لديها للحظات.

حمي، يا ولدي، إن ناس الليل (العميان)، لا مفهوم لديهم للوقت. إذا غفوا أو سهروا ، فذاك لا يغير من الأمر شيئا كبيرا. إن عماهم أو ضرارتهم منفاهم. إن الضوء الوحيد القادر على الوصول إليهم ذاك الذي يجيء من قلوب الآخرين... هل تفهم ما أقول؟

أفهم يا حاجة.

إذا ما كنت متعلقة بالحياة فذلك فقط أملا في أن أعثر على رائحة ابني، أن ألقاه. إنه مرفني و مرساي الوحيد فوق هذه الجزيرة... لا، قالت مستدركة، لا تزعجوه، أنا في صحة جيدة و وضع جيد. أنا مشتاقة فقط لسماع صوته و لإدراك أنفاسه أمام وجهي. لا أحد لي غيره. حين أموت، لن أشعر بالوحدة، سأكون أقل برودة في قبري، كل ذلك إذا ما رحلت عن هذا العالم و أنا متيقنة أنني أتركه بخير. في نومي، مرات كثيرة أشعر بركلات على بطني إنها تشبه تماما تلك التي كان

يمنحني اياها حين كان بداخله. أستيقظ معروقة، واقول في نفسي إن ابني في حالة غير جيدة، لقد حصل له مكروه.

أطمئنك يا حاجة أنه بخير.

أصدقك، فليست لك أية منفعة كي تكذب علي. إن الأم مثل الطفل، تحتاج إلى اللمس كي يكون قلبها مطمئنا و صافيا. لقد أحضروا ولمرات كثيرة الطبيب إلى سريري و قد قال بان حالتي ميؤوس منها، وانني منتهية. إنني أشعر فكريا و كأنني غادرت هذا العالم، الجسد وحده يرفض الانصياع. إن قلبي ليس مطمئنا، اتفهم ما أقول؟ دقيقة واحدة من. وقته تكفي سعادتي كلها. انذاك سأرحل دون ندم.

استدارت كي تخفي دموعها. قبلها حميد على كتفها قبل أن ينسحب القهقرى. عدنا إلى السيارة في صمت. كان عابسا بينما انا أمتص سيجارة عنيدة.

من هي هذه المرأة؟ سألته حين ابتعدنا عن الملجأ.

انها والدة مستخدمك، يا عزيزي نافا. أم ذاك القوي الجبار صالح راجا. إنها تقبع هنا منذ سنوات، و لم ير ضرورة زيارتها و لو لمرة واحدة. ليس هو الذي يرسلني كي أتفقدها.

4

قبل أن يحول إلى ناد ليلي، كان الفينيك مركزا للمعوقين حركيا. كان المكان متربعا فوق صخرة و كأنما كان غير مكترث بتلك الخيم الفائضة على جنبات الربوة. كان مصرا في التوجه بالحديث إلى الله، ملتفا فوق نعشه، إلى ظل بناياته العتيقة التي يعكر هدوءها بين الحين والآخر صرير عجلات الكراسي المتحركة. المتسكعون، صعاليك الليل حين يمرون بمحاذاة المركز، يلتزمون الصمت و الخفية متضرعين إلى أوليائهم الصالحين ذوي البركات أن يحفظوهم من الدخول إلى هذا المكان. إلا أن المدينة ستبتلع فيما بعد الأراضي الشاغرة المحيطة. ورشات بناء تمسح ، تحت طوفانها الاسمنتي، الخمائل الصغيرة قبل أن تطلق العنان للبيلدوزيرات كي تقضي على ما تبقي من الحي. بسرعة البرق، نبتت الفيلات المرفهة كالفطر، لتأخذ مكانها على مساحة الجنائن التي كان السكان يزرعونها. بسرعة مذهلة أيضا فتحت طريق جديدة لتلتحم بالممر الأحرش االقديم الذي كان ينحدر فوق الأكواخ مفتخرا بشكله الجديد يدور حول خزان الماء لينطلق فوق الحي الجديد المزين باللافتات و الآرمات المضيئة بالنيونات الخاصة بواجهات جذابة والمراقص الصاخبة. لحظتها بدأ ذاك

الملجأ يثير طمع الكثيرين، وبحجة ترميمه حشر ساكنوه في اماكن اخرى متفرقة. خلال أحداث أكتوبر 88 تعرض الملجأ على حريق مشبوه، و بفضل مجهود المؤسسات الخيرية والاحسانية والبلدية، تم التنازل عن الملجأ بدينار رمزي (مقابل لقمة خبز) الى أحد المتسلطين. ذات ليل، كان المارة وبنوع من "الراحة " يفكون ما كتب على واجهة المركز. الحروف المتعددة الألوان للاغتصاب والاستيلاء غير الشرعي، حروف التي في لمعانها تشبه الفجر بالقطب الشمالي. هكذا إذن ظهر أشهر ناد خاص بالعاصمة، إنه عبارة عن مرقص كبير يرتاده بشكل خاص أبناء الطبقة المرفهة العاصمية.

على العكس من نادي القواف، اين كنت مجبرا أن أنتظر صونيا في الموقف، فنادي الفينيك وضع تحت تصرف الخدم بارا صغيرا، يتموقع مقابل حجرة الألبسة، يمكن للسائقين الاستراحة فيه، ولهم الحق في تناول همبرغير و مشروبات باردة.

منتصبا فوق كرسي عال (طابوري)، أقضم نصيبي على المحسب (الكونتوار)، العين زائغة في اتجاه الدفة التي تخفي حلبة الرقص، و التي بين خرجة ودخلة، كانت تنفسح لتحرر و ترسل دوي كمية من الموسيقى الحيوية الشيطانية و لتفسح امكانية رؤية الألعاب الضوئية و التي ترفرف فوق جموع الراقصين فريسة الهذيان. منذ أن جلت في هذا المكان، لم يتوقف أحد الرجال عن مراقبتي. في كل مرة ألتفت فيها، تجدني أتعثر في نظره الأسود الذي يبدو غير منسجم مع ابتسامته. إنه على مشارف الخمسين من عمره، الشعر أشيب و البطن متضايق في سترته الصوفية. أخيرا قرر ترك طاولته و المجيء لجلوس بالقرب مني.

ألا تتذكرني؟

حدقت فيه للحظة.

أشرط ذلك علي؟ ...

لست ملزما بذلك، لكن ذلك كان سيسعدني، ألست أنت الشخص الذي يمثل في ذلك الفيلم الذي مر في التلفزيون.

مدركا أن كلامه هذا لم يثر في أي شيء، فقد حاول مساعدتي في تحريك الذاكرة:

موسيقار سيدعلي الشاعر...

حاولت أن أتذكر ولكن دون جدوى.

لقد سهرنا معا ، قال ملحا، عند الحاج غوتي الذي زوج ابنه، في سوق الجمعة. كنت رفقة صديقك دحمان.

فعلا، لقد كنت في تلك السهرة.

إذن الشخص بآلة المندلين ذاك كان أنا. لقد قال سيدعلي لو كانت آلتي بلورة كريستال لأخرجت إلى الوجود حوريات من أطراف أصابعي.

آسف إنني لا أذكر ذلك.

هز هز برأسه:

ليس مهما ، جئت فقط لأثرثر معك. منذ ثلاث ساعات وأنا مسمر أنتظر في ركني... ألك فترة طويلة عند آل راجا؟ رأيتك تنزل ابنتهم من السيارة.

ثلاثيين، لماذا؟

لقد كانت لي معرفة بالسائق القديم. لم نعد نراه.

وقع له حادث.

أتمنى ألا يكون الأمر خطيرا.

لست أدري.

قدم لي يده مصافحا.

يحيى، سائق آل بن سلطان.

ظننتك موسيقيا.

و أنا بدوري ظننتك ممثلا... ما عاد احد يهتم بجوقتي التقليدية. إن الناس يلحون على طلب فرق الراي. الأزمنة تتبدل و العقليات أيضا.

أخرج قطعة نقدية من جيبه، دحرجها فوق الكونتوار، قبضها، اخذ يلعب بها بين أصابعه مدهشة الخفة. اغلق قبضته، نفث فيها ثم فتحها: اختفت القطعة. تظاهر بالحيرة، استدار حول نفسه بحثا عنها، مد بسرعة يده نحو معصمي، تناوله بخفة، و بتصفيقة، ظهرت القطعة بين الابهام و السبابة.

إنك ساحر أيضا.

ابتسم.

يحدث لي ذلك. كم هي الساعة الآن؟

و أنا أتهيأ لتفحص ساعتي، اكتشفت بأنها لم تعد موجودة حول معصمي.

تبا لقد أضعتها.

إنها في الجيب الايمن لسترتك.

فعلا كانت هناك.

عجيب هذا، قلت معترفا.

لقد فقدت أشياء الحاوي القديمة حظوتها. أتقن فعل كل شيء بهاتين اليدين. لقد عزفت على كل أنواع الآلات الموسيقية، و نقشت على البرونز و على الخشب، كما أبدعت كثيرا من التحف التقليدية، ولكن عندما يتعلق الأمر بالتقوت، بالخبزة، تنفصل و تنفك يداي من الحلم لتسقط على المقود. إن الموهبة لا تطعم صاحبها في بلد شعاره العلف. كما أنه قلما يدعوها حين يريد إغاثة مصيره.

حجب وجهه حزن طفيلي. تأمل في القطعة النقدية ثم أخفاها.

الموهبة، قال الكلمة بتنهد .

كان فكاه يتحركان ببطء.

إن روح الأمة تتمثل في فنانيها؛ ضميرها هم شعراؤها؛ قوتها هم أبطالها الرياضيون، أأنا مخطئ؟...

ومضت عيناه اللتان اختفيتا خلف فنجان القهوة. فاضت وجنتاه بالغم. هز ببطء كم سترته الأيسر و ظهرت القطعة النقدية مرة أخرى.

اندعكت شفتاه.

التخريب، هذا هو معنى الموهبة عندنا. منبع المضايقات، الشطارة البهلوانية، الحماقة. إنها تزعج و لكنها تثير الشفقة أيضا. في أيامنا هذه يمنح احتفال سوقي اعتبارا أكثر من تقدير الفنان. إنني اخجل أحيانا، حين أحمل المندلين. أتساءل مرات بيني و بين نفسي، أليست الموسيقى حرفة الأغبياء، انحلال أخلاقي، قضية الشاذين. إنها تسلي المتفرجين دون أن تفرض احترامها عليهم. هل رأيت كيف نعامل؟ إنهم يقضون وقتا أطول مصفقين للمناداة على دلاك الحمام أكثر مما يصرفونه في التصفيق لفنان... يسخر منك حين تقطع الشارع، يرمونك بسخريات، و يفرحون و يسرون حين يؤثرون فيك. غبي ، مسكين أتظن نفسك نجما. ها أنت مسخرة الحي. حتى اخر الحمالين في السوق يهزأ منك. والصغار ، - مدفوعين من قبل الكبار- يزعقون فيك و أنت تسرع كي تخبئ نفسك خلف الأبواب، وكأنك تحمل وباء.

لاحظت بأن غضبه كان ينفجر من أعماقه، لقد بدل الحزن ملامح سحنته، أضحى هائجا. انزعجت لحاله. بعيدا عن خفة يده و حركاته البهلوانية، كنت أتصور مدى انزعاجه لعدم تمكنه من لجم نفسه كي لا يتعرى كاشفا لمجهول عن كل هذه الآلام. رفع عينيه نحوي، منسحبا خلف ابتسامته الغامضة،

مقتنعا أن مأثر و إمكانيات قطعته النقدية لا يمكنها أن تحقق له الاطمئنان.

بعد صمت تبين من خلاله بأنه رافض للانقياد، مرر لسانه فوق شفتيه، تنخع ثم دمدم قائلا:

أقول في نفسي بأن مجتمعنا متعارض مع الفن. على كل ذلك هو شعوري حين أعزف. إن الناس لا يهمهم ما تقوم به إطلاقا. أنت هنا كي تسليهم، وفقط. و أنا، مرات أتصورني حاملا التي الموسيقية المندولين لأكسرها فوق جمجمة، أية جمجمة، أضرب فوق الجميع مادام الجميع سواسية. أتتصور ذلك؟ يحقر الفنان ليحشر في صف البهاليل و ننكر وجوده بمجرد أن تنتهي الفرجة...

حرك رأسه بحزن:

إن الحقيقة تكمن خارج كل ذلك، إذا كنت تريد الحقيقة. ليس الشعب هو الجاهل أو الناكر، إن النظام هو الذي يفعل كل شيء كي يبقيه بعيدا عن نبالة الناس و الأشياء. أنه يعلمه كيف لا يتعرف على نفسه سوى في الرداءة بكل أنواعها.

ضرب بقبضته على الكونتوار. غمر نظره المر في عمق نظري ثم دمدم:

و هنا، أقول بكل حيوية الفيس، خو. ابدا...

حركت كتفي استخفافا، أضجره ذلك، أغلق ثانية قبضة يده ثم أرخاها.

- على الأقل، الإسلاميون لهم بعض الحظ في تحريكنا، يلقون بنا في مشاريع كبيرة، ما أريده هو أن أقوم بعمل شيء بحياتي البخسة هذه، أريد أن أكون مفيدا، أن أشارك في عمل ما، ليس بالضرورة المشاركة في بناء شيء عظيم، كل ما أريده هو نشاط جاد و جماعي بمشاركة ناس آخرين فخورين بمساهمتهم البسيطة و آخرين حريصين على حماسهم أريد أن

اخدم غيري دون الشعور بالإهانة و الإنسحاق، دون التملق ولحس الأحذية و التزلف. تبا تحركوا ا ألا اظل مكتوف الأيدي في انتظار أن أتعفن في ظل الاقصاء. أتفهم، يا هذا؟ *لنقم بأي شيء*... مع الأفلان (جبهة التحرير الوطني) كل شيء مسموح به حقا، و لكن هناك التجاهل، التـجاـهل ا لايهمهم الأمر و لو أنك قادر على أن تخرج الحوريات من قيثارتك. تستطيع أن تشعل مائة شمعة للعبقريات فتترك لتنتهي بهدوء في ركنك، في اللامبلاة. لا ليس هناك أخطر من عدو على الموهبة أكثر من اللامبالاة.لقد احسن الفيس صنيعا حين أعلن منع السهرات الموسيقية على قدم المساواة مع الضوضاء الليلية. أنا متأكد أن الفيس سيسمح لي بغناء مدائح النبي باحترام و سعادة عميقة. كل ما أنتظره هو التغيير، لقد بدأ الغبار ينفض عن الأشياء، و الأمور أخذت تتقدم. في أي اتجاه تتقدم، لا يهمني ذلك، المهم لا للركود. الرحمة ا لا للركود. ما عدت أتحمل هذه السكونية. إذن فليعش الفيس، خو. بكل رضى سأترك لحيتي تطول، حتى و لو تخبلت بداخلها. ساستمع إلى الخطب المملة طوال الأيام، لأن على الأقل في المسجد أشعر بأن الخطاب موجه إلي، بأنهم يهتمون بمستقبلي، بأني *أوجد*. مع الأفلان ليس لي هذا الشعور. نظام الأفلان فاسد، حساس و مناهض لكل توجه معاد "للصعلوقراطية". الفن، العلم العميق، العبقرية الانسانية، كل ذلك انحلال ماكر و ورم يحاربه (الأفلان) بضربات علاجية كيماوية. ارفض أن أعامل كحالة مرضية. أنا فنان، صانع الجمال، سمو، خو. أريد الانشراح، فهل طلبت المستحيل أو الكثير؟

لماذا يجب علي قضاء وقتي في الاشفاق على الفنان دحمان الحراشي الذي عانى مرارة المنفى و البعد، والاستماع

الى اشعار محبوباتي اذ قيل لي انه أكبر كاتب للشعر الغنائي في العالم، إنه منسي و ضائع في أكبر صمت على وجه الأرض، أتساءل اذا ما كان سيدعلي لا يزال مومنا بقوة وحنونا بسحر الكلمة بينما يعيش موته البطيء من جراء تعاطي الحشيش و تناول الخمر المخلوط.

اقترن حاجباه في صورة غضب بنار متاججة، كان ينقر بصلابة بأصابعه على الكونتوار، تكلم و قد أشرف على الصراخ:

أني أنتظر استرجاع كرامتي، خو، و كذا استعادة إحدى عشيقاتي و إحدى صديقاتي.

سكت بغتة. استدارت عيناه المتأججتان، ثم أرسل تنهيدات عميقة وطويلة. لقد أدركت أنه كان يريد قول كل شيء، كان يرغب في إفراغ ما بجعبته دون أي تحفظ و الاندماج فى الحالة منذ أول وهلة. لقد شعرت به مرتاحا وقد تخلص من عبء ثقيل كان يرزح تحته، كان حديثه وغضبه اعترافات مكبوت مكمم منذ زمن طويل.

لامس القطعة النقدية بطرف أصبعه فارتجفت ثم وقفت على محيط حرفها و أخذت تدور لوحدها.

هز رأسه، انخفضت كتفاه، وقد بدا امام عيني محاصرا و محطما.

عذرا، كأنما أطلق سراحي.

علينا أن نبدل حالنا.

أنا لست إسلاميا.

ابتسمت له:

بل إنك فنان.

أتظن بأنني فقدت صوابي. تمالك نفسه، ارتاب فجاة. أحقا تظن بأن ذلك ليس صحيحا. أنت تقول في نفسك: ما خطبه هذا

الرجل المسكين؟ لماذا جاء لمضايقتي و لم أطلب منه شيئا؟... أنا أعرف ذلك، خو. أنا لست بأبله. لكن ما باليد حيلة. المشكلة ان للجدران آذانا دون أن تدلي برأي.

لقد بدا عليه الإرهاق من كثرة الحراك. صار يتقيأ على الفور الأشياء التي لا يمكن هضمها... أحس بأني أصبحت مجنونا.

نحن نعيش في بلد غير عادي.

رفع نظره نحوي مستاءا.

ألا تؤمن بخطاب الإسلاميين؟

انا حيادي.

ما معنى أن تكون حياديا؟ لا يمكن أن نكون حياديين، عند مفترق الطرق نحن ملزمون باختيار مصير ما.

لن نختار أبدا.

هذا خطأ، نحن المسؤولين عن مصير بلدنا.

لا مصير في الجزائر. نحن جميع في طوق أو محبس اللغة.

إنك مخطئ، هذا ما يحاول البعض ترشيخه في ذهنك. الإنكار، يريدون قص جناحيك.

تلك الجزائر الجميلة بغاباتها نائمة في التاريخ المنهك، ساعية الحفاظ على كل نبيل قادر على تخليصها من السبات، حتى لا يظهر عجزهم. هذا ما قاله سيدعلي الشاعر، والشاعر لا يكذب أبدا.

هذا محتمل، لقد تجاوزت الحدود.

مر من أمامنا زوج في حالة سكر و ترنح و تعجرف كبير. تصاعدت رائحة العطور القوية في الحانة و من فوق الخدم. ثم فجأة تحولا إلى متواضعين، تلاشى ظل سيادته. تصلبت القوة خلف حاجبيه، الذراع معلق أعلى الرف. الفتاة

التي كانت تدندن في اخر غرف الملابس، كمم فمها بواسطة يد غريبة اثمة. الزوج لم يلاحظ ما حدث. السيدة ذات أنف عال و رقبة منحنية، جسدها شبه العار يظهر من خلال لباسها الازرق الحريري المرصع بالأحجار الكريمة. عيناها جوهرتان غامضتان تنظران بعيدا جدا الى الامام و كأنهما يتحركان في القاعة بشكل مثير ، عقدها المصنوع من اللالى والماس الأصلي. السيد تعقب خطاها، (؟؟؟؟) رجل مستكين ينام في الزاوية، استيقظ محدثا ضجة بالكرسي. و راح يركض ليبقيهما في ذل جلي وبين.

الشخص الذي كان يكلمني راح في أثر الزوجين بنظرة تهديد وشفتين مزمومتين.

الارستقراطيون ا كالخنازير... هل تعرفهم؟

لا.

انهم الفراعنة، أرباب النسيج. يبدو أنهم لا يكسبون مراحيض (؟؟؟؟) الرجل ذي القامة بأربعة أمتار ، ذاك سائقهم منذ مدة طويلة، ولايعرفون حتى اسمه، أنها طبائع إلهية.

آه أهذه هي الحياة.

الظاهر أنك لا تعرفهم، لا يملكون في قلوبهم قرط انسانية. أقولها لك، ما لهم إلا آلة من حديد مكان القلب. لا يولون أي اعتبار لأي شخص، فالجميع لا يعدو أن يكون مكنة تحت تصرفهم. ذلك مفهوم لدى أفراد عائلاتهم، ابنهم في الخامسة عشر من عمره أقدم على شنق نفسه داخل المرآب... إذا كان ابنهم لم يستطع تحملهم، فهل لك أن تقول لي من باستطاعته ذلك؟

سائقهم.

إجابتي أسكتته تماما. بقي يفكر لبعض الوقت في حيرة، لقد أدرك ما رميت إليه، وراح يضحك بفضاضة.

إنك رقم و ٠أي رقم.
هيكل فقط.

راح يضحك ثانية. لا من أجل التخلص من السحنة التي علت وجهه، ثم صار جادا، يداعب القطعة النقدية من جديد.

تحيا الجبهة الاسلامية للإنقاذ، على الأقل مع الاسلاميين سنكون سواسية.

نسبيا.

ممكن نسبيا و لكن لن يكون لنا سوى اله واحد.

فتحت الباب بعنف على صونيا، كانت شاحبة، شعرت بتنهدها الخشن و المخيف. في البداية أمرتني بالنهوض وكان خلفها شاب طويل و نحيف، يضع خيطا حول رقبته، و منديلا يعصب به جبينه، لقد كان مطمئنا و لا يعلم كيف يعالج الأمر، أدرك صونيا عند المنعطف. أخذت تدور من حولها و ضربته بصفعة شديدة، في بادئ الأمر ذهل، ثم رفع ذراعه، و ما لم يكن منتظرا، وضع يده على خده المصفوع متحسرا.

كنت أجهل أنها كانت هنا يا عزيزتي.

ارتعشت مناخير صونيا بصورة تدفع إلى التقزز.

خسيس

حاول أن يمسك بيدها متوسلا، تراجعت إلى الوراء.

لا تلمسني.

تركت مكاني كي أقف متباهيا أمام أحدهم.

الآنسة، تريد أن تخلي سبيلها بسلام.

دفعني من يدي و أسرع في أثر صونيا في الساحة من جديد. جريت وراءه، انتشلته من كتفه فسببت له الغثيان و أوشك أن يسقط.

هل تعلم كم سعر هذا القميص؟ لا، لكن هل تدري أين تتنزه قدماك القذرتان؟ أنت تقوم بنفضهما على قميص عمار باي، ايها الحقير.

كان يتكلم بحركات من يديه، أمسكني من عنقي، وراح يدفعني نحو الحائط.

أنت راض على تلميع سيارة أسيادك، ايها الخادم، يدفعون لك من أجل ذلك، لا؟ إذن لا تتدخل في الأشياء الجادة. إنها مشكلة بيني وبين خطيبتي.

في الساحة، استاءت صونيا، فسحبت الخاتم من أصبعها ورمته في وجهه.

استرجع قلامتك، أيها الكلب، لا أريد رؤيتك مرة أخرى.

حدد عمار باي المكان الذي سقط فيه الخاتم دون ان يلتقطه.

أقسم لك أن لا شيء بيني و بينها.

تبا و لكنني لا أستطيع منعها من التردد على النادي.

رفضت صونيا الاستماع إلى توسلاته.

صعدت إلى السيارة صارخة:

أبعدني عن هذا الوصولي.

أقلعت، و لكن خطيبها تمسك بمقبض الباب و بخيبة اصطدم بزجاج السيارة.

انطلق أيها الأبله...

تراجعت بالسيارة إلى الخلف، مخففا في دهس ذلك المتهور، هجم مندفعا نحو الباب، طاردنا يد على الباب وبالأخرى بدأ يضرب على هيكل السيارة.

هذا غير معقول، يا صونيا، فكري ، هيا، هذا مستحيل لن نتشاجر لسبب تافه، لم أرمقها حتى بنظرة واحدة مني.

أسرعت للابتعاد عنه، و بعد ملاحقة لنا لا طائل من ورائها، رأيته يتباطأ، يترنح ثم أخيرا يتوقف راكلا جنبة بقدمه.

الوسخ، الوسخ، وقد استشاطت صونيا غضبا، وصولي تافه. أيفعلها بي أنا، أنا بنت صالح راجا؟ و لأجل امرأة ساقطة من منبت وضيع، ابن المشعوذة؟... لن يتوقف عن سماع هذه القصة، ثق بي. سأذهب لأدق عنقه نهائيا، لا أحد سينظر إليه، سأحرق أوراقه في كل مكان. بفضلي أنا كان الناس يتكرمون في استقباله. أنا التي صنعته، لم يكن شيئا، لا شيء على الإطلاق، من قبل. , إذا اعتقد إنه قد وصل فقد أخطأ كثيرا... در إلى اليمين.

ألن نعود إلى البيت؟

لا تزعجني أنت الآخر، عندما أقول در إلى اليمين، عليك أن تنفذ الأوامر، مفهوم؟

حسنا، يا آنسة.

الحقير ا الحقير ا الحقير ا

أخذت تضرب بشدة المقعد أمامها.

سيدفع الثمن، الدنيء... خذ مفترق الطرقات، نحو اليسار.

غادرنا الطريق الرئيسي. كانت المنازل تبدو قليلة جدا، وقد بسط الريف أمامنا حقوله.و بساتينه ثم تلاله النائمة. في البعد، كان نباح الكلاب يحدث صدى من حين على آخر.

جد لنا مكانا مريحا، وتعال لتنتقم لي من ذلك الحقير الانتهازي، قالت ذلك بصوت متقطع.

ثم أخذت تتعرى.

5

تبخرت بهجة الأرصفة، و طوت الطوح خيوبتها، ولم يعد للشوارع وجود وسط هذا الجو الكالح المغيم. وداعا للشواطئ، للفراغ و للتباهي.

تبدو العاصمة بدون شمسها كحكاية حزينة.

كانت السيدة راجا حزينة و مكتئبة هي الأخرى، على إثر خروجها من مكتب طبيبها المعالج الخاص. وقفت على درج المدخل و هي ترتعش في فستانها الفيروزي، ثم أدارت رأسها نحو السماء.

نزلت من السيارة للأخذ بيدها.

رفضت يدي المدودة دون فضاضة.

خذني إلى الشاطئ.

كانت أشعة النهار قد تراجعت، مع أن الساعة بالكاد تكون السادسة مساء، وهاهو الظلام قد نزل بالمدينة.

منهارة على المقعد الخلفي، كانت السيدة راجا تقرأ و تعيد قراءة نتائج التحاليل الطبية التي منحها اياها الطبيب. تتلاحق انفاسها عند كل ورقة. فجأة أرجعت المستندات إلى حقيبتها التي أغلقتها بحركة عنيفة. بعد تأمل طويل، ارتخت و فكت أصابعها المشبوكة.

كم عمرك يا سيد وليد؟

كان صوتها ممزقا.

ستة وعشرون عاما، يا سيدتي.

هزت رأسها، كانت مأخوذة بالمساكن المتراصة التي تراها من خلال نافذة السيارة.

عرجنا على الأحياء السفلية للالتحاق بالشاطئ. كان الطريق مكتظا وحركة السير مزدحمة بفوضى، فقد انقلبت شاحنة وسط الطريق قالبة حمولتها من الماء المعدني.

حدثني عن عائلتك؟

أبي متقاعد يا سيدتي، كان عاملا في السكك الحديدية، نسكن بحي القصبة منذ أجيال و عقود

كم عدد الأطفال في بيتكم؟

ستة، من بيّنهم خمس بنات.

أانت أكبرهم؟

الثالث.

مسحت أنفها في منديل صغير خلسة. كانت نظارتها السوداء تخفي دموعها التي خانتها ارتجافات ذقنها المرتعد. لم أستطع أن أتصور كيف تبكي سيدة في مثل حالها و ظروفها والأغرب من كل ذلك يحدث هذا أمام خادم. وهي المرأة التي كانت تحرص على أدنى انعطافة في فستانها و ترفض أن تبدي أتفه أحاسيسها.

متوقعة ارتباكي و حيرتي، لاذت إلى تأمل البادية هربا.

تمكن رجال الدرك من إخلاء جزء من الطريق، أشار لي أحدهم إلى الممر السالك و بإيماءة من يديه طلب مني التقدم.

حدثني عن أمك؟

انتبهت إلى أنه ليس لدي شيء كثير أقوله عن أمي.

أهي مسنة؟

بستة أطفال، غير متعلمة، مشغولة دائما في تدبير شوون البيت، ليس لها الوقت لعد السنين.

و كيف هو منزلكم، وكيف تعيشون فيه؟

انه بيت عتيق بثلاث غرف، إننا نتزاحم .

مكدسين، قالتها و هي سارحة في البعد.

ثم سكتت.

وصلنا شاطئا قفرا حيث البحر كان هائجا، أمواجه تلتطم بالصخور.

أوقفت المحرك.

بدت السيدة راجا صغيرة في خمارها.

ما اسمها؟

من تقصدين، سيدتي؟

و الدتك.

وردية.

أتحبها؟

بالتأكيد.

إجابتي الفورية والسريعة أربكتها و قد نبهتها إلى مدى تفاهة سؤالها. تنفست الصعداء ثم التفت حول يديها البيضاوين.

أنت صغير، لا تزال في مقتبل العمر، في مثل سنك، كنت أرفض كل يتقدم لخطبتي. لم أكن فتاة من نوع الفتيات حيث الواحدة تتشهى فارس أحلامها فتقضي الأيام خلف النافذة.في انتظاره حتى لا تعود تميز بين ظله و ظلال غروب الشمس. كنت أعتقد دائما بأني سرمدية.

لم أكن اعلم هل أنها تتحدث لنفسها أم انها كانت تنتظر مني التعليق أو قول أي شيء.

اعتن بوالديك، فشيء تافه يمكن أن يحطم قلبيهما. أنا لا أنكر أنه لا يزال هناك أولاد صالحون. . اعلم جيدا أن الأم مهما كانت فظة فهي مقدسة، وأن من يهينها أو يتجاهلها فهو ملعون. إن الله سيغضب عليه.

وضعت يدها على كتفي.

أفهمت ما قصدته؟

نعم سيدتي.

أتمنى ذلك.

فتحت باب السيارة، وإذا بنسيم يلفح وجهها. كان الهواء باردا، نديا و رطبا. أريج المتوسط كاد أن يثملنا.

لا أذكر آخر مرة سبحت فيها. كنت قبل ذلك كلما غطست في الماء إلا و أثرت حالات النجدة حولي، كان معلمو السباحة يجهدون أنفسهم في البحث عني كل مرة وسط المخاطر. كانت أمي تتذمر من الشاطئ، أما أبي فعلى العكس من ذلك كان يتباهى بمجازفتي حتى أنه كان يلقبني بحوريته الصغيرة المحبوبة.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة كنار زائلة. كانت عيناها لا تحيل سوى على ذكريات أليمة.

كانت لنا أجمل أسرة في العالم. لقد منحني الغنى الأفراح الكبيرة، إلا أن سعادتي تعود إلى الوالدين... المال هو التنازلات الكثيرة يا سيد وليد إنه الغبار المذرور في العيون.

نعم سيدتي.

هذا ليس مجرد كلام في الهواء.

أفهم هذا يا سيدتي.

أشك في ذلك يا بني.

نزلت من السيارة، مشت حتى كثيب فجلست قبالة البحر. تزل الليل. زمجرت السماء. صعق البرق مخترقا السحاب،

وتهاطل مطر بحبات خشنة فوق الواقي الزجاجي للسيارة. أما السيدة راجا فقد اكتفت بلملمة جسدها في شالها و لم تحرك ساكنا وظلت هكذا لمدة طويلة لم تفارق البحر بعينيها.

أنت الذي بالداخل، انهض، انطلق بسرعة واحضر السيارة.

كان حميد مرتبكا، سحب عني الأغطية و رماها أرضا، وضع بأصابعه على كاحلي ليجرني من السرير . كان يحوم في الغرفة بكلسونه حافي القدمين. اندفع إلى الخزانة و أخرج بذلة ثم قذف بها إلي:

هيا إلبس فورا، ليس لدينا ولا دقيقة لنضيعها.

انسحب إلى الرواق مهرولا.

نهضت مذهولا. كانت ساعتي تشير إلى الثانية صباحا. ودون أن أتساءل، انتظرت قليلا كي أسترجع وعيي و أرتدي ملابسي. و بعد عشر دقائق، وجدت حميدا أمام الباب تحت شجرة الميموزا. صعد إلى جانبي و أمرني أن أضغط على مدواس السرعة.

هل لي أن أعرف مالذي جرى؟

جونيور في ورطة.

و هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة؟

لا اعلم، ولكن حسب صوته يبدو أن الأمر قبيح و مشين. ليس من عادته أن يفقد توازنه.

زعزع الرعد الليل في سلسلة من الصعيق، مطر فيضاني هطل على المدينة. الطريق يفيض بفوران تحت العجلات، مطر من كل الجهات و أحزمة كبيرة من الوحل.

كانت اقامة جونيور غارقة في الظلمة وهو ما زاد في قلق حميد. اجتزنا البهو فاذا بهدوء مخيف يستقبلنا.

جونيور، نادى حميد.

أضيء نور البهو ليتراجع بعد ذلك. كان الصالون فارغا ولكنه مرتب. تفقد حميد غرف الطابق الأرضي و عاد دون أن يلحظ شيئا. أشار إلي أن أتبعه إلى الطابق الأول. صعدنا الدرج الحلزوني، ضوء خافت يشع في أخر الرواق. كان جونيور بلباس الكيمونو مرتميا على أريكة واضعا رأسه بين يديه ومتحسرا.

كانت هناك فتاة ممدة على ظهرها، عارية، ، ذراع متدلية على حافة السرير. عيناها الواسعتان الكبيرتان شاخصتان إلى السقف. كانت مرتمية فوق شرشف ناصع البياض. شعرها الأسود ينذر بالشؤم.

إنها غلطتك، أرسل جونيور عبارته بنبرة حادة. من أين حصلت على كوكايينك القذر هذا.

من عند ممونا المعتاد، أجاب حميد و هو يقترب من الفتاة.

أمسك بمعصمها و قال بصوت جاد: يا للكارثة، ثم أرخى الذراع الذي سقط ثانية ببطء و برخاوة. و أخيرا أدركت مدى المصيبة والضرر الحاصل؛ فالفتاة مراهقة، في عمر الزهور، وجهها الطفولي الممتلئ المنور يوحي بالبراءة غير الكاذبة. لقد كانت ميتة.

حاولت كلما بوسعي أن أسعفها، قال جونيور ثائرا.

توجه فجأة إلى حميد و انقض عليه:

إنها غلطتك أيها القذر، الأبله، القميء، لقد خدعت في البضاعة.

مستحيل. لقد تحققت من ذلك، أؤكد لك ذلك. لقد جربت البضاعة بنفسي قبل أن أمنحك إياها. أنت تعلم أن مثل هذه الأمور لا تخفى علي. أقسم لك أنها كانت من النوعية الرفيعة

و لكن لماذا سقطت جثة هامدة بين يدي؟ أنظر ندب الحقن على ذراعها، هذا دليل أنها متعودة استهلاك هذه الأمور، فلماذا توقف قلبها عن النبض هذه المرة.؟

اخذت جرعة مميتة؟

خطأ، لقد ناولتها كمية أصغر مرتين مما يجب. لقد باعوك اي شيء و كفى.

أزاح حميد بلطف جونيور من طريقه، وبيديه المنبسطتين طلب منه الهدوء.

- إنه حادث، و الشجار لن يجدي نفعا، لنحافظ على رباطة جأشنا و نفكر في مخرج.

لدي اشغال أخرى، انها لم تعد الآن مشكلتي. أنت الذي خدعت في سلعتك، أنت و لست أنا. لا اريد ان أمرغ في مثل هذه القضايا. هذه الصبية ماتت بسبب طيشك و غباوتك، أتسمع؟ سأجهز حقيبتي و أغادر المكان. و حين العودة علي أن أجد المكان مطهرا وصافيا. بالنسبة الي :إن شينا لم يكن على الاطلاق.

هدئ من روعك يا رئيس.

انا هادئ، تخلص أنت من هذه القذارة و على الفور. اعتبرني من اللحظة غائبا. أفهمت؟

اندفع في اتجاه الخزانة، غير ملابسه بسرعة البرق ثم ترك الغرفة دون أن يلقي حتى بنظرة على الجثة.

من جهتي، لم أذهب بعيدا، فصلابة الجثة أفزعتني. شعرت بتفاحة-آدم تكشط حنجرتي الجافة، رحت أتلهف للقبض على شيء للإستناد خوفا من الانهيار، ارتعاشات تنخرني و تتصاعد متشعبة حتى ساقي، وإذ تنكسر بأعماقي، نهشتني فجاة دوخة، لم أنتبه إلا و أنا أتقدم بخطى مترنحة

متمايلة على طول الرواق متلمسا طريقي إلى الحمام. الرأس في حوض الاستنجاء بدأت أتقيء.
انتصب حميد خلفي قائلا:
إن الكوارث لا تسقط سوى على راسي.
كان يبدو متضايقا اكثر منه حائرا. هدوءه وبرودة دمه أيقظت صداعي. دفعت برأسي تحت الحنفية تاركا الماء المصقع ينعشني. ضربات قلبي المدوية كانت تتردد في صدغي.
انها ليست نهاية العالم، يا نافا، إنه مجرد حادث عابر، سنعالجه.
أمسكني من ياقتي و أوقفني قائلا:
كل شيء على ما يرام، لا أثر للنار هنا.
- ماذا تقول؟
لقد رايت ما هو أفظع.
لا، لست أنا. أنا سأستقيل.
لن تتخل عني.
هذا المساء، أنا شخصيا لم أر شيئا، لا علم لي بشيء، و لم تطأ قدماي هذا المكان.
مستحيل ، ألأنت مجنون، ما دام أن الأمر حادث، فعليك أن تطلب الشرطة.
انتقض و كأنما شحن بصدمات كهربائية، ثم بجثته بدأ يضربني وبعنف، شعرت و كأن أضلاعي تتكسر تحت ثقل جسمه:
لا تتفوه بهذه الكلمة، أبدا، يا نافا. ابن ال راجا يجهلون حتى معناها. ما يزعجهم هي الفضيحة اما المأساة فلا تثيرهم. عليك أن تكون حذرا في كلامك، لا تنس بأننا معا، أنت مثلي تماما، شريكي في الورطة وعلى قدم المساواة. أين تظن نفسك

أيها الصغير ، إذا كنا جزءا من عائلة عظيمة المقام، فمهما كان المكان الذي تشتغل فيه، فواجبنا المحافظة على سمعتها. فإن لم تفهم بعد فالوقت لا يزال أمامك لاستدراك ما قد يكون فاتك. و لهذا أطلب منك الهدوء و ضبط الأعصاب. وهذا هو ما سنقوم به معا، أكنت راضيا أم غير راضي عن ذلك، فذلك لن يغير في الأمر شيئا: سننقل الجثة و في الحين خارج المدينة.

أصابعه كانت تقبض على عنقي حتى كادت أن تخنقني.

كنت كالتائه وقد تجاوزتني الأحداث. ولأني كنت غير قادر على ترتيب أفكاري فقد استسلمت له على أمل أن أربح الوقت و أسترجع قواي و حضوري.

المطر الساقط بوحشية لم يتمكن من إفطاني أو إزالة سكرتي. رمى حميد بالجثة في المالة (صندوق السيارة الخلفي). كاد صدري أن ينفجر حين رد غطاء السيارة و أقفل الصندوق. شعرت بمفاصلي وقد تشنجت و تخشبت، فلم أتمكن من إقلاع السيارة.

يا له من رديء، صرخ حميد، ناولني المقود.

بعد أن قطعنا بعض الكلومترات، منظر حاجز الشرطة طرحني أرضا، فتشت عن قفل باب السيارة بحثا عن هروب، إلا أن يد حميد خيبت ظني.

طلب منا رجل البوليس التزام التوقف جانبا، سلط ضوء مصباحه اليدوي على وجه السائق، أطاله علي، وفي هذه اللحظة أحسست بنار مضرمة في بطني.

هل هناك مشكل ما، ما به صديقك؟

هل هو مريض، دون شك فالقضية مسألة هضم.

في تلك الأثناء، انتقل الضوء الصغير ليسلط على المقعد الخلفي للسيارة.

إلى أين أنتم متوجهون، هكذا؟

إلى المنزل، نحن عائدون من سفر طويل، أيها الشرطي، ونحن منهكون، إننا نعمل عند السيد صالح راجا.

حرك الشرطي ذقنه المتقاطر بماء المطر ثم تراجع.

بعد أن غادرنا المدينة بسلام، وبعد ساعة من السير، توغلنا في غابة باينام. وجد حميد صعوبة في التحكم بالسيارة، فوق طريق منزلق وغير صالح للمرور. كانت الأشجار تلتوي بهيجان العاصفة وقصف الرياح، أغصانها كانت تصطفق فوق هيكل سيارة المرسيديس.

توقفنا أمام تل صغير، سحب حميد الجثة من صندوق السيارة ثم سار قليلا فوق الغيضنة مترنحا. سحبت نفسي خلفه دون أن أعرف لماذا، فإذا بقوة سماوية تدفعني نحو كابوس.

ترك حميد الجثة لتسقط على الأرض.

هل ستدفنها هنا؟

كان علي أن أحضر معي فأسا.

ابتعد حميد مفتشا في العوسج المجاور عن شيء، و بعد قليل عاد بحجرة كبيرة، رفعها بكل قواه ثم سحق بها و بشدة وجه الفتاة حتى تطايرت قطعة من لحمها و لصقت بوجنتي، وبهذا الذهول، لم أشعر بحالي إلا و أنا مطويا و قد شرعت في القيء.

يضرب حميد الجثة، ثم يضرب و يضرب... ملطخا وجهي بالدماء و بشظايا العظام المتناثرة، كل دقة أو صوت كان يثقب فكري ويقوسني أكثر.

لم أستطع إزاحة نظري عن وجه الفتاة و هي تتحول إلى عجينة. ساح بولي على فخذي المرتخيتين. منهكا، مسحوقا، منهكا هويت كلية على الأرض، وجهي في قيئي. بدأت أصرخ ... أصرخ... ا

هكذا علق حميد و قد استعاد وقفته:

حتى امها الحقيقية لن تستطيع التعرف عليها.

اما انا ومع اخر وثبة ممكنة، نهضت فمشيت مستقيما وسط الظلمات. لحق بي حميد وسط حفرة سقطت فيها، فنزفت ركبتي.

انك حقيقة لمخيب للظن، لو نظرت قليلا الى نفسك لأدركت بأن حتى أقذر الفتيات لا تنزل إلى هذا المستوى الذي أنت عليه الان.

جلس أمامي باحثا عن عيني.

أنه حادث، مجرد حادث موسف. لا تخش شيئا، إن هذه الفتاة هاجة، فهي فارة من بيت والديها، و هي ليست من الضواحي. كل شيء قد انتهى، الجزء الكبير و الصعب قد أنجز.

أريد أن أعود إلى البيت.

بالطبع.

إلى بيتي، عند أهلي بالقصبة، رددت قائلا.

قلت لك نعم. و أين يكمن المشكل؟ سوف أصطحبك حتى منزلك، و غدا سأصطحبك الى " سان سنتر " لتنام مع أجمل و أحلى فتيات العاصمة.

لن أذهب معك لأي مكان. طرقنا و مساراتنا تفترق هنا، لا اريد أن أسمع كلاما لا عنك و لا عن آل راجا.

أمسكني من شعري بقوة ثم لوى عنقي ضاحكا، أضاء برق وجهه فبدى لي شيطانا.

أنا أشمئز من المنبوذين يا نافا، أتحمل كل شيء إلا هؤلاء. منذ أقل من سنة كنت لا تزال تتسول في أزقة باب الواد و بطنك أكثر فراغا من رأسك. جئتنا، رفعناك إلى مقام الأثرياء، و منذ ذلك الوقت بدأت ترتاد الأماكن المرفهة:

عرفت إيقاع العصر و رائحة الثراء، ولم تكن سوى ذلك القذر الذي لا يحسن حتى الاستقامة في الوقوف، هل نسيت ؟ و ها أنت الآن أصبحت ترتدي الأقمشة الثمينة بخمسة آلاف وأحذية الماركات العالمية، راتبك لم تمسسه منذ مدة لأنك تأكل مجانا. وفي لحظة تتنكر لأهلك و لا تفكر إلا في الرحيل من أجل بنت فاسقة في الخلمسة عشر تظن أنها راشدة، لا يمكننا المواصلة، يا نافا، هذا ظلم. لكنها امور متوقعة و لا نستطيع عمل شيء حيالها، لقد خذلتني فعلا. بل أكثر، تريد الهروب؟ فليكن ما تريد، فقط هناك شروط عليك تطبيقها، يا فتى: من السخف أن أطالبك بالتعويض، لا أطلب منك سوى الا تفتح فاك، عليك أن تمحو من ذهنك ما عشته هذه الليلة، أن تنساه كما تنكرت لجميل من أحسنوا إليك، و لأني أقسم بأمي لو أنك حاولت أن تتذكر و لو على سبيل المزاح فقط ما جرى سأعثر عليك أينما كنت مختبئا و سأقتلع أسنانك الواحدة تلو الأخرى، أموافق؟

قبضته كانت تضرب على جبيني.

هل أنت موافق؟

رفعني بيد واحدة ، وجه لي ضربة شطرتني إلى نصفين.

من سبقك في هذا المكان هو أيضا أراد أن يلعب دور الفطن والذكي، هل حكوا لك ما حل به؟ متأكد أن لا أحد روى لك ذلك، لشدة بشاعة ما جرى لا أحد يرغب أن يعيد الذكرى... لأن ادعك تعكر صفو الحياة بسبب حادث سخيف يا نافا، يا ابن الساقطة. لن أسمح حتى لرب الكائنات أن يلم خصلة من رأس جينيور. إنه جنيوري ، إنه لي وحدي أنا وفقط، إنه بلدي، إنه سبب وجودي، هل تفهم أيها الحقير؟ أفهمت؟...

في لحظة هيجانه، غمر وجهي في الوحل و انقض علي...

كان الوقت لا يزال ليلا عندما استعدت وعيي. المطر ينهمر وسط عصف الريح الهوجاء، وجدتني مرميا في بركة ماء، يداي متقاطعتان على شكل صليب. بذلت جهدا كبيرا للتعرف على الواجهة المخططة لمنزل والدي.

6

مكثت عدة أيام منعزلا في غرفتي، غير مبال بنواح والدتي الذي لا ينتهي. رافضا كل ما يقدم لي من طعام. أغلقت علي باب الغرفة. كان وجهي المشوه والكدمات الكثيرة الموزعة على جسمي تشغل بال عائلتي. امتنع والدي عن مضايقتي منذ المواجهة الأولى. أمام رفضي الإجابة عن أسئلته و استفساراته، ذكر اسم الله و لم يكلمني من بعد ذلك. اما والدتي فكانت تتحكم في برودة أعصابها عندما تنتابني موجة من الغضب. كانت تريد أن تعرف ما الذي حصل لي، من الذي تجرأ على فعل مثل هذا لوحيدها. كنت أسمع والدي يصرخ مرارا في وجهها:" لآ أحد يتورط مع منحرفين دون أن يعاقب، الضرب المبرح الذي تلقاه غني عن التعبير. ابنك غير مقبول، إنه غير راض بوضعيته، حتما إنه قام بحركة خاطئة فانحرف عن الطريق، أعلمك أنني لن أحرك ساكنا لأجله، كان عليه أخذ حذره. و أن يظل منضبطا." ردت والدتي ساخطة:" ابني على خلق مستقيم. لقد حرص دائما على انتقاء صحبه، أرفض التسليم بأنه متورط في أعمال مشبوهة." رد والدي:" سائق بسيط يمكنه ارتداء ألبسة راقية ومجوهرات. بين عشية وضحاها أصبحت جيوبه مكتنزة

بالأوراق النقدية، إنها لعلامات صادقة ، لذلك لم أكن اقبل هداياه.".

ظللت منطويا على نفسي، مقرفصا، مكوما خلف ركبتي في ركن من غرفتي، مترقبا بدقة: صوتا يتعالى في الشارع، يد تطرق الباب، و أنا متقوقع على نفسي. كل ما يدور في فكري المضطرب هو أنني كنت أتصور أن الشرطة قد تجيء للبحث عني.

كنت أقضي أيامي في ذعر شديد، كانت تتخلل نومي رؤى كابوسية: الصراخ يتعالى في غابة باينام كصراخ الوحوش في موسم التزاوج، فيثير رعبي الليلي. شبح الفتاة المراهقة يلاحقني عبر ضباب كثيف، كانت صورتها تتبدى لي في كل مكان؛ في وسط الأدغال، على الصخور، صورتها تطلع من على الأشجار كنمرة مريعة. نبضات قلبي تتلاشى أمام تهديدات حميد، صدى الحجرة وهي تهشم وجه الميتة. أستيقظ وأصرخ ويداي ممدودتان في الظلام، كانت والدتي تناديني من خلف الباب، كانت بذلك تعذبني، و كنت أترجاها أن تتركني و شأني.

جاء دحمان ذات زوال لزيارتي، تعرفت عليه من خلال نبرة صوته الأخن. أسرعت لأفتح له الباب، كنت في أمس الحاجة للتحدث إلى شخص ما. طلب دحمان من والدي أن يتركانا لوحدينا. لقد رأى آثار الضرب البادية علي و التشوه الذي ألحق بي، لكنه تصرف وكأنه لم يلحظ شيئا. جلس على حافة سريري، جال بنظره في الفوضى التي تعم غرفتي.

لم أكن أعلم أن لك أعداء من بين عفشك و اشيائك الخاصة، قالها بمسحة سخرية.

من الذي بدأ: الخزانة، الطاولة الصغيرة، الوسادة ، الأغطية أم أنت؟

قام لفتح الشبابيك. أجبرني ضوء النهار الساطع أن أخفي عيني. عاد للجلوس قريبا مني.

و الآن نستطيع الرؤية بوضوح، وكذا تتم تهوية الغرفة.

قدم لي علبة سجائر مارلبورو. انتبهت الى أنني لم أدخن منذ أسبوع. ارتجفت يدي و هي تقبض على السيجارة. قدم لي دحمان القداحة، ثم انتظر برزانة حتى أبلع 5 او 6 نفحات قبل أن يسألني:

كيف الحال؟

أحضرت أختي الصغرى القهوة ثم اختفت.

والدك هو الذي طلبني، يبدو أنك لم تنس بعد، لم تستطع التجاوز.

رفع ذقني و عاين جروحي.

قل لي إذن، لقد اعتنوا بك غاية العناية...

إني في ورطة كبرى.

إني أشك في الأمر: أهو بائع مخدرات أو زوج غيور؟

أسوأ.

إذن إحك.

أصغى إلي دون أن ينبس بكلمة. لم يبد تأثرا بحكايتي الا عندما رويت له فظاعة باينام، هنا قطب ما بين حاجبيه.

غير معقول، قال ذلك معترفا.

هذا كل ما تستطيع قوله؟

للأسف !!

إني لا أغمض جفنا.

إنه لوضع قمين بذلك.

حديثه المقتضب ثبط من عزيمتي و زاد من ارتباكي وقلقي.

لو رأيت كيف كان يهشم وجه الصغيرة، أكدت قولي لأجعله يدرك مدى حجم و قوة صدمتي؛ كانت قطع من لحمها تلتصق بي كالعلق، أما هو فقد كان يضرب، يضرب... لقد كان... لقد كان...

ماذا تنوي فعله؟ قاطعني بدون إحساس و لا وعي منه.

لا أدري فأنا مشوش الذهن.

أنصحك بطي الصفحة.

. أتتصور أن ذلك هين، إن الأمر يتعلق بموت شخص، إذا ما أوقفوني فقد ضاع مستقبلي. سيسألونني لماذا لم أبلغ الشرطة بهذه المأساة، إذا لم يكن لي فيها فعلا ضلع.

قال لا بإيماءة من رأسه

لا أنصحك بالذهاب إلى الشرطة، ستكون المتهم الوحيد.

كيف؟ أنا لم أفعل شيئا.

صار خطيرا، وقد تجعدت أسارير جبهته.

فكر لحظة، أتظن أن الشرطة ستكون سعيدة بدعواك؟ الأمر هنا يتعلق بآل راجا لا بمجرد جارك في المدخل أو في المسطحة نفسها.أتقدر الارباك الذي سيكون فيه رجال الشرطة؟ القانون، القانون عندنا قضية مرتبطة بالبسطاء والغوغاء، أما السمك الكبير فيظل فوق القانون. أين تظن نفسك يا نافا؟ هناك أشخاص، فصيلة لا تمس. زيادة على ذلك فحادثة موت بالمصادفة لفتاة فاجرة ليست بالأمر الذي سيغير مذاق خبز البريبوش في فمهم. أي ضابط شرطة سيرفض حشر أنفه في مثل هذا الأمر. حميد تصرف تصرفا عاديا وموضوعيا، إن حادثا مثل هذا يعد غير طبيعي عند سيده لذالك محاه، هذا أبسط شيء قد يقوم به. لنفترض أنك تذهب إلى الشرطة. ينفي حميد الوقائع التي تسردها، سيقول إنه كان مع جينبور بالإقامة، وأن هذه الفتاة غريبة عن الفوج. جينبور

سيؤكد هذه الرواية، و يكون كلامك ضد كلاميهما، لن تكون لك أدنى فرصة للإقناع. ستستخلص الشرطة أنك أنت قاتل الفتاة، وانك تحاول توريط جينيور لتستفيد من سمعة عائلته ولتستبزه و لتبرئ نفسك. نافا لن تكون هناك تسوية، وسيلاحقك الجميع. أتعلم؟ لقد حدث مثل هذا من قبل. حوادث من هذا النوع يمكن إحصاؤها بالعشرات. إذا أردت نصيحتي لا تهتم لذلك فهذا لا يعنينا، جثة فتاة سيعثر عليها- إذا لم يكن الأمر قد حصل أصلا- تودع في بيت الجثث مدة من الزمن، و إذا لم يظهر أحد للتعرف عليها، تدفن . نقطة إلى السطر.

مستحيل ، نحن في دولة القانون.

يظهر دحمان أسنانه القاطعة من خلال ابتسامة مرة، بدا لي وكأنما أيقظت نفوره و احتقاره لي.

قال:

نعم، بالفعل بلادنا- دولة القانون، هذا أكيد، هل يجب أن نحدد أيضا بقانون يتعلق الأمر... لا يوجد سوى قانون واحد: قانون السكوت، وحق السكوت.

الليلة كسابقاتها، حلم مبهم .رمى بي عرض الحائط. منامتي مبللة. حنجرتي ملوحة بنحيبي، زحفت في الظلام ثم تكومت في زاوية الغرفة، على حافة الجنون، أدخل رقبتي تحت أصابعي و أستمع إلى شهيقي ونحيبي.

يا رب ساعدني.

دوى صوت مؤذن الفجر متجاوبا مع صوتي، هدأ من روع روحي، كانت لحظة قوية و تركيز مدهش. مثل السحر تفتت و تلاشى قلقي. غمرني شعور بساعة الخلاص. كنت متأكدا أنها إشارة من السماء. الله يتوجه إلي من خلال ممثله: المؤذن. لم يكن في ذلك شك. دق الخلاص على نافذتي. مدفوعا بتأثير عجيب، خرجت من صحن الدار، ملئت سطل

ماء قرب غرفة الغسيل، قرفصت بجوار السطل ثم توضأت. بعد عشر دقائق، مجتازا الليل و صمت الأزقة التحقت بجموع المؤمنين للصلاة في المسجد، تفاجأ بعض الجيران إذ اكتشفوني من بينهم، في صفهم. و حيوني برؤوسهم. يد تضربني على الكتف، أخرى تلمس يدي بخفة. لم أعد وحيدا. استقظ عالم من حولي، احتضنني ثم أنقذني من وساوسي. عذاب الليل تراجع أمام تواجد أهلي. و أخيرا استطعت البقاء واقفا دون أن أنحني، و أسجد دون أن أسقط، و أغمض عيني دون أن أتعرض للاعتداءات الواخزة الكابوسية.

لن تستطيع قياس مدى سعادتي و راحتي هذا الصباح، همس بذلك في أذني رشيد الإسكافي، مرحبا بك مع إخوتك.

كان جموع المصلين يحتضنونني.

حمدا لله، أطلقها زميل قديم ، زميل المدرسة.

الله أكبر ، رفعها نبيل غالم.

انتشر المؤمنون في سكون و هدوء، و لم يمكث سوى بعض المسافرين المفلسين في المسجد انتظارا لطلوع النهار. لم أجد الحاجة للعودة إلى البيت. أخذت كتابا من فوق رف وجلست كطالب زاهد بمحاذاة المكتبة . الكتاب كان يحمل عنوان:" سيرة النبي " مع نهاية الفصل الأول، غامت أمام عيني الصفحات فنمت. كان نوما عميقا، دون حلم أو أى صدى، وتصالحت مع نفسي.

اغتنم الإمام يونس فرصة تواجدي وحيدا ليجاذبني أطراف الحديث. كان رجلا في الثلاثين من عمره، جميلا كأمير، بعينين شفافتين مكحلتين ولحية مصبوغة بالحناء, ناس القصبة معجبين باستقامته و لطفه، إنه في الاستماع دوما إلى المحتاجين و إلى الشباب العاطل، لقد نجح في كسب ثقتهم، إن له موهبة الصلح بين المتخاصمين، حل النزاعات المعقدة

باكثر سهولة من فك خيط مبروم، كان صوته مطبوعا برقة تفوق كل وصف، ولحكمته صدى عند الناس، مثل النبوءة. قرفص أمامي، والبسمة مشعة والعين حافظة، قميصه ذو لمعان جذاب.

الاحظك ومنذ أسبوعين، الأخ نافا، إنك أول من يصل و اخر من يغادر المكان، كنت سأسر أكثر إذا لم يكن تصرفك هذا ناتجا عن نوع من القلق، إن عزلتك تنطوي على سر خطير. استنتجته من طريقتك في البقاء في ركنك، و كأنك بحاجة الى أن تبوح بما يختلج في صدرك و التخفيف عن شعور القلق المستتر العنيد ذاك الذي ما فتئ يقرضك.

يده الطاهرة منعتني من الكلام.

كل فان معرض للخطأ، أخ نافا. و أفضل المخطئين من يعترف بخطاياه، ومنها يستخلص درسا فلا يكرر ذلك.

لم أخطئ، يا شيخ.

هز رأسه بصورة مشككة.

أنت لست في محكمة، بل في بيت الله، انه رؤوف رحيم، يمكنك أن تعترف بلا خوف، سأصون سرك و شرفك.

لست بحاجة إلى فعله يا شيخ. أظن أنني أقدر على تدبر أموري لوحدي، بما أنني استرجعت الإيمان.

هذا رائع يا أخ نافا، أنا سعيد.

و لم يصر.

وفي اليوم التالي، وبدون أي حساب، ذهبت للبحث عنه في تلك الغرفة المنفصلة المموهة ببساط و الموجودة بالقرب من المنبر، استقبلني باحترام وقال لي إنه سعيد و أن الايمان المتقاسم يساوي كل زهد الدنيا. و قبل أن يتركني أتكلم عمل على توفير راحتي: روى لي أحاديث نبوية صحيحة و موكدة، حكى لي قصة أيوب و أفهمني أن الألم هو معاناة في

عين الكفار. بعدها، تلا لي سورة الرحمن ، صوته الرخيم سحرني. تمنيت ألا يتوقف عن القراءة أبدا. كانت الدموع في عيني الإمام يونس حين قرر أخيرا أن يستمع إلى اسراري، و لم يخن وجهه الملائكي شعور ما و لو للحظة .

- هذا أفضل ما كان يمكنه أن يحصل لك يا أخ نافا. علق في آخر حكايتي: لم تحصل غالبية رعيتي على مثل حظك، هؤلاء الذين يجيئون إلى المسجد هم هنا لان اباءهم كانوا من قبل هنا، لقد ولدوا مسلمين و لايقومون سوى بتخليد و تأبيد العادة. أما أنت فقد انطلقت للبحث عن فضاءات تحت سماوات اخرى، كانت لك أحلام، طموحات، كنت متعطشا للحياة. و قد أوصلك الله إلى ما كنت تريد الوصول إليه. لينيرك أكثر فبإذنه عرفت البذخ ، السلطة، الغرور. أما الآن، فأنت تدرك بأن ذاك التبذير و تلك الفخفخة الصارخة لا تفيد إلا في التكتم والتستر على بشاعة الرذائل، البؤس الأخلاقي الذي يعيشه أولئك الذين يرفضون تقبل فكرة إن المال إذا لم يحسن استعماله فهو ضار وغير نافع. , الآن أنت تدرك ما هو الصواب وما هو الخطأ. إن الفقر لا يكمن في الحاجة إلى المال بل إلى معالم الأخلاق. لقد كنت مع الأثرياء، إنهم أناس بلا انسانية، بلا رحمة وبدون حياء. إنهم يتزاورون حتى لا يغيب الواحد منهم عن نظر الآخر، ولكنهم في الباطن يكنون لبعضهم البعض الكراهية الحارة. إنهم في ذلك يشبهون الذئاب، ينفذون عملهم جماعيا حتى تكون لهم الغلبة و القوة ولكنهم في المقابل لا يترددون في التهام الواحد من بني جلدتهم نيئا إذا ما زل. خلف الواجهات الضخمة لقصورهم، وعناقاتهم الخادعة لا يوجد سوى الريح و الفراغ. عليك أن تشكر الله على التجربة التي ابتلاك بها و التي لا تقدر بثمن. لقد كنت على مشارف جهنم، ولكنك لم تسقط، بل على العكس

من ذلك، لقد وعيت الحقيقة، تلك التي تسمح لك الآن برؤية نفسك في المرآة دون أن تدير وجهك اشمئزازا أو خوفا وتساعدك على التحمل عند الشدة. لقد بعثت من جديد يا أخ نافا، هل أنت واع و دارك لمقدار حظك؟ فنحن نتيه دوما حينما نذهب للبحث خارج ما هو بحوزتنا. اليوم، فهمت، وانت الان تعرف أين مكانك، فليس موت تلك الصغيرة الطائشة هو الذي يحزنك، فهي بطريقة او بأخرى تستحق ذلك المصير، تلك النهاية. أنت حزين لأن بلدك يحتقرك، كل ما فيه يخيب أملك، فأنت ترفض أن تكون كما يريدك الأخرون ان تكون، تريد أن تكون ظلا لذاتك وفقط، مذنب انت رغما عنك. ككل شباب هذا البلد فقد غرر بك، تم نسيانك و التخلي عنك. من الان فصاعدا لن تكون وحدك، فلك الآن معالم، ولك ملايين من أسباب الحلم. حين يفنى هذا العالم، وتصبح الارض غبارا لن يظل سوى وجه ربك . وفي اليوم الاخر تسال، دون اية مجاملة:" ماذا فعلت في حياتك، يا نافا وليد؟" و عليك أن تهيء جوابك من الان، من هذه اللحظة، ما دام الوقت مبكرا، هل تفكر في القيام بشيء في حياتك، يا أخ نافا؟ كنت تحلم بأن تصبح ممثلا، وتؤدي الأدوار التي توصلك إلى النجومية و أعالي السماء، إذن، فهاأنذا أمنحك كل ذلك: أقترح عليك السماء شاشة، و الله مشاهد، فاعرض و اكشف إذن عن شساعة موهبتك.

لا أعرف بعد ما الذي حصل لي بالضبط، ذلك اليوم.

خرجت من المسجد، تسكعت في شوارع القصبة كما لم افعل مثل ذلك أبدا من قبل. ثم صعدت بعدها إلى رأس التلة.

حينما كنت صغيرا، كنت أحب أن أبقى، المساء فوق الكنيسة العذراء (نوترو دام) لأندمج في الخليج الصغير والفن الراسية وزقزقة الصبايا من حولي كعصافير مبحوحة

او مدثرة. لقد تبين لي أن نظري كان أبعد و أعمق من تفكيري، و أن العالم عند قدمي بإمكانه أن يصنع أحلاما. كنت أنتظر حتى أكبر لأقطف أوراق الرغد التي تكسو المدينة وتغطيها بالكامل.

جالسا على حائط حجري صغير، على حافة الطريق، كنت أتنفس بتلهف، مسرورا بوجودي وحيدا، لا يزعجني في وحدتي أحد، وحينما أشبعت نظري من تلك الآفاق المبرقشة، عدت لأحضن بصمتي القصبة العتيقة الجاثمة في الأفق هناك. رحبتها بمثابة عصارة غسيل، وركام القمامات التي تشبه كومة من القش، كل هذا يذكرنني بأمي و هي على حافة النهر جاهدة نفسها و هي تحاول أن تضفي بريقا ناعما على الأسمال البالية التي تغسلها.

كنت أحب أمي كثيرا.

يا إلهي لكم كانت تثير شفقتي...

الرأس مغروس بين اليدين و القلب كقبضة مندفعة من الصدر، كنت تائها في أفكاري.

كان علي أن أختار، نهائيا. كانت الحرارة الوبائية التي تتصاعد من الأعماق تشتت تفكيري. شيء ما بداخلي لم يعد يجيب. في لحظة، تمنيت لو أني أختفي بلمسة عصا سحرية، ألا اكون هنا. أن أنمحي كشعاع تبلعه و تزدريه الظلال.

في ضوء لامبة، خلفي تجمع فوج من المراهقين، كانوا يرددون لحنا للحاج مريزق. الأكثر فقرا من بينهم، براعته مدركة، يلامس قيثارته بيد شديدة الحزن. حين التفت التقت نظراتي بنظراته، تمالك نفسه لحظة، نحنح، و دون سابق، أطلق عاليا صوته مليئا بشعر لسيد علي، متبعا القافية بضربات أنغام منفجرة:

حين يطوي الحلم الشراع.

حين يغرب الأمل.
حين تفقد السماء نجومها.
حين يصبح كل شيء بدون معنى
انذاك تبدأ بالنسبة لك ولي
يا أخي
رحلة السقوط في الجحيم.

نزلت إلى البحر لأتفرج على استسلام الشمس للمغيب.
حين وصلت إلى الخليج، النهار كان في شعلانه يتدمر ، والأمواج، من بعيد، تبدو و كأنها جروح كبيرة.
سلسلة صونيا الذهبية تثقل أفكاري، فجأة، سحبتها من عنقي بعنف و ألقيت بها في البحر ، في حركة جحود.
لاأعرف كم ساعة مكثتها هناك. كنت احس بالبرد في جسدي وفي فكري، بالرغم من أنني كنت متأكدا من أن: الحلم يفتن، يقنع ويؤنس.. ولكنه في غالبية الحالات لا يعد صديقا.
من منا لم يحلم بالوصول إلى القمر و إدراكه؟ لكن القمر ما ان نمسك به حتى يتفتت بين الأصابع كرفات قديس. و أي طعم يمكن الوعد به، في القصر ، تعنت يسعى للعض على الغبار ؟

القسم الثاني

القصبة

لو أنـي خيرت للمقارنة بين النجوم فالشمس نفسها لن تعرف كسوفا نور الفعل الذي تخفيه/ليس هناك مكان مقدس، او عاصمة كفيلا أن يجمع، ما كل صباح/ طلوع نهار يهديك كالاكليل.

حيمود أبراهيم المدعو مومو
(هي لي، قصبتي)

كانت الجزائر العاصمة عليلة.

متخبطة في وحلها المتعفن، كانت تتقيأ، تتنطع و ترتجف دون انقطاع. تنتشر الجموع الغفيرة النازحة عبر أحيائها السفلية في غليان صاخب. يتدفق أوباش المدينة في شكل تدفقات و تيارات بشرية هوجاء، أكالة، متوزعة الازقة، ذائبة متبخرة تحت شمس من رصاص.

تتشبث العاصمة معلقة في تلالها، عباءة مطوية من فوق مهبلها المتفجر. صارخة بعبارات تذمر تذيعها عبر تلك المنارات، تتجشأ ، ملطخة. يغمر الضباب الكثيف كل الجهات، وبأعين دامعة وفم مهذار كان الشعب يحبس أنفاسه أمام الوحش الذي كانت تلده و تخلفه لهذا العالم.

لقد ولدت الجزائر العاصمة في حالة من الألم و القيء والاشمئزاز، في الرعب، *طبيعيا* ، بهتاف نبضها بشعارات المتطرفين التي أخذت تسير في الشوارع بخطى الغازين. إنها لحظات يحل فيها الشيوخ الروحيون محل الشياطين. بدأ القيض يستعير ألهبته من جهنم لتذويب الأفكار و الرجال ، وفي غفلة منهم كانوا يشبهون كرنفال الهالكين.

كانت العاصمة تحترق من جراء شبق الملهمين الذين اغتصبوها، انها حامل بحقدهم و كراهينهم. راحت تتلهى في الحفل على الجهة التي زينت منها، وسط خديعتها الملعونة الى الأبد، لقد خدعت دون صمت أو تردد، وبكلب أم أدركت بعد فوات الأوان أنه أبا لإبنها .

وجه معروف و رموزي في التيار الإسلامي فوق سطح حافلة صغيرة ، مكبر الصوت في الفم يلتم الهدوء.

ترفض الحشود المتجمعة التهدئة.

ما دام الجزائري لم يحصل بعد على حقوق المواطنةكاملة، وما داموا يعتبرونه واحدا من الأوباش المتسكعين، و ما داموا هنا إلا من أجل التحقق من أنه لا يزال على قيد الحياة لكي يأمروه صارخين:" إرحل ، لاجدوى منك. ". لن نخلي المكان، رد الجمع النافر الضخم.

لن نبرح و لن نرحل إلى أي مكان، سنبقى هنا في الشارع الليل كالنهار.

في مستطاعهم دائما أن يحاصرونا بعسكرهم الشبيه بالفزاعات، قوات .C.R.S يخوفوننا و يثيروننا ببنادقهم وأسلحتهم الثقيلة. لن نخلي المكان . سنقول لهم لقد سئمنا من سيركهم وتهريجهم و لن نقبل بعد اليوم بمراوغاتهم. لن نعود الى أعمالنا إلا إذا فهموا تماما أننا لا نرغب فيهم، أننا لانريدهم، و أننا أصبحنا قادرين على إدارة أمورنا دون مساعدة منهم. عليهم أن يعوا أن زمن الكذب والرذيلة قد ولى، وأن أرضنا قد استعادت قداستها، فمكانهم لم يعد بيننا، ما داموا مصرين على رفض طريق الفلاح فليذهبوا إلى الشيطان.

الفيس يعلن حالة العصيان المدني.

7

كان منزل الشاعر حذو السجن، جدران عارية، خشنة الملمس، لم تعرف الطلاء منذ زمن بعيد، الحجارة العتيقة تلمع في الظل. كان السقف عاليا و مبقعا و مبرقعا من تأثير ملح البارود، البلاط المشروم كان مرقعا هنا وهناك بهيدورات عنز. نافذة صغيرة هناك كان يتخللها نور شاحب، ينزل حادا كشفرة ساطور، كاشفا زربيات مفروشة في الزوايا، آلة المندولين، جرة، بعض المخطوطات و قوقعة سلحفاة ضخمة. كان سيد علي الشاعر مسرورا في فقره الروحاني، كان يقضي جل وقته متلقيا على مهزجه المغطى بناموسية، راضعا غليونه من الأفيون و هو يربي قصائد حول ربة فنه.

بالنسبة لأهالي حي سيدي عبدالرحمان الشوفينيين حد النخاع، كان سيد علي أعظم شاعر بعد المتنبي. كان الشيوخ مزهون به، والشباب كانوا يعشقونه، فكان يكفيهم التأمل في نثره حتى ينزل الغفران كاملا. حين ينظم سيد علي شعرا تتهوأ الطواويس بريش ذيلها وتطوي الملائكة نلياتها. أعظم من أسطورة. كانت قصائده دواء.

يفرقش نافا وليد بعض حبات الفستق مقرفصا على حصير كطالب قرآن، كان ينتظر أن يتكرم مضيفه بالتكفل به.

لم يكن سيد علي مستعجلا. لقد استسلم لذلك عرقوبه حركات كانت تقوم بها امرأة ذات نظر سديمي كان يقهقه حبورا، جراء تلك الملامسات.

لقد اقترب أذان العصر، لاحظ نافا.

عاد سيد علي إلى الواقع . بحركة من بيده السحرية أخلى سبيل المرأة ثم عدل من جلسته.

ليس للوقت درس في بيتي.

إنهم ينتظرونني خارجا.

لم تأت بمفردك؟

اتيت صحبة أحدهم.

ما كان لك أن تتركه في الشارع، إني أرحب بالجميع.

اعتقدت أنك كنت تود أن تحدثني على انفراد.

إنه. كأس شايك أولا.

بي ألم في المعدة.

ابتسم سيد علي. بوجه متأثر بالأفيون و بليالي التأمل الطوال، وجه مليء بتجاعيد رمادية تمتد من زمة فمه لتصل صدغيه في شكل حلزوني شبيه بذلك الشكل الذي يحدثه رمي حجرة على صفحة بركة ماء.

تعال معي.

مكرها، قام نافا وليد و تبع الشاعر إلى السطح. راح سيد علي ينفض جلبابه الصحراوي الذي انحل طرزه على مستوى العنق، مسح على لحيته ثم اتكأ على الدربزين ليتأمل البحر محاولا تجاهل صخب الشارع. بينما كان تلهف ضيفه في تزايد.

قال:

- ربما لست سوى متحمس واسع الخيال... قوال منبهر بتغليب عبقريته، إنه لمن المستحيل بالنسبة لي أن أتخلى عن

فكرة أن البحر الأبيض المتوسط، في البدء، لم يكن سوى نبع، نبع بعرض ليس أوسع من ظل شجرة خروب. قبل أن تغتسل حواء فيه و يشرب منه آدم حتى الارتواء. هنا، في بقعة ما أمامنا، بعد أن طردا من جنات عدن و بعد أن هاما لسنوات عدة بحثا الواحد منهما عن الآخر، و عثرا على بعضهما البعض.

انتصب فاتحا ذراعيه لاحتواء الأفق:

كل شيء يولد هنا، في مكان ما أمامنا. العين تجرأت فأصبحت بحرا ثم ولدت المحيطات.

الأجل أن تحدثني عن البحر استدعيتني؟...

ضرب سيد علي على الدربزين بكفه مستاء و محتجا على المقاطعة.

نعم لأكلمك عن البحر، و أحب أن أحكي لك أيضا عن السماء، لكن آخرين سبقوني إلى ذلك.

واجه نافا بعينين حمراوتين، ارتجفت لحيته من الغضب، وبرز الشاهد فجأة من قبضة يده منتصبا:

ما الذي ذهبت تبحث عنه في المسجد، يا نافا وليد؟

السلام.

السلام؟ كنت أجهل أن السلام في فوضى. أشار بأصبعه إلى المدينة المثخنة بالحقد و الكراهية. إنها الحرب: التي يطالب بها هناك في الأسفل.

ليست الحرب إنما الكرامة.

توتر سيد علي، نزل صوته كالحمى:

عندما كنت صغيرا، كنت أذهب كل يوم إلى محطة القطار للاستماع إلى صفارات القطارات. كنت أحب منظر القطارات متجهة إلى الأمام تصقل الخطوط الحديدية بدواليبها. لقد كانت لحظات رائعة، كنت أتخيل نفسي راكبا عربة، وحده هذا

الاحساس كان يجعلني سعيدا. كنت طفلا متشددا نوعا ما. كنت أقول لنفسي سيجيء يوم أسافر فيه أنا الآخر. كنت أعتقد أن معرفة العالم هي قضية سفر... وبعد ذلك و من دون سبب لم تطأ قدماي محطة قطار.

انتبه يا نافا. كان سيد علي عرافا.

في محطة القطار تعرفت على أبيك، يواصل سيد علي حديثه، كنت يتيما، كنت بلا اسم، كان اسمي (عديم اللقب) (S.N.P) لم يكن والدك يملك فلسا، و مع ذلك كانت له دائما حبة حلوى يقدمها لي. كان يتنازل لي عن سندويتشه كاملا. كان شخصا رائعا حقا. اليوم أنا مشهور و لكنني لم أصبح غنيا، ظللت فقيرا كذي قبل. لا أملك ما أقدمه لك سوى كأس شاي و بعضا من وقتي.

شد سيد علي نافا من كتفيه، نظر إليه في العينين:

لا أريدك أن تسبب له المتاعب.

لا أدري كيف يمكنني أن أقوم بذلك الآن بعد أن التزمت صفا.

صف المتشككين الفوضاويين.

أزاح نافا يدي الشاعر عنه، احمر وجهه:

ليس من حقك إهانة مسلمين بسطاء.

إسمع...

انت من يجب عليه أن يسمع، إنهم ليسوا وحوشا، إنهم إنسانيون مثلك أيضا، ويدافعون عن قضية نبيلة.

على هذا الكلام، دار نافا حول نفسه متأهبا للإنصراف.

نافا !

توقف نافا عند عتبة الباب دون أن يلتفت إلى الوراء.

أدرك سيد علي أن التقرب منه ما عاد مجديا.

قال له:

إحذر من أولئك الذين يحدثونك عن أشياء اكثر اهمية من حياتك. هؤلاء الناس يكذبون عليك، انهم يريدون استخدامك لأغراضم الخاصة، لذلك يكلمونك عن المثاليات الكبرى، عن التضحيات السامية، ويعدونك بالخلود السرمدي مقابل إهراق بعض قطرات من دمك. لا تستمع إليهم و تذكر دائما هذا: لا شيء على الإطلاق يفوق قيمة حياتك. انها الشيء الوحيد الذي يمكن ان تحسب له ألف حساب، لأنها تظل الشيء الوحيد الذي هو ملكك حقا.

عبر نافا الغرفة غاضبا و خرج إلى الشارع.

مقرفصا عند قدم جدار مقابل بيت الشاعر، كان نبيل غالم يخربش على الأرض بقطعة من حديد، و اذ رفع رأسه رأى نافا وليد خارجا من الكوخ في حالة من الغضب، أدرك أن طريقة الحديث الذي دار بينهما كانت سيئة. ترك قطعة الحديد تسقط، مسح أصابعه بجناح قميصه الطويل و أسرع ليعترض طريق سائق آل راجا السابق.

ماذا أراد منك؟

رد نافا مشمئزا:

لا شيء.

انزعج نبيل من جواب نافا وقد زاد من يقينه حالته وجفاف جوابه حين نطق ب " لا شيء".

ما هذا: لا شيء؟

لا شيء يستحق ذكره.

قهر نبيل غضبه، و هو الذي لا يقبل أن يزعج أو أن يخاطب بهذه النبرة. استدارت عيناه المتأججتان نحو منزل الشاعر مسلطة عليه شراسة و باحثة دون جدوى عن ظل مخلوق خلف النوافذ المشرعة.

أراهن أنه و كعادته لا يفارق غليونه القذر.

أيستطيع أحد أن يتخلص من ظله؟

لقد وجدته في ذهوله، أليس كذلك؟ ألح نبيل محققا، طبعا انه كان في حالة شرود و تخريف. ما الذي استطاع أن يرويه لك حتى جعلك في مثل هذه الحالة؟

فضل نافا ألا يقول شيئا ثم غاص في زحمة الزقاق الملتوي حيث درجات السلم المصدعة و المتشققة من جراء المجاري القذرة تنزل في اتجاه الأسفل حيث أكوام الأوساخ والنفايات التي تشويها الشمس و تحاصرها سحابات عجيبة من الذباب التي سممت الهواء. لا أحد مكترث لهذا. الأطفال يلعبون و يمرحون مع جرو صغير مشوه، الشدق مفتوح على وسعه و المناخير متدلية، لقد أصبح من النادر مشاهدة كلاب أوقطط تغامر في الحي. في غياب مساحات للعب حيث يمكن ركل كرة، الأطفال الوقحون اكتشفوا هوايات التعذيب: تعذيب الحيوانات، الأمر الذي جعل بعض المشاهد المرضية السبب في إصابة الشيوخ بسكتات دماغية.

في غفلة و إهمال تام، عند الباب: طفلان صغيران متضاحكان، يصبان على أقدامهما قارورة ماء قذر، كانا وسخين: الساق مرضضة و الوجه بلدي، وأما الطفل الثالث فكانت أردافه عارية، وبرأسه نخر مائل إلى البياض وقد تسلق كوة زجاجها مكسور ، كل ذلك تحت عيون المارة اللامبالية.

نحن على علم بكل ما يقوم به. أضاف نبيل غالم: إننا هنا نتابع و نراقب كل شيء. نحن نعرف أنه يحاول التأثير على بعض أعضاء حركتنا.. أنا سعيد لتأكدي من أنه لم يوفق معك أيضا.

هز نافا كتفيه.

فتاة تصعد الزقاق، كانت تضم حقيبة يدها الى صدرها، استنكر نبيل التنورة التي ترتديها، وانتظر إلى أن وصلت بمحاذاته ليصرخ فيها:

أما تخجلين؟... التسكع في الشوارع نصف عارية.

لم تعره الفتاة أي انتباه، و قد بدا عليها تعب من كثرة ما تتعرض له من هذا النوع من التوبيخ، مسحت الجدار بنظرها ثم تابعت طريقها.

قذفها نبيل بكلام قائلا:

يا لك من فاسقة، إذهبي لستر جسدك.

بخطوات حثيثة، منكسة الرأس، تسلقت الفتاة درجات السلم في صمت ثم اختفت.

لو اقتصر علي الأمر، لعملت طوعا على تصليح اقي هذا القذر بالشاليمو.

يكفي، صرخ نافا مغتاظا، هناك أطفال.

دمدم نبيل قبل أن يهدأ.

في القصبة ، لا يدرك الكثير من الناسس ما يمكن أن يقرب أو يجمع بين شخصين مختلفين. عرف نافا بأنه شخص مؤدب، متحفظ قليلا، و لكنه محبوب ، مرتب، غيور على سمعته ك "شاب أنيق". كان من القلائل الذين لا يرتدون القميص الإسلامي، يحلق ذقنه بانتظام. يوم الجمعة، وفي المسجد لا يبالي نافا بأن يكون في الصفوف الأولى للمصلين، و في مسيرات الاحتجاج لا يظهر في أي مربع بشري كما أنه لا يهتم بالمؤامرات التي تحاك ضد هذا و ضد ذاك. و في المساء، عندما يذهب لمشاهدة فيلم مشهور أو لارتشاف فنجان قهوة على السطوح على حافة البولفارات، يغلق على نفسه في بيته.

أما نبيل غالم لم يكن ليثبت في مكان، انه في كل مكان: في المسجد، في التجمعات، على السطوح بصدد تفكيك وتخريب أجهزة البارابولات، في الأحياء الفقيرة لمتابعة وصرف النساء العاهرات و قواديهن، مستعد للتعارك مع أي كان، على أي شيء. كان شخصا متهورا، مزعجا، و غازيا، كان الحارس الجيد للمعبد. لا شيء يفوت يقظته. في العشرين من عمره تمكن من اقناع مسؤولي الحزب بأن يقوم بإرادته الفردية بتطهير الحي من السكارى و الخارجين عن القانون، بمجرد أن ترأس لجنة الحي للشباب الإسلامي فرض على مجموعته نظاما من حديد و قد نجح في استمالة عدد لابأس به من البطالين، كان يقود عشرية من عناصر الميليشيات المتطوعة، مجموعة قائمة على جمع التبرعات و أخرى ثانية متكونة من فتيات متطوعات و مداومات يعملن على التكفل بالعائلات المحتاجة و الأشخاص المسنين. لقد فعاليته ومردوديته تشرف الأصوليين، لقد أثنى عليه الإمام يون ، مرات عديدة، أمام شخصيات مهمة في مجلس الشورى، وبفضل أساليبه العنيفة تحولت الخمارات إلى دكاكين وتحولت قاعة اللعب الوحيدة إلى مكتبة قرآنية. كما أن الشباب المنحرف الذي كان يعكر الليالي كالأرواح الشريرة بتصرفاتهم أرغمهم جميعهم على تغيير المكان. استعادت الشوارع طمأنينتها، و أصبح الليليون لا يولون أهمية للالتفات خلفهم و هم يعودون إلى ملاجئهم.

كان نافا وليد يحب " نبيل" كثيرا. إلا أنه لم يكن ليثق فيه. الآن و هو يعاشره باستمرار، لا تعجبه فيه وقاحة أحاديثه، ولا تدخله فيما لا يعنيه. إلا أنه كان ضروريا و لا يمكن القفز عليه حين يتعلق الأمر بالمشاريع منذ أن عاد إلى الحضيرة. فعلا، لم يكن نافا يحلم سوى بامرأة زوجة و بقلب و نسيان

المالضي. لقد عاين مسكنا بغرفتين بسوق الجمعة، حيث يرغب أن ينتقل ليقيم به قبل نهاية السنة. كانت الشقة موجودة في الطابق الأرضي لعمارة متهالكة، دون ماء، دون إنارة في السلم، و مع كل هذه النقائص كان الكراء معقولا و الجيرة محترمة و جيدة. أما عن المرأة فلقد لمحها نافا ذات مساء عند محطة الحافلات و أعجب بها على الفور.

كانت الفتاة من بنات الحومة و التي كبرت في غفلة منه ، ودون أن ينتبه إليها. لقد فاجأته برقتها و تواضعها.

اسمها حنان. إنها الأخت الكبرى لنبيل.

كل يوم، و على الساعة الخامسة مساء، يطوف نافا على محيط المحطة، قلقا، نافذ الصبر، عيناه مشدودتان نحو ساعته. مستاء كلما وصلت حافلة غير تلك المنتظرة. وأخيرا عندما تظهر، يبلغ لعاب ريقه باختلاج. حائرا في أمره، يعمل في البداية على أن يبدو طبيعيا في تصرفاته حتى لا تلاحظه هي او يلاحظه الجيران الذين يميلون إلى تفضيل الخنازير البرية، خوفا و تحسبا من هطول رعود من السماء و التي من شأنها، و بسبب هذا التقارب العشقي، أن تثير العار بنفس القدر الذي تثيره من النفاق و التدنس.

مختبئا خلف كشك مشرف على الانهيار، يراقبها، من بعيد، بانبهار مذعور كتلميذ مولع بمعلمته.

دون أن يكلمها، دون أن يكون متأكدا بأنه يستطيع ، ذات يوم، الاقتراب منها، كان مقتنعا بأنها هي رفيقة حياته. و في الليل، في غرفته، كان يتفحصها كما يحلو له. أرق، غير قادر على النوم، مادامت عيناها الواسعتين ن السوداوتين والجميلتين تسكنان وحدته العميقة. و مرة أخرى، يراها تنزل الزقاق، تبدو متألقة من فوق حجابها كما و لو أنها حورية في المرج، غير عابئة بمضايقات الشباب الحمق الذين

يعترضون سبيلها، بهيبة و وقار و هدوء، غاضة الطرف بحياء كما هي عادة بنات العائلة المحترمة.

منذ الصباح، يستيقظ نافا ليجد أن "حنان" لم تعد "هنا"، و بأن غرفته يتيمة من ذكراها، و أنها سوف تعذبه طيلة النهار، خلال الساعات الفارغة و القاسية التي تفصله عن تلك الدقيقة الرائعة ، السامية التي تبدوا فيها عند المساء، قبيل آذان المغرب بقليل.

لكن، و منذ أيام، لم تعد حنان لتظهر في مواعيدها.

يجب أن تكلمه، أشارت علي أمي.

ذلك ليس بالأمر البسيط و الهين، فأخوها شخص ذو مزاج خاص و غير متوقع.

برطمت أمي و كأنما لتقاطعني. لم تستحسن ترددي ومراوغتي، و بصبر تركتني أنهي عشاني لتعقلني. جلست، وعقدت يديها المهترئتين من جراء أعمال السخرة المنزلية ، تحت ذقنها، و بدأت تفكر.

وقفت أختي الصغرى عند عتبة الباب.

وعدتني بأنك ستساعدني، كانت تترجاني ملوحة بدفتر. علقت أمي:

نورة، من فضلك، أنت ترين بأن لدينا، أخوك و أنا، هوما أخرى.

نعم ، ولكن لدينا اختبار غدا.

فيما بعد يا حبيبتي

كشرت نورة و هي مستسلمة و عادت إلى الغرفة المجاورة.

انحنت أمي فوق المائدة.

على كل، لا تنتظر أن يقوم بهذه المهمة شخص آخر بدلا عنك. في رأيي عليك أن تكلمه في الأمر، أي أذى يلحق من جراء طلب يد فتاة للزواج.

إنه شخص معقد ، أقول لك، من الممكن أن يتهمني[ان لي علاقة بأخته منذ عهد طويلا، أنا أخشى ردة فعله، إن نبيلا ينظر دائما إلى الأشياء من جانبها السلبي. منذ شهور، وبالظبط منذ أن استقمت. أقيم الصلاة. محتاطا، أنخذ كل حذري. و رغم ذلك فهو يتحين أية فرصة ما ليسرع فيبادر بذكر سنوات انحرافي، أحاول ملاطفته و لكن دون جدوى، يظل خشنا، رعنا لا يفكر سوى في الصدامات و المشاحنات، كل هذه القلاقل التي تحركه لم تترك لي المجال لطرح الموضوع عليه.

أعتقد أنك أنت الذي يعقد الأشياء. إن الأمر يتعلق بطلب يد أخته للزواج. إن الأمر جدي و جاد. و إن ما يجري من حوادث في الشوارع لن تغير شيئا. لقد تزوجت أمي في عز الحرب الكبرى. كان الأمريكيون يتهافتون في باب الواد.لقد كانت السماء تزعق بقاذفات القنابل، و صفارات الإنذار تنعق في الليل. كل ذلك و حفلات العرس تقام في بهجة. أما أنا ففي سنة 1962، حيث المنظمة المسلحة السرية (OAS)، تفجر الحي، الرشاشات تلعلع في كل ركن من الشارع. كل يوم تسجل عمليات اغتيال ضد مجهولين، كل هذا لم يمنع موكب العرس من الاستعراض في البولفارات، الزرنة تصدح حتى مطلع الصباح. و هذه هي سنة الحياة يا بني، ليس بإمكان أية مأساة أن توقف مجرى الحياة. إننا نتزوج رغم كل شيء، و ليس من حق العالم أن يكون على غير ما هو عليه. أنا أذكر : ليلة عرسنا، حيث كان أبوك

يزحم، و هو في غرفة العرس، من قبل أصدقائه، كانت الطلقات تلعلع على مقربة من صحن الدار، و أبوك قال لي...

لم أقل لك شيئا، صرخ أبي بصوت أبح من عمق الصالون، ومن ثم لم يكن أحد ليزحمني في الليلة تلك. انتبهي لما تدلين به يا امرأة. لم أكن محتاجة أن يدفعني أو يزحمني أحد و خاصة أمام عذرا في سن الخامسة عشر.

أخواتي اللواتي كن يسمعن وهن في المطبخ، انفجرن ضحكا. غطت أمي فمها بيدها، و أدخلت عنقها بين كتفيها، وبيد ثانية كانت تلوح بمروحة غير مرئية حول غلطتها والتي لم يكن الشيخ والدي مستعدا، إلا بمعجزة، على مسامحتها عليها.

و أنا بدوري، بدأت أضحك.

8

قبل الهستريا الوطنية لأحداث أكتوبر 88، كان عمر زيري مفتخرا جدا بأشكال الباطرات الموشومة على عضلاته، قبعة مائلة على الأذن، يرتدي، على مدار السنة، سروالا بروليتاريا أزرق مهترئا عند الركبتين، و قميص بحار رثا حتى الشبك ، يتدلى فيه كرش مشوه. عابسا، السيجارة لاصقة في الفم، لا يعرف قول كلمة " شكر" ويرى أن " طلب السماح" أحقر فعل يقال تهربا من الواجب. كان يدير " نيف" وهو مطعم صغير حقير على جنبات المجد: جحر جرذ مليء بالطاولات المنخورة بالسوس ومقاعد خشبية عليها تجرد الملابس بأسرع من إتلافها على منحدر السلم.

من منتصف النهار و حتى الليل، مهدهدا بأغاني و مدائح دحمان الحراشي، يتثاوم وراء صندوق المحاسبة القديم الذى يشبه أنبوب غاز يتعثر كل مرة عندما يهم بإرجاع الصرف. زبائنه كانوا عبارة عن كومة من الزبالين و العمال المياومين الذين تنبعث منهم روائح كريهة و مقرفة. ياكلون بنهم مثل البهائم. آثار أيديهم المعروقة تنطبع على قطع خبز الخشن المخطط الأسود . سعر الوجبة كان محددا بعشرين دينار.

محتوى طبق الفطور هو نفسه في العشاء: شوربة بدون لحم، بطاطا مقلية مشبوهة، كأس حليب رائب و فطائر.

بعد أكتوبر 88 كان عمر زيري منبهرا بالتفجر و الغليان الإسلامي، لقد تنبأ للثورة من بعيد، تلك التي لا تسامح أبدا أولئك الذين لا يمتطون القطار عند ساعة الانطلاق. الخطاب كان واضحا و التهديد جليا. و أيضا عندما اقترح عليه الإمام يونس بتحويل مطعمه الصغير إلى "مطعم الرحمة" على طريقة الفيس (الجبهة الإسلامية للإنقاذ)، اعتبر عمر ذلك تشريفا عاليا. بين عشية و ضحاها اختفى صندوق المحاسبة، تلاشت أغاني دحمان الحراشي لتترك المجال واسعا للأناشيد الدينية. إلتحقت جموع المتسولين بفئات الزبائن القديمة ليتم إطعام الجميع مجانا. متأثرا بشهيتهم المرضية ، بإحساس خير مسح دمعة، وبإشارة ظاهرة شكر الله على أنه حشره مع رجال طيبي الإرادة. عوض قميص البحارة بقميص إسلامي واعتمر مكان القبعة قلنسوة شبيهة بتلك التي يضعها علي بلحاج على رأسه، كانت تحضن سكينته و مشاريعه الكبيرة.

يوميا، تتجمع كتائب المتسولين أمام المطعم الصغير. كان عمر يخشى أن يحرج من قبل هؤلاء، من تلك التشكرات، كان يكرر: ليس هناك أسوأ من شكر مقابل واجب إحسان بسيط.

كان للبؤساء الحق في الأطباق نفسها التي كانت تخصص للزبائن القدامى مع شيء من السخاء: قطعة دجاج، قطعة بطيخ أو علبة ياهورت. و إذا لم يشبع الواحد منهم تضاعف له الحصة بدون عبء. و عندما تمتلئ البطن يكون الجميع على استعداد للإستماع إلى الطيور الغريبة المهاجرة، تلك التي رحلت إلى المشرق لتعود محملة بالقول الحسن. عادوا إلى الوطن برسائل و خطابات للأمل وبرنامج للإنقاذ. كانوا في سن الشباب على سلوك عال، بقيمة الأولياء الصالحين،

لكن بقليل من الفضول بسبب لباسهم الأفغاني، لكنهم كانوا بسطاء و قريبين من الوداعة. كانوا يدعون ب " الشيوخ" يتدخلون بالتناوب بين اللقمة و الأخرى، ليصرحوا للفقراء لكم انهم مشفقون لحالهم المدقع، إن لحاهم تعطي انطباعا على أنهم يقومون بشيء لا يمكن الوصول الى قرارته. كان خطابهم مطبوعا بالشفقة و الحنان ، و كان صدقهم جليا ككتاب الله الذي يعرضونه. كانوا يبدون و كأنهم يعرفون كل شي عن ماسي الأشخاص البسطاء، و انهم يتألمون لذلك. كانوا يتحدثون عن البلاد التي سقطت رهينة بين أيدي الكلاب والساقطين.و عن الخلاعة التي عمت الشرائح العليا من المجتمع، عن التناقض العجيب الذي ليس له تفسير: ففي بلد غني كالجزائر يعيش مواطنوه في عوز شائن جدا. كانوا يقولون ايضا:" قبل 62 كان بلدنا خزانة حبوب لأوروبا، واليوم إنه خراب. قبل 62 كان الجزائري يفضل أن تقطع يده على أن يمدها للشحذ، اليوم يمد الإثنتين.". كانوا يقولون:

" لماذا أنتم هنا، في هذا الملجأ تعتمدون كلية على إحسان بعض الطيبين؟ لماذا يجب عليكم الاكتفاء بتناول الحساء الشعبي بينما يرمى مالكم من النوافذ، و يضخ بترولكم أمام انفكم وتداس كرامتكم و مستقبلكم؟"... أسئلة بسيطة لكنها لا تحصد و لا تجد أجوبة سوى السخط و الحيرة الأخرسين. لم يكن الشيوخ يطالبون بأكثر من ذلك. كانوا يرفعون أصابعهم نحو السماء ليعلنوا أن الملائكة هجروا الاراضي الجزائرية، إن الله غاضب على شعب تناسى وعوده و قسمه، و أنه لم يعد منتبها لم ال اليه مصيره وحاله بينما الطريق المستقيم مرسوم لتحريره من مخالب ابليس و الوصول به إلى النور.

كان الشيوخ يعرفون جيدا قول الأشياء و التعبير عنها، بينما لم ينتبه و لم يتفطن البوساء حتى الى تلك الارمة التى

كتبت عليها شعارات إسلامية و التي عوضت اللافتة السابقة التي كانت مرفوعة على مدخل المطعم الصغير. و كما أنهم لم يتفطنوا أيضا إلى الملجأ الذي تحول إلى مركز استقبال ودعاية: فعوض الكونتوار و الطاولات المسوسة و المطابخ نصبت الآن مكاتب، في حين علقت على الجدران صور تبرز تجاوزات قوات الأمن خلال أحداث أكتوبر. هذه الصور ليست مزورة، يعلق البعض مؤكدا ... بفضلها يمكننا أن نتذكر الشوارع المغطاة بدخان القنابل المسيلة للدموع، السيارات و المؤسسات المحروقة، و قوات CRS تضرب بالهراوة المتظاهرين، رجال الإسعاف ينقلون الجرحى، النساء دامعات العيون و الأطفال في حالة من الرعب والتأثر.. سيما تلك الأجسام الملقاة على الرصيف، في برك من الدماء، مشوهة، منصعقة، عيون شاردة، الأصبع موجهة نحو السماء، و الذي حسب الشيوخ، يبدو أنهم يقولون لمن ظلوا على قيد الحياة: " لقد متنا لأجلكم، لا تنسونا." ...

مؤكد، في مجتمع حيث النفاق و التفاهة من الأشياء العادية المتداولة، لا عمر زيري و لا مطعمه الصغير يستحقان التوقف الطويل. إلا أن هذه القصة تساعدك وببساطة على الفهم و إدراك كيف أنه و بدون اصطدامات و بدون ضجيج ، و قع ذلك تقريبا في غفلة منها، هي القصبة حي الشعراء تحولت إلى حصن للمتطرفين الإسلاميين.

كان هناك ناس كثيرون، ذاك الصباح، وقد توزعوا حول المسجد و على الشوارع المجاورة، مئات المناضلين والمتعاطفين، يتناثرون على الأرصفة بينما احتمى البعض الآخر بشرفات مداخل العمارات، والبعض الآخر تحت المظلات المطرية يحتمي من الشمس. الكل كان ينتظر الأخبار التي تصل من مجلس الشورى. العصيان المدني يسير

على أحسن ما يرام. البلد مشلول. مكبرات الصوت تذيع الخطب الساخنة في المدينة. الميليشيات الاسلامية ، شباب بشارات على السواعد، معصبي الجبين بمناديل خضراء، كانوا يوزعون ماء للشرب، بيسكويت، جاهدين أنفسهم على فرض الإنضباط على قوافل القادمين الجدد الذين يتهاطلون من كل نواحي المدينة. بين الفترة والأخرى يصعد شيخ فوق صقالة ليقرأ بيان المكتب الوطني، وسط هتافات و دوي أصوات الجماهير المحتشدة:" ستسقط السلطة" ، في ضجيج و حمية و غضب.

استغل نافا وليد فرصة مرور وفد ليفتح طريقا بين الجماهير الغفيرة إلى غاية مطعم عمر زيري. كان نبيل غالم يرتب علبا كرطونية في المطابخ القديمة و حولت الى قاعة أرشيف. لم يكن وحيدا. تعرف نافا على أولئك الرجال الجالسين على كراس معدنية: الأخوان شاوش و هما جامعيان لامعان، حمزة يوب و الذي يشتغل دهان عمارات، رشيد عباس أحد أقارب الإمام يونس، وثلاثة أفغان هم عناصر من الميليشيات الخاصة بمسجد " كابول" بالقبة، كانوا يجيبون بين الحين و الأخر للاطلاع على نظام سير الإضراب، و كذا لتقديم يد المساعدة لنبيل غالم. أكبرهم يدعى حسان فقد ذراعا له في بيشاور عندما كان يتدرب على صنع المتفجرات، اما الإثنان الاخران فينتحلان اسمين غريبين ؛ ابو مريم وإبراهيم الخليل. حملهم للسلاح في أفغانستان كان قاسيا الى درجة أنهم لم يصدقوا أن تلك الفترة قد انتهت.

قال عمر زيري محاولا الاستعلام و الإثارة:

و ماذا جرى بعد ذلك؟

تابع ابراهيم الخليل قص تفاصيل ما جرى بنبرة متجاهلة تماما فحوى الموضوع أو ما سيسفر عنه:

سألت الشخص عما جاء به إلى الغابة في ساعة مثل هاته، وصحبة فتاة في هذه السيارة القديمة. تبدل لون الشاب من شدة الارتعاد و الخوف، وقال بأنه كان يناقش زوجته حول مشاكل حساسة، فقلت له " أرني الدفتر العائلي" فقال " لقد تركته في البيت" فسألت المرأة عما إذا كان هذا الشاب زوجها، فقالت " نعم"، فقلت لها " و ما اسمه؟"، فقالت " قادر "، قلت" قادر ، و ما اسمه الكامل؟". ابتلعت ريقها، لحظتها انهارت ثم بدأت تصرد بعض التفاهات من قبيل: أنها أرملة، و أنها بدون عمل، و أنها أم لأطفال و أن والديها مقعدان، و لا معيل لها، لذلك وجدت نفسها مجبرة على فعل هذا... من اجل أن تطعم عائلتها. فقلت للشاب: أيها الكذاب الحقير ، أعطني يديك، كان شارباه يرتجفان، مد يديه على طريقة التلاميذ المعاقبين، فضربته على أصابعه بحزامي، زلاط ا زلاط ا و مع كل ضربة كان ينثني ليسقط على ركبتيه أرضا من شدة الألم، مدخلا يديه تحت لإبطيه، لقد أثارت حركاته غضبي، و أنا الذي يغضب كلما بالغ أحد ما في الامر ، انذاك طلبت من الإخوة تجريده من ثيابه، طرحته أرضا و منحته " فلقة"، ضربا على الأقدام، درسا لن ينساه، لدرجة أنه لم يستطع النهوض بعد ذلك، و قد أخذ يمشي على قوائمه الأربعة.

ضحك عمر زيري بقوة و انفجار حتى التأم بطنه بركبتيه مدغدغا:

قال أبو مريم بحكمة:

لا يوجد أحسن من عصا غليظة.

و قال عمر زيري طامعا في المزيد:

و ما مصير المرأة؟ ماذا فعلت بها؟

هذا لن تعرفه ، يا خنزيري، رد عليه إبراهيم.

و ماذا كنتم تفعلون في الغابة في مثل تلك الساعة؟

هذا أيضا لن تعرفه أبدا.
تراجع نبيل غالم ليتأمل الأدراج و قال:
ماذا قلتم يا أصدقاء؟ أليس هذا بجميل؟
أكد رشيد:
جيد جدا، يجب علي أن أدعوك إلى بيتي لتقوم بترتيبه قليلا.
أنا لست بخادمك.
مال عمر زيري نحو إبراهيم:
أحقا لا تريد أن تخبرني بشيء فيما يخص تلك الفتاة؟
مرر نبيل خرقة ممسحة على الخزانة ليزيل غبارا عنها، وقام بتنظيم و ترتيب علبتين أو ثلاثة، تراجع مرة أخرى إلى الخلف ليتأمل ما قام به، كان راضيا على ذلك.
سأل نافا:
هل لديك دقيقة؟
رد عليه عمر مقهقها:
إنه لا يملك حتى ساعة !!
أهناك مشكل ما؟
لا ليس ذاك بالمقصود؟
حاول نافا أن يمسكه من ذراعه ليسحبه بعيدا عن الآخرين، إلا أن نبيلا قاوم ذلك، ثم قال بعلانية:
ستتنازل السلطة بين لحظة و أخرى، الإضراب قد حقق نجاحا كاملا. لقد بدأ الإخوة في الرجوع من كل مكان تقريبا، و كلهم مجمعون: لن يبق للكلاب سوى بضعة أيام لجمع حقائبهم و الرحيل، هل أنت واع لذلك؟
كان نافا مستريحا، و كان نبيل في مزاج جيد، و إنه على استعداد للاستماع إليه أخيرا.
نعم؟

حك نافا خده، وبلل شفتيه بلسانه، و استجمع شجاعته، إلا ان النفس كان يخونه، و قال مدندنا:

كنت أريد أن أحدثك من قبل، فقط لم يكن يبدو لي أنك... أريد أن أقول إنك كنت كثير الأشغال، مرهقا. و الان ... ألا نستطيع الذهاب إلى مكان أخر؟ لن يستغرق الأمر وقتا طويلا.

نحن بين إخوان ، ليس هناك أي سر ، أعتقد أن الأمر ليس خطيرا؟

لا، لا أبدا أريد أن أحدثك عن رغباتي... رغبات سعيدة...

لم يفقه نافا ما كان بصدد قوله.

خضه نبيل، قبله، و ضمه بقوة إليه وقال:

ماذا قلت لكم؟ لنافا طموحات سعيدة، أخيرا قرر أن ينتمي الى حركتنا.

قال عمر ساخرا:

فعلا ستكون لنا ساق إضافية للإستناد.

شعر نافا بالهزيمة، مختنقا، متخليا عن حماسة صديقه، متأسفا ومتألما لكونه قد أجل طلب الزواج.

في المساء، على الساعة الخامسة مساء، عاد الى الساحة العمومية لعد الحافلات، ثلاثون دقيقة مرت وإذ لم يشاهد "حنان" قادمة، بصق على الأرض و عاد إلى بيته.

قالت أم غالم، من المطبخ:

إكرام إذهبي لتري من يدق الباب.

أخفت الفتاة الصغيرة الصورة تحت الوسادة و أسرعت في اتجاه المدخل. فجأة تجمدت. ماذا لو كان نبيل؟... لا ، فنبيل يملك مفتاحه، إضافة إلى ذلك فهو لا يدق الباب. وقفت اكرام على رؤوس أصابعها، سحبت لسان القفل، فوجدت امرأة واقفة على الدرج، طويلة و جميلة، مرتدية معطفا

طويلا، لباسها الأوروبي شد انتباه الصغيرة، مثلما جعلها تلقي بنظرة خانفة نحو الدرج، لو رأى نبيل هذا؟! فكرت في الأمر بارتجافة.

هل أنت حقا إكرام، الأخت الصغيرة لحنان؟

نعم سيدتي.

وضعت إكرام أصابعها على فمها مترددة.

نبيل يكره النساء اللواتي يرتدين هذا النوع من اللباس، قالت ذلك بحيرة.

حسن، و لماذا إذن؟

قال نبيل بأن النساء اللواتي لا يرتدين الحجاب حقيرات، عندما يمتن سيرتدين ألهبة و جمرا إلى أبد الأبدين.

لاطفت السيدة خد الصغيرة و قالت:

اذهبي و قولي لحنان إن السيدة رايس هنا.

استجابت إكرام، و أسرعت نحو غرفة أختها، فاجأتها تتفحص نفسها في المراة، شفتاها منفجرتان، وعيناها متورمة.

السيدة رايس هنا.

قولي لها بأني خرجت.

يقول نبيل بأن الكذابين سيعلقون من ألسنتهم فوق جمر وهكذا يتم شيهم في جهنم ليظلوا إلى اليوم الأخر.

وضعت حنان المرآة و نهضت رغما عنها.

أرسلت السيدة رايس بزفرة ارتياح انكسرت في صدرها بوضوح قائلة:

يا إلهي !!

دعت حنان ضيفتها للدخول ثم قادتها إلى صالون الاستقبال و أشارت عليها بأريكة.

بحيرة قالت السيدة رايس:

عزيزتي، ماذا جرى لك؟...

أرسلت حنان شقيقتها الصغيرة لإحضار القهوة قبل أن تنطلق في الحديث بنبرة منزعجة:

لماذا أتيت؟

ليس من عادتك التغيب بدون إخطارنا في المكتب، بدأنا نقلق لذلك، طلب مني المدير المجيء إليك لمعرفة السبب

كل شيء انتهى.

ما الذي انتهى؟

المكتب. أنت حنان و في الحنجرة تيبست طوبة.

أفصحي؟

.. مع أن الأمر واضح: لن أعود أبدا إلى العمل.

هذا فهمته ، لكن ما السبب؟ أبسبب رضوان؟ إنه يحب مشاكسة الفتيات، لكن ليست له نوايا سيئة في كل تصرفاته.

انهارت حنان على مخدة ثم شرعت في البكاء. جلست السيدة رايس بجوارها و مدت ذراعها لتطوق عنقها:

عزيزتي، ما الذي يزعجك؟

إنك تضيعين وقتك، قالت الأم و هي تدخل عليهما حاملة الصينية.

قامت السيدة رايس لتقبيل المرأة العجوز.

أنا زميلة إبنتك، يا حاجة. و بما أنها اختفت دون أن تترك أثرا منذ خمسة عشر يوما، فقد طلب مني المدير بالمجيئ للاستفسار عن وضعها... ما الذي حصل لإبنتك يا حاجة؟

ما يحدث كل يوم لجميع فتيات هذا البلد، قالت الوالدة بألم.

قطبت حنان حاجبيها، إشارة لأمها بالسكوت، هزت المرأة العجوز كتفيها، وضعت الصينية فوق مائدة مستديرة؛ وشرعت في صب القهوة في ثلاثة فناجين.

لقد دفعت كل ما أملك لأجل تعليمها، حكت الأم بخيبة، قمت بالأعمال الأشد شقاء كي تستطيع متابعة دراستها، و لما

حصلت على شهادتها و أصبحت إطارا في شركة محترمة، ها هي تنسحب.

امي...

اسكتي ، لقد ضحيت بأجمل السنوات لاجلك. اعتقد ان لا حَق لك في تخييب ظني فيك، عملك هو حليفك الوحيد، سيأتي يوم أغمض فيه عيني لأرحل و إلى الأبد، سيتزوج نبيل، و سيكون له أطفال وسيعمل كل ما في وسعه كي يستولي على المنزل، و سيبدأ في التامر لتحويل حياتك الى جحيم، متهما اياك بكل التهم الأخلاقية و ارتكاب الممارسات الشائنة، يعاملك كزائدة لينتهي به الأمر في الأخير الى طردك الى الشارع. آنذاك فقط ستندمين على المنصب هذا الذي انت مقبلة على إهماله اليوم.

أمي...

ماذا ؟ لن تمنعيني من الاحتجاج و الاستنكار.

فهمت السيدة رايس أن شيئا خطيرا، قد وقع.

شرحت لها الأم قائلة:

أخوها الوحش يضطهدها، لقد أفسد الشيوخ فكر، إنه لا يتحدث سوى عن المحرمات و انتهاك المقدسات ، في الحقيقة انه يغار منها إذ يراها تنجح حيث أخفق هو. يغار من تعليمها، من منصبها، من مرتبها، لهذا السبب يضربها، وكلما التأمت ندوب جروحها يجد مبررا ليكرر فعلته، هذه طريقته، إنها خاصة به، يسجنها، يحتجزها لمنعها من إقامة تواصل مع الرجال.

التفتت السيدة رايس نحو حنان:

أهذه هي مشكلتك؟

انها كابوسها المرعب.

ألست يائسة نوعا ما ، يا عزيزتي.؟ اتريدين إقناعنا بأنك لا زلت تضطهدين حتى في مثل عمرك هذا.

لقد أقسم أن يذبحني. قالت حنان ذلك بانفجار.

و بعد؟ هذا ما يردده الجميع، إننا لسنا قطيع ماشية، تذكري ذلك.

إنه متوحش، قادر على ارتكاب كل شيء.

مد ت السيدة رايس يدها إلى وجه حنان المرضض، ثم بحركة رفعت لها ذقنها:

هراء !! لقد مررت من هذا الطريق ككل النساء، لقد ترنحت تحت اللكمات، تقوست تحت الإنذارات، ارتعدت دون أن أعرف لماذا. يحدث مرات أن لا أغمض عينا طوال الليل لمجرد شعوري بأنني قد أكون ارتكبت هفوة تافهة. لكن المطاف انتهى بي إلى الصمود. تحملت مسؤولياتي. النتيجة: أنا حرة ، ما أملكه لم احصل عليه بفضل احد غيري. لقد رسمت حياتي بنفسي. أذهب حيثما أريد. مرفوعة الرأس، تزوجت بالرجل الذي أحببت. لقد ولى زمن دواب الخدمة. لن يعيدوا الكرة ثانية. نتصدى لهم، لن ندعهم يتصرفوا فينا أبدا، يجب أن تكون لنا فكرة واحدة حاسمة: الاعتراض عليهم قائلين لهم لن تدوسوا على أرجلنا: " يكفي !!".

أرى بأنك لا تعرفين نبيلا.

" نبيل" ، " عنترة"، " آية الله" أو " ذو اللحية الزرقاء" لا أبالي بكل ذلك، إصحي من سباتك، يا عزيزتي. إننا نعيش زمن الكمبيوتر، السكانير و الذكاء الإصطناعي. مسابير فضائية هي في الإنصات لما يجري في الكون. و أنت لا زلت رهينة حماقات معتوه. أنت إطار يا إلهي تستحقين كل تقدير، لقد برهنت على ما أنت قادرة على فعله، على أنك حرة، على كل حال إنها المناسبة: تقوم جمعية النساء يوم الخميس بتنظيم

مسيرة تنديدا بالممارسات الذكورية المتخلفة و ضد الابتزازات المتطرفة. إنظمي إلينا ، سنقوم باعلاء صوتنا في وجه المجتمع.

انت مجنونة.

لا ، بل مجرد امرأة كسرت قيودها.

قلت: كفى ا أريد أن أكون أنا، لا أخجل من صراحتي و لا من استدارتي، أتحمل نفسي كما هي أنا: كائن بأتم معنى الكلمة، بكل استعارة وبقلب مليء بالطموحات و بملايين الرغبات.

انكمشت حنان على نفسها.

تركت والدتها الغرفة متمتمة باستياء.

إذهبي... بكت حنان، كان كلامها موجها لزميلتها.

لا فائدة من كل هذا النقاش...

"ستذهبين" و فورا، أنت لا تدركين ما تقولينه. لقد حالفك الحظ، أما انا فلا، لم أتنازل أبدا، ولم يحصل لي ذلك أبدا.

الانهزام، هذا ما يريدون حشو عقلك به. أخرجي اظفارك، اجعلي منها مخالب، افقئي عيونهم بها، عضي، إضربي، أصرخي، إذا كانت ضرباتهم شرسة و قوية، قاومي بقلبك. تذكري المرات التي انحنيت فيها خانعة طيعة، امراة منحطة، كيف اصبحت يداك الجميلتان من فعل الغسيل، أنت امرأة يا حنان. هل تدركين ما يعنيه ذلك؟ امرأة. انها كل شيء: العشيقة، الأخت، المشيرة، حرارة الأرض، والأم، أنسيت ذلك؟ الام التي *حملت* الرجل في بطنها، التي أنجبته للحياة في الألم، أرضعته من صدرها، الحنان، الثقة، التي ساعدته في لعثماته وفي خطواته الأولى... أنت، الأم العظيمة، الابتسامة الأولى، الكلمة الأولى، *الحب الأول* للرجل.

عاد نبيل هائجا، كان خارجا عن طوقه، زفراته و تنهداته ترتطم بالجدران ، نظرته الموجهة " لاكرام" المحاصرة في الرواق كانت وحشية.

أين هي؟ سأل ماسكا أمه من ذراعها.

اللعنة على اليوم الذي ولدت فيه، أيها التعيس. كيف تتجرا على رفع يدك على أمك بهذه الطريقة؟

دفعها نبيل من طريقه، فكاه ترحيان وسط وجه حاقد حين شاهد حجاب حنان مكوم في ركن.

اذهبي إلى مسيرة النساء، أليس كذلك؟ إني متاكد أنها ذهبت لاستعراض نفسها صحبة تلك المتهتكات.

من خلال نظرة أمه المائل، المتهرب، فهم نبيل أن ما رآه هو الصواب. زمجر عاليا ثم خرج إلى الشارع. تفرق الأطفال الذين يمرحون إذ مر من أمامهم، مناخيره كانت ترتجف من الغضب، بحث عن سيارة صديق أو سيارة أجرة، فركب خلف سانق دراجة نارية وأمره بأن يوصله إلى ساحة الشهداء.

حوالي مائة امرأة، كن حاملات لافتات مشرعة في السماء، تحت أنظار المتسكعين الساخرة، اندفع نبيل نحو الحشد النسوي، مزاحما، مكاتفا، دافعا بوحشية كي يشق له طريقا . إلى صدغيه يزعق صوت: الشيطانة ا تتحداك ؟ هذه المسترجلة تجرأت على أن تواجه سلطتك... انسل بين جمع النساء كنسمة، بحث، بحث.. فجأة تخيل نفسه مسلحا بقاذف-شهب و هو يرجم هاته المجموعة من المسترجلات، والساحرات... عاهرات، عاهرات... أسقط سيدة أرضا، زاحم ممرضات، حاشا كل شيء من حوله محدثا في البداية ضجة، ومن بين عنقود المتظاهرات لمحها؛ كانت حنان هناك، واقفة أمامه مصبوبة في تنورتها التي يكرهها، رأته قادما في اتجاهها... أدخل يده في جيب قميصه، مسك بقوة على

السكين... قذرة، قذرة... ضربها تحت الثدي، هناك حيث تختبىء النفس الضالة، ثم طعنة على الجنب، ثم اخرى على البطن...

انطفأ النهار، لم تسعد به حنان، كان قد رحل في دوامة مضببة مغبشة، مصقعة و دون صدى. ناداها صوت، أكان أحد المعجبين، أو أنها هي التي كانت تناجي نفسها؟ لم يعد لذلك أهمية، تأرجحت الساحة في نهر من الظلمات. هوت حنان كصخرة في بركة. كانت تموت.. تموت ؟ اعاشت حقا، هل قبلت شفتي حبيب، هل ارتجفت انتعاشا لملامسة عاشق؟ و في محاولة وثبة أخيرة، رجعت إلى ماضيها المنيع كخيط من ضياء، لتلعن البارحة: أمس المدرسة، الجامعة اللذين لم يفيدا في شيء، إن درعا من الشهادات لم يستطع منع شفرة قاتلة من تفجير الحلم مثل دمل.

ها هي عذراء تنطفئ، مثل شمعة في غرفة الأموات، كما الأيام تنطفئ حين تصلب الشمس على أبواب الليل.

9

دمرني موت حنان. :انما تخلت عني بعد أن تعلقت بها. لم أقم لها نعيا، ذاك لن يجدي نفعا بالنسبة لي لم تكن سوى أمنية، لم تتحقق أبدا. لقد بدأت التعود على ذلك.

كان بي غضب، استوطنني الإرهاق خاصة حين أدركت إلى أي حد تستطيع فبه السخافة السيطرة على العقليات مع أنني لا أتذكر إني أبديت اتجاه نبيل شعورا بالكراهية. لم يكن في رأيي جديرا بذلك. حركاته و تصرفاته كانت توحي بحالة من الجنون. لقد أصابني في جسدي دون أن يتمكن من مس فكري. بقيت واع. تمكنت من التغلب على الألم بفلسفة. زيادة على اختفاء من كنت أتمناها شريكة لحياتي، كنت مقتنعا بأن هذا الوضع لم يكن مجرد صدفة، بل هو علامة الهية أرادت السماء أن تختبرني من خلالها و بها.

لم أحضر حتى مراسيم الجنازة.

يومها، إلتزمت منزلي و صليت لها، لحنان.

بالتأكيد، يحدث لي هذا مرات، أن أثور ضد القدر الذي أفسد كل أحلامي و رغباتي بصورة دنيئة و نادرة الحدوث. ولكنني و بصفتي مؤمنا صالحا، مؤمن و مقتنع بذلك، ومتحكم في أهواء نفسي. كنت كئيبا من أجل تلك الفتاة المشرقة الهادئة

و المتواضعة. كنت أقطع الطريق أمام نفسي في محاولتها البحث عن تفسيرات أخرى بإمكانها أن توقع بي، لتقذف بي في متاهة تشبه نسيج العنكبوت. لم أكن قادرا على القيام بشيء، أي شيء. أصبحت ضعيفا، هشا نظرا لخيبات الأمل المتلاحقة ضد أحلامي. اعتبرت نفسي شخصا تافها بحجم ذبابة صغيرة في قبضة حرباء.. كان لا بد علي، أولا بأول، أن اعيد التحكم في نفسي، تنازلت عن شقتي ذات الغرفتين في "سوق الجمعة". و بعد تفكير ناضج و عميق، قررت أن لا أتزوج تحسبا مني للعاصفة التي تتهيأ لجرف البلاد في حمولة فيضانات كاسحة و عامة.

بمجرد توقيف نبيل، أضحت الحاجة إلى ملاقاة المناضلين الإسلاميين و التظاهر بالإهتمام بالدروس التي ألقيت علينا من طرف المدرسين، كل ذلك لم يعد يهمني، بمجرد أداء الصلاة، كنت أول من يغادر المسجد. منزعجا، أدور شوارع الحي، اليدان خلف الظهر و الشفتان ثقيلتان.

كان من المستحيل العثور على شخص في القصبة لتعزيتك، دون أن يشحنك فكريا. كانوا يستغلون و يتمادون في توظيف الحالات النفسية التي تعيشها مجموعة من " التائهين"، الضالين إذ يستغلون ضعفهم ليضموهم إلى صفوف الحركة الإسلامية. في هذه الفترة، كل واحد كان يكشف عن موهبة الزعيم الروحي. أئمة شباب، كانوا يشحذون العقليات و يعجنونها كما يحلو لهم ذلك. إنهم يتواجدون في كل مكان في: المقاهي، المدارس، المستوصفات، مداخل العمارات ملاحقين و مصطادين مشاعر الناس غازين الضمائر. لقد بات من المستحيل التعامل مع أي حدث أو مصيبة بترو. تأفف صغير يكفي ليجعلك محوطا بالتعاطف، قبل تسليمك، و دون سابق إنذار، لحرفيي

الإنقاذ . لا ألفة و لا حميمية الذات. من الافضل أن يغلق الانسان الشبابيك على نفسه، وأن يعتصم في غرفته، لم نعد ابدا في مأمن. أصبحت الحياة لا تطاق.

للتخلص من هذه التوترات، كنت أذهب عند دحمان، في بيته وسط المدينة. هناك على الرغم من مظاهر اللباس الاسلامي الطاغية، إلا أن صوت الرعب كان أقل.. الناس منشغلون بهمومهم، الواجهات متوهجة على الأرصفة، وسطوح المقاهي غاصة بالزبائن، من هنا وهناك تنطلق الدعابات و الضحكات التي تبدو المبالغة فيها سعيا لإبعاد مشاعر الاضطراب و القلق. ليس مهما ، كان كافيا لدحمان رد باب بيته ليجد نفسه منقطعا عن الشارع. كانت شقته واسعة و أنيقة، مزينة بألواح زيتية جميلة، أرائك منفوخة، و ستائر حريرية. لم يكن ينقص دحمان أي شيء ، كان كافيا و ميسور الحال، له طفلة صغيرة محبوبة و زوجة ودودة ذات ابتسامة تشع كثلوج " تيكجدة". كان يستقبلني بفرح، يستبقيني باستمرار للعشاء. ولكن و بمرور الزمن، شعرت و كأنني افسد عليهم سعادتهم ببكائياتي و شكاواي الغزيرة. لم أكن لأتوقف عن إظهار التذمر و الشكوى دون أن أعرف سبب ذلك. عندها بدأت مناسبات و فرص زياراتي تتباعد، حتى جاء يوم لم أعد لأطأ بيتهم. في الحقيقة كنت غيورا، غيورا من النعيم الذي فيه يعيشون، و من السعادة التي تغمرهم بعيدا عن كل النابحين والصارخين المهووسين بحس الإنتقام، كانوا بعيدين عن نظرات الحقد و الغضب، كنت غيورا من الحظ السعيد الذي ينعم فيه صديق الطفولة. لقد انطلق في حياته من الصفر و ها هو قد وصل إلى مقام جيد. كنت غيورا من جمال زوجته التي إضافة إلى ذلك كانت تدرس علم النفس في الجامعة، كنت غيورا من حياتهم الدافئة... كانت غيرتي هاته

تكويني و تثير الاشمئزاز من حالي حين أعود إلى بيتنا فيلقاني أبي و هو في حالة من التوتر و الغضب ، مسمرا في زاوية شبيها برقية، متصيدا أتفه الأشياء لينفجر غاضبا ضد الدنيا. كنت أكرهه، أكره أسنانه الاصطناعية المتعفنة المنقوعة في كأسها. سئمت رائحة المريض بالوهم فيه. كرهت الكوخ الحقير الذي نسكنه والذي تختنق فيه أخواتي، حيث الفقر لا يشجع الخطاب للمجيء لطلب أيديهن، على الرغم من أنهن كن يتمتعن بسمعة طيبة في ما يخص امكانيتهن في القيام بالخدمات المنزلية، و كذا ملامحن الرقيقة. كنت أكره غرفتي الفيرة الحقيرة المماثلة في ذلك لنفسي، أكره الوجبات البنيسة التي كانت ترتجلها أمي، كنت أكره ابتسامتها المحملة بالإعتذار على عدم تمكنها من تقديم شيء آخر، كنت أقنط من نظرتها الحزينة التي تجتاحني أكثر فأكثر كلما سقطت فوقي...

لم أعد قادرا على التحمل.

ما يحدث في الخارج كان أسوأ. تجمعات الإسلاميين طالت، لقد شغلوا كل الساحات و المعابد و المساحات الخضراء القليلة، كانوا يعترضون سبل المارة، يثيرون ويهيجون قوات الأمن ، عنيفين كانوا، اللحية مشوكة، حدقات نارية. الشوارع مغلقة، حركة المرور ممنوعة فيها. السائقون يتعرضون للشتم و للخض مرات. كانت عناصر الميليشيلت مندمجة في الجو بانفعال، كل شيء كان كفيلا بإثارة غضبهم و حنقهم، الويل لمن أبدى امتعاضا. الفتيات غير المتحجبات كن يتعرضن للاعتداءات من قبل أطفال مدفوعين من قبل الكبار، يقذفوهن بالحجارة، يرشوهن بالماء القذر، ويرموهن بكلمات نابية تصطفق في فم الطفل كالكفرات. يسجلون على الجدران العارية المقشرة كتابات و شعارات تدعو إلى الحرب

المعلنة... الدعوة إلى التجنيد حلت محل الخطب الدينية، المناوشات والصدامات محل التخويف و الترهيب. بين مسيرتي احتجاج، يعيد حادث متفرقات الوضع الى نصابه: سقوط أولى ضحايا الإرهاب الإسلامي: عاهرة، سكير، منزل " مشبوه". العدد ليس كافيا لإعلان الحداد الوطني. لكنه كان كافيا لفرض حالة تأمل في الوضع، فيما يجري. يتموقع الخوف بالتدريج. إهمال كبير، ذاك هو احتجاج اللائكيين. لا تنازل و لا اتفاق، يرد المتطرفون الإسلاميون.

كما كان متوقعا، هاهي الزوائد و الإنشقاقات تظهر في حركة الفيس: جماعة " التكفير و الهجرة" هي الجناح الأكثر راديكالية في الحركة، و الذي صنع لنفسه سمعة سيئة، زبانيته كانوا يتسللون داخل الأوساط الإجتماعية الفقيرة ليجندوا في صفوفهم عناصر من هؤلاء المقهورين و المحرومين الذين يؤثرون بواسطة حماسهم و إصرارهم العنيد. إن لهم ، وفي كل مكان الملامح نفسها: حاجب أخفض من الفكر، رأس حليق، نظر زائغ بلا تعبير، لحية غير مهذبة ، غضوبون، حنقون، عنيفون إلى أقصى حد. كانوا يتجمعون في الليل ليتدربوا، في الساحات الخالية أو في الغابة. تطول الألسنة، تندلق، كان الحديث يدور حول السيوف، السواطير و اسلحة الحرب و السرايا المظلمة و الفضائح، وفجاة مثل ساطور سقط سيف " دا مخكيس" و اعتبر العصيان المدني خروجا عن القانون، والقي القبض على كل من الشيخين: عباسي مدني وعلي بلحاج، ورمي بهما في السجن، و تبين للتماثيل العملاقة، أقدامها من غضار، و أن لا رجوع في ذلك.

بعد تجربة استعمال القوة من قبل السلطة استيقظت القصبة مصروعة عاجزة عن فهم حالها. كانت المساجد صامتة، الشوارع مصدومة هلعة، بدا المناضلون مرتبكين

وتائهين في الضباب، حيارى غير مصدقين ما حدث امام عيونهم، متأهبين للإفلات عند سماع أية صفارة إنذار.

و مع ذلك فإن الطاقة المستوحاة من حالات اليأس تحيي القضايا المقموعة. و بالرغم من ابعاد و تهميش القائدين الإسلاميين فقد استدرك ، و بسرعة، إلمجلس الأمر و اعاد ترتيب بيت الحزب. وظهر، على الساحة السياسية، قياديون جدد، و بسرعة أيضا تأكد ان مفتين-متربصين شباب اكثر فعالية من أساتذتهم. و فتح مناضلو الإسلام أبواب حجرهم من جديد، و أخرجوا مكبرات الصوت وبسطوا ارشيفهم. و لم يبد في الإلتزام أي تهاون أو تعب، و بدىء بقراءة أخطاء الماضي حتى يتفادى السقوط فيها من جديد معتمدين في ذلك خطة جديدة و أسلوب جديد أقل صخبا و أكثر اقناعا، فالكلام اللاذع والإثارة، كل هذه الممارسات و أساليب العمل المبالغ في تطرفها كانت تفزع جماهير الشعب، كل هذا تم لجمه. لقد أخطأت السلطة فكان لزاما أن تضع في صف الطواغيت المذمومين الأولياء والأمم.

من الان فصاعدا يجب أن نلعب لعبة الإنتخابات التشريعية حتى النهاية مع تفادي التعثر و السقوط الغضب والثأر. إن توقعات الرأي العام تتفق على أن النجاح حليف الفقراء و المعوزين.

فيوميا، كنت معرضا لشتى أنواع الإدعاءات، احاول قدر المستطاع أن لا أتظاهرفي شوارع القصبة. منذ ساعات الصباح الأولى أرتدي سروال دجين و حذائي الرياضي وأذهب لأسرح وانشط ساقي تارة في سوسطارة و تارة أخرى في شارع العربي بن مهيدي. بفضل المال الذي جمعته من عند ال راجا كان بإمكاني تناول شواء عند الغذاء و إو بامكاني ايضا التجول على الشاطى حيث الحياة الهنيئة

تواصل تدفقها مزدرية و غير مكترثة بمظاهر الرعب والهلع المعمم. وعلى الرغم من نهاية موسم الصيف فالشواطئ لا تزال مكتظة بالمصطافين، و قد اختفى كلية رمل الشاطئ تحت الشمسيات المنصوبة و المكدسة. كانت الفتيات لامباليات، منتشيات، متبرمات في لباس السباحة الشفاف الذي لا يكاد يميز من على أجسامهن المجمرة بأشعة الشمس. أخذت لي مكانا في باحة مقهى، أمامي كأس ليمون. مسترخيا لساعات كاملة، مستمتعا بموسيقى الراي و متاملا لمعان عرض البحر.

و هكذا التقيت بمراد بريك. الذي كدت أن لا أتعرف عليه بسبب ضخامة وجنتيه، و طبقات الشحم التي غطت عينيه و كذا لبدانته. و لكن سرعان ما استعدت ذاكرتي عند سماع ضحكته الشبيهة بقرقرة أو أزيز براد الشاي المنسي على النار. شاركني مراد بريك الغرفة في أحد الفنادق البائسة، في ضواحي المدينة، كان ذلك لمدة شهرين، أثناء تصوير فيلم " أطفال الفجر". في تلك الفترة لم يكن يملك فلسا في جيبه، كان مفلسا، جائعا، لا يتوقف عن شحذ سجائره من عمال البلاطو. كنا ممثلين في عز الشباب، يغمرنا الطموح ونيران المجد الذي كان يبدو صعب المنال. التمكن من السير على الزربية الحمراء لمهرجان " كان"، زربية النجوم. لعب مراد بريك في الفيلم دور ابن عم تائه حيث أحاول مساعدته والدفع به للرجوع إلى طريق الصواب، و لكن في النهاية ، مخدرا و ساقطا يرمي بنفسه و بأبهة تحت عجلات قاطرة. كل هذا كي يكون العبرة للكبار و الصغار على ان مصير العلاقات السيئة و الفراغ يؤديان لا محالة إلى الهلاك. وقد اعجب الجمهور بهذه الرسالة و اقتنعت الصحافة على أن هذه

هي الطريقة المثلى لتوعية و تربية الشباب و قد خصصت له احدى الصحف عمودا في صفحتها الداخلية، الأمر الذي لم أحصل عليه انا شخصيا. و بعد ذلك ، و بينما كنت بصدد ملاحقة أوهامي حول "ليبانون" كان مراد بريك يرتمي على اتفه الأدوار الثانوية في السيناريوهات، شاهدناه مفككا في مسلسل تليفزيوني مضجر، ثم في مسرحية حيث يقوم بنفض غبار كواليس المسرح، ثم في فيلم طويل عرف نجاحا نسبيا. فنال، بكل حسرة، جائزة في مهرجان سينمائي إفريقي.

لم ألتق به منذ ذلك العهد.

و بعد عناق العادة. رمى بنفسه على كرسي، و سطح براحة كفه خصلات شعره المجعد على رأسه، كان بطنه قد فوج قميصه الإستواني قليلا، طلب كريمة مثلجة، ثم بدا يسألني عن أحوالي. لم يترك سؤالا إلا و طرحه علي، قبل الشروع في الحديث عن نفسه:

انا ذاهب الى باريس، في شهر ديسمبر، لا أكتمك سرا أنه ذهاب بلا رجعة. الفضل في ذلك يرجع لأصدقاء لي طلبوا من المركز الثقافي الفرنسي مساعدتي، و استجاب هذا الاخير فقدم لي منحة تربص لتحسين طاقتي الفنية في التمثيل و ذلك بمرح محترف.

و لتعزيز قوله عرض أمام عيني كتاب جيب بعنوان (Le cid).

مساء، في غرفتي، أقف أمام المراة، أتمرن على اداء الأدوار. سيء مدهش. متأكد أنا أن مروري بالمعهد مجرد اجراء شكلي. سأعمل على خلق عدد كبير من الأصدقاء في العمل، و بعد أقل من عام، سأنال الحصة الكبرى وإلا فما الفائدة لزعيقي كل تلك الليالي أمام المراة، الى الحد الذي جعل الجيران ينزعجون فيضربون بقبضاتهم على الجدران املا في

اسكاتي. إن الجائزة التي تحصلت عليها في مهرجان وقادوقو ستفتح لي أبوابا كثيرة ، سأنعم بالمجد: سهرات، ليالي الابتهاج، ندوات صحفية، جلسات تصوير، دعوات الى بلاطوهات التليفزيونات، مال و نساء. سوف أجعلك تتدارك ما فاتك من وقت و أضعافا، أعدك بذلك، و لتثق في. هل تعلم أن السيدة سيمون فلوري قد كاتبتني؟

كيف لي أن أعلم؟

أراهن أنك لا تعرف حتى من هي السيدة فلوري. واحدة من كبار الشخصيات في فرز و توزيع الأدوار على الممثلين، مكتبها أكبر من مكتبة بلدية. انها الممر الإجباري للوصول الى المجد، لتتصور إذن أنها راسلتني وربما تكون قد حضرت لي مشاريع فنية مسبقا. إنه الإنطلاق يا نافا، لن تطا قدماي هذه المقذرة بعد اليوم، مكان حيث الورود تنبعث منها رائحة كريهة.

كان هانجا، في حالة من الحلولية، لا تهدأ يداه عن الحركة، أما الكريمة المثلجة التي أحضرها النادل فقد ذابت وساحت من على حفافي الكاس مشكلة على الطاولة بقعة حليب صغيرة. أنهكني بقهقهاته، بتساؤلاته، كان يثيرني بنصب أصبعه أمام عيني كلما سهوت أو قل انتباهي لما يقوله.

أتظن أن لي حظا في إمكانية اقناع المركز الثقافي الفرنسي؟

كاد أن يبلع لسانه فيختنق. شكل وجها مراوغا ثم أجاب:

أظن أنه قد فات الأوان.

لماذا؟

لأن فترة التسجيلات قد انتهت.

أريد أن أجرب حظي.

اشمأز، و أخفى عنقه داخل كتفيه المرتخيتين:
لا أريد أن أخيب ظنك.
سوف أخاطر.
أحذرك أن ذلك ليس بالأمر البسيط...
فقلت متوسلا:
سوف أكون مدينا لك بحياتي كلها.
إن الأمر ليس بيدي، فأنت لم تمثل إلا في فيلم واحد يا نافا، هل تملك " ملفا صحفيا" (Press book) ؟ لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لي على الرغم من أنني أملك "ملفا صحافيا"، و حاصل على الجائزة الأفريقية . لقد انتظرت سنة كاملة و جندت فيها بعض الأصدقاء للتدخل، و لجأت إلى إعطاء الرشوة للوصول إلى هدفي هذا.
عبنهم مرة أخرى أيضا. تصور نحن الإثنين معا في باريس، يسند الواحد منا الاخر... سنتعاون.
غمس مراد اخيرا ملعقته في الكريمة الذائبة لتحليته المثلجة، بكل هدوء، آخذا كل الوقت في كشط قاع الكأس. لحس شفتيه:
بصراحة، فاجأتني هنا، لقد أخذتني على عجل، لم أكن أظن بأنك ستجرني لقول كل شيء، إن إمكانياتي و مواهبي كممثل لم تكن كافية لوحدها كي أحصل على منحة التربص المسرحي، كان علي أن أدفع من جيبي.
كم؟
دفع الكأس، ثم طوي يديه بتقاطع على بطنه ، عيناه المزعجتان سحيتاني بعيدا، كان يحدق الي في صمت، ثم هز راسه بحزن.
لاتهتم لذلك يا نافا. هذا ليس أمرك، سأتكلف.
ليس لي النية في البقاء هنا للتعفن، دقيقة واحدة أخرى.

هل تريد حقا المغامرة؟

بدا متأثرا لحرصي، بدأ يبحث عن منفذ في السماء، فلم يجد ذلك. خداه كانا يرتعشان.

لنتفق حول بعض التفاصيل يا نافا. أكره هذا النوع من الإجراءات الفاشلة، و أنبهك أنني لا انتظر جزاء أيا كانت طبيعته من وراء هذه الخدمة التي أقدمها لك. فأنا فنان ، المساومات الغامضة ليست من سلوكاتي، إن الأمر مرتبط بكرامتي. و أنا أؤكد على ذلك.

لا يهمني ، الذي أريده هو تأشيرة الحظ. بكم؟

عشرون ألف دينار نقدا و ثلاثة آلاف فرنك عند موعد الإقلاع، قذف ذلك بعنف.

لم أتردد ولو لعشر ثانية في ذلك. لقد جمعت من النقود ما يكفي من عند آل راجا، و هو ما يسمح لي بالتفاوض على عمليتين أو ثلاثة من هذا القبيل.

انتبهت الآن إلى أنني لم أدفن أحلامي القديمة بعد. إن المشهد الذي رسمه لي مراد هذا اليوم، إلى ظل شمسية باهتة اللون بعثني من جديد. ها أنذا أرى نفسي، ومن اللحظة هذه، مترددا على الإستوديوهات الباريزية، متأبطا سيناريو، العينان أكبر من حجم الشاشة، بعيدا عن أزقة القصبة، بعيدا عن عفونة العزلة و الوحدة وهول البطالة. اخذت باريس تسلب عقلي. أدركت إذن أنه إذا كان علي أن أتخلى عن هذا الكرم الصادر منه فتلك نهايتي. انطلاقا من هذا اليوم لم أعد أملك سوى فكرة واحدة تسيطر علي: *السفر*. القفز في أول طائرة و الطيران *بأجنحتي الخاصة*. باعتبار أن المشكل المادي غير مطروح. لقد طلب مني مراد أن أحضر له قبل نهاية الأسبوع ملفا إداريا كاملا: طلب مكتوب بخط اليد موجه الى السيد مدير المركز الثقافي الفرنسي، مصحوبا بسيرة

ذاتية، طلب تأشيرة سفر مع جواز السفر، إضافة إلى الوثائق التقليدية العادية الأخرى : نسخة من شهادة الميلاد، اثنتا عشر صورة هوية، شهادة إقامة... الخ.

لاحقا ضرب لي مراد موعدا في " حمامات" و هو مطعم فاخر ما كان لي أن أتجرأ الدخول إليه وحدي حتى أيام الخدمة عند آل راجا.

عندما وصلت إلى المطعم، وجدت مراد قد سبقني و قد طلب وجبة و هو الآن يلتهم الصحن الرئيسي. مسح شدق فمه بطرف المنشفة ودعاني لأخذ مكان مقابل له. مددت له ظرفا يحوي الوثائق المطلوبة، اكتفى بالتأكد من وجود النقود، ثم تابع غذاءه.

أطلب شيئا.

لا، شكرا.

شواء الحمل بالفطر، شيء لذيذ.

لست جائعا، الواقع أني أعاني من نقص الشهية مذ ذاك اليوم. أنام بقلق و تضايق، و لا أفكر إلا في المنحة.

سنتعب، سنجري و نكد، لكننا سنحصل عليها، تلك المنحة الملعونة... قال لي مطمئنا.

لقد سبق لي أن حدثت شخصا متنفذا في المركز الثقافي الفرنسي.

يأكل مثل أربعة، التهم حليته و ألقى بنظرة على ساعته.

أنني متأخر، قالها و هو يهم بالوقوف و مغادرة المكان.

متى نلتقي؟

سأتصل بك.

لا تعرف أين أسكن.

سأستفسر.

من الأفضل أن تسجل رقم هاتفي.

كلف نفسه عناء الجلوس ثانية، ثم كتب بيد قلقة رقم هاتف بيتنا على الظرف الذي سلمته اياه.

ايتطلب الإجراء مدة طويلة؟

نافا، يا صديقي، لا تسبق الأحداث، على أية حال، التربص سيكون في شهر ديسمبر، فأمامنا فرصة شهرين.

اليس هناك مكان يمكنني العثور فيه عليك.

لتكن مرتاح البال يا خو... الان لم تعد هذه القضية مشكلتك، حين يكون هناك جديد ساهاتفك...

صافحني و اختفى ليتركني اسدد فاتورة الغذاء.

10

يكفي، قالها اب وليد غاضبا، هذا ليس مقسما هاتفيا، هل تلفن مراد؟ لم يتلفن احد، أتريد ان تخرجنا من صوابنا؟ من الصباح الى المساء دائما، القرقرة نفسها... ليس لنا الا هذا لنفعله. زد على ذلك، اضاف قائلا، و هم كأنما يرغب سحب خيوط مجمعة التليفون، وسوف أحطم جهازك القذر هذا.

مسك نافا والده من ذراعه و دفعه عرض الحائط، و اذ تحركت اليد بعنف، سمع طقطقة ذراع الشيخ. الفم ململم من الألم، الساقان مقطوعتان، لم يبق له سوى العينين للسخط. الابن جاد في موقفه، وجهه المحتقن يتبشع بتكشيرة حيوانية و صوته الغاضب يزأر:

لاتلمس أبدا هذه الآلة...

أحس الأب و كأن ذراعه قد طحن جلدها. فجأة أدرك حجم هذا اليمين المشوه، جامعا قواه ببسالة، قام قاذفا سلسلة من اللعنات و الشتائم:

لقيط قذر ا أتعتقد أنك تخيفني، قاذورة، ذرية فاسدة، أتتجرأ على رفع يدك علي. أنت يا بولتي. أنا شيخ لكنني لم أنته بعد، لا اسمح لك لكي تفرض أهواءك المطلقة علينا ما دمت تحت سقف بيتي. أنت لست أكثر من مخاطي مخنن. اتعتقد أنك

صرت كبيرا؟! يلزمني مجهر لأحدد مكانك، يا ابن الكلب، انني العنك.

ادرك نافا خطورة فعلته، أرخى ذراع أبيه، تراجع الى الوراء، دون أن يعرف كيف وصلت به الأمور الى هذا الحد.

رفض الأب تدليك معصمه المجروح. لقد انهارت الفية من المقدسات. هل انها علامة القيامة؟ لقد قيل، و احتفظ بذلك في ذاكرة القرون: ان اليوم الذي يرفع فيه الابن يده على والده انذاك يبدأ حسم الحساب الأخير، اقتراب الساعة. احمر كعود الصليب، بصق على الأرض، و تارجح نحو فراشه متمنيا الموت قبل أن يصل اليه.

متيبسات، في ركن من أركان الغرفة، كانت البنات الخمسة تشددن رؤوسهن بين أيديهن. كانت الصغرى نورة تحدق في أخيها منتهكة الحشمة. لقد صار وجه أم وليد كسفرجلة ذابلة. ما كانت لتصدق نفسها أو لتقبل ما رأته يحدث، هنا، في بيتـها .

كنت أتوقع أي شيء، قالت بصوت مرتعش، إلا هذا..

دار نافا حول نفسه، استند الى جدار، و أطلق صرخة حيوان متوحش، ثم خرج إلى الشارع.

طلبت الأم من بناتها أن تعدن إلى غرفتهن، تمتمت صلاة واتجهت نحو الأب المهان.

ابقي حيث أنت، صرخ في وجهها، أنت لست افضل منه، إن أما محترمة لا يمكن أن تلد مثل هذا الإبن الفضلة. الآن، أعرف أنك كنت دائما تكذبين علي.

لقد كان لدى نافا أحساس بأنه قد أصبح مجنونا. ها هي نهاية ديسمبر، و ليس هناك أي أثر لمراد بريك. كلما رن جرس الهاتف، كان يقفز إلى السقف قبل أن يرد بفضاضة حين يدرك أن المتحدث ليس بصوت الكوميدي مراد بريك.

اخواته كن يخشين ساعة عودته الى البيت. اذا لم تكن هناك رسالة له، يشتمهن، و أحيانا يقسو عليهن. حتى اصبحن وبمجرد ان يستمعن وقع خطواته على مسطحة الدرج تجرين للاحتماء في غرفتهن.

كان نافا يمضي معظم وقته في سيارات الاجرة والحافلات، متأرجحا من طرف المدينة الى الطرف الاخر، باحثا عن اشخاص قدامى أدوا أدوارا ثانوية هامشية في فيلم وقد يساعدونه في العثور على مراد بريك. لقد كانت ردودهم الجاهلة حادة كعضة او كلسعة. عاد مرات عديدة الى مطعم " الحمامات"، كما قصد المطار مرات عدة: لقد تبخر مراد.

ليلا، عندما يعود الى المنزل خائبا منهارا، كان لا يستطيع التوقف عن الدمدمة حتى الصباح. لقد نحل جسمه، أهمل هندامه، لحية متوحشة نافت عنها عينان كامدتان، تعطيه هيئة مخبول.

كلما تأخر ظهور مراد بريك أكثر، كلما ازداد حلم وليد في الذهاب و في السفر. اصبحت باريس فكرة راسخة، استقرت في أعماق ذاته، و سكنته كلية.

لقد فاجأه خبر الإعلان عن توقيف المسار الإنتخابي في مكتب بالمركز الثقافي الفرنسي.

أبعدت السكرتيرة ذراعيها متأسفة:

لم نمنح أية منحة باسم مراد بريك، يا سيدي.

هذا غير معقول، سيدتي.

لقد تأكدنا ، سجل المعلومات عندنا قطعي و نهائي.

كتم نافا سبة.

تاه في المدينة، مثل شبح.

لم يكن يرى الناس الذين كانوا يتسارعون من حوله، و لا دبابات العساكر التي اقتحمت الشوارع خلال الليل.

لن يكون هناك دور ثان للاقتراع.
لقد تم إلغاء التشريعيات.
في رد على التجمعات الإسلامية، قوات الامن تنزل الشوارع، حملات اعتقال، مطاردات.
كانت الجزائر تغرق جسدا و روحا في ذلك الذي لا يمكن اعادة اصلاحه.
في لحظة خاطفة، اختلط صراخ و غضب المتطرفين الإسلاميين بصخب صفارات الإنذار. سيارات الدرك تجوب مقاطعة الشيوخ، تدنس مقدساتهم، كانت الابواب محطمة.
في ساعات غير متوقعة، يتم ايقاظ العائلات في فزع. حاولت أيدي النساء إنقاذ أب، أخ، صهر، دون جدوى. لقد وضعت الأغلال كل التوسلات جانبا. لقد وعد الشيوخ بالعودة، بطريقة او باخرى، عزموا على الانتقام للإهانة. منهم من فارق أهله مرفوع الرأس و بتألق و ابتسامة، متيقنا أن الغد سيمنحهم الحق، و بأن الحكم التعسفي سيعرف كيف يجعل صفوفهم أكثر تلاحما، أخرون تشبثوا بأذرعة أوليائهم وذويهم مقسمين على حلق اللحية من أساسها حتى لا تنمو أبدا.
كانت الهراوات تردع هؤلاء و أولئك.
الشاحنات الخلوية تختفي في الظلام.
مستندا إلى نافذة بلكون، كان رشيد دراق يراقب قوات مكافحة الشغب CRS و هي تشحن مجموعات من المراهقين عبر شوارع الحي الرئيسية. على قارعة الطريق، دواليب من المطاط تحترق، الدخان يغطي المباني في ستار ضارب السواد، كان صدى رشقات الطلقات يرتطم بالجدران، مندمجا في صرخات الغضب كأفعوان محتد. كان المتظاهرون يسارعون للالتقاط القنابل المسيلة للدموع قبل ان تلوث

الهواء، فيلقون بها ثانية على رجال البوليس أو يغرقونها في دلاء الماء. كانت قضبان الحديد تنهال على السيارات ، تفتت زجاج النوافذ، تحطم هياكل السيارات، صعاليك ، سوقيون يهجمون على واجهة الدكاكين يدمرونها يلجون المحلات ثم يختلسون ما فيها.

انقضت دورية من رجال البوليس على باحة عامة ثم تراجعت بسرعة تحت وابل طوفاني من الحجارة، مصابا في راسه، سقط شرطي متثاقلا عند قدم مصباح عمومي. انقض عليه رجلان ملتحيان، جرداه من سلاحه ثم غابوا في الغموض.

تقدمت سيارة أمن بخفية في زاوية شارع، ذات وقاء ريح متشظ، و دواليب منفوشة. سقطت فوقها قنبلة كوكتيل مولوتوف، اندلعت النار في السيارة التي انقذفت منها مشعلة انسان صارخ. بعض رجال الشرطة تحدوا القذائف لإنقاذه.

بعيدا، جاء موكب عساكري للنجدة، و انسحب الحشد إلى اعالي الحي.

و من جديد، سمعت المسدسات الرشاشة، طلقات متقطعة ثم مستمرة...

كيف لا يكون محزنا، تنهد السينيماني، ساحبا يديه من جيبه.

دق نافا وليد أصابعه متأملا الخزانة المقابلة له. كان مكتب رشيد ضيقا، فقط، عبارة عن خلوة كريهة الرائحة، حيث كدست أدراج حديدية متراكبة، أريكتان من جلد مدبوغ اصطناعي منزوع الشعر، طاولة محززة، و رفوف محملة بكتب السحرة ذات صفحات جافة و صلبة. كانت نعال أحذيتهم مطبوعة بصماتها بجلاء فوق الأرضية الصغيرة. على الجدار كان أفيش فيلم " وقائع سنين الجمر" معلقا و قد

اصفر ، كانت كتابة الجنيريك ممحية، و لقد استعان احدهم بقلم لباد سميك ليضيف قرونا شيطانية على الوجه المكبر على صورة الأفيش.

قادما من دوار منسي في تادمييت، جاء رشيد الجزائر العاصمة في السبعينات، متطفلا على الضواحي. باحثا عن حلم صبي. ان عرض فيلم (الوصايا العشر) في الهواء الطلق ايقظ فيه الهاما فضوليا لا يقاوم. لقد اخرج للتلفزيون بعض الاشرطة قبل ذهابه الى موسكو لدراسة السينما. متحصلا على المرتبة الاولى في دفعته، عاد الى البلد يتسكع دون عمل. بما ان الميزانية المخصصة للسينما كانت تافهة، فقد تدبر امر انتاج فيلمين أو ثلاثة عن معاناة الشباب من بينها فيلم (أطفال الفجر) الذي أظهر نافا وليد. ثم : كغيره من المخرجين، تعلم انتظار من يتكرم عليه بإشارة ما. و لانه لم يتمكن ابدا من الحصول على الامكانيات اللائقة التي تعبر عن موهبته و في مستوى ذلك. كان لرشيد الفضل في اكتشاف الكثير من الشباب الممثلين ، فمنهم من تمكن من المواصلة والاستمرار في العمل الفني ليرتقي سبل النجاح و الشهرة الشائكة والوعرة إلى غاية فرنسا، لم يرجع أحد من هؤلاء لسرد محنهم و تفاصيل مسيرتهم المثيرة و الممتعة. وهناك فريق اخر أقل حظا، أصبحوا مدمنين على المخدرات و سكيرين فكان مصيرهم السقوط ، إلى القاع حيث لا يمكن إنقاذهم أو الوصول إليهم حتى بواسطة استعمال صدرة المغطسة.

لقد ترك رشيد دراق مهملا خلف مكتبه، تناول علبة سجائر فارغة ألقى بها خلفه من على كتفيه، غرس مرفقيه على مرفقة-ورق ثم ضغط بإبهاميه على صدغيه. صلعته بدات تتوسع بين شعره الطويل المشتت المبعثر. لقد شاخ. حالته تدهورت كبذلته الوحيدة، التي تعكس بشكل جلي

الانحطاط الذي وصل إليه جيل من الفنانين المفقر كي يتحول و بشكل جيد إلى تابع للسلطة.

cلا أحب هذا التصرف، قال رشيد، لا أحب مطلقا مثل هذا التصرف.

كان يقصد ما يجري بالشارع.

أما نافا فكانت له مشاغله الأخرى.

لا بد و أنكم تحتفظون بعنوانه في أرشيفاتكم.

أي عنوان تقصد؟

عنوان مراد بريك. و إلا كيف تتصرفون حين يرغبون في استدعائه؟

تذكر السينمائي الشخص المقصود و موضوع هذه المقابلة. علق " آه"، ثم قال:

لم نكن في حاجة إلى ذلك. مراد بريك يتسكع في النواحي كل صباح. و بمجرد أن أستلم سيناريوها، يقفز أمامي قبل أن يكون لي الوقت لقراءة حتى العنوان.

ليرجع لي جواز سفري، النقود لا تهمني، اريد استرجاع جواز سفري، فبدونه محكوم علي البقاء هنا.

نفخ رشيد دراق حنكيه.

ما يحزنني أكثر، هو أن أرى فنانا وقد تبدل بزاوية 180 درجة. مراد بريك، نصاب... يتحول ممثل موهوب إلى شخص بتصرفات غير لائقة و موسفة؟ هذا الأمر مخجل بالنسبة له و للسينما. هذا عيب، عيب...

يبدو أنه خدع و نصب على زملاء آخرين.

أنا على علم ...

لا بد أن أعثر عليه، هذا ضروري.

ماذا تخرف؟ انفجر السينمائي على آخره، أتشعرني بالذنب أو تريد أن تجعل مني شرطيا؟ البلاد تهوي و أنت

تاتي لازعاجي بقصتك يا مغفل. لقد خدعت ، وانتهى الأمر. فعليك ألا تاخذ سوى نفسك. أتعتقد أنك الوحيد الذي يرغب في السفر؟ إننا *جميعنا* نريد الرحيل من هذا البلد. في الخارج، تحدث أشياء غير قانونية. لقد تم عزل الرئيس. الدبابات تدمر اسفلت الطرقات. هناك عسس و مخابرات في كل مكان، إنهم موجودون حتى تحت أسرتنا. و صفارات الانذار لا تترك لنا فرصة النوم و لو لدقيقة. و أنت، و لمجرد ان خنزيرا خدعك و نصب عليك تهب عندي معتقدا نفسك و كانك مركز العالم... هذه المرة ما يحدث ليس نسخة ثانية لفيلم أحداث أكتوبر 88، تلك لم تكن سوى ضجيج صبية و سبابا. ان الحرب هنا. اننا هالكون... الآن، رجاء ، لترحل. أريد أن أبقى لوحدي.

غادر نافا مكتب رشيد دراق و هو يشعر بالضيق والغصة في الحلق. لم يكن قد حل بعد منتصف النهار ، لكنه كان يشعر و أنه يجتاز الليل. لقد أظلمت الدنيا في عينيه.

في الساحة، سيارتان تحترقان، لهيبهما المتصاعد يطال في توهجه أغصان شجرة مقطوعة. الطريق مزروع بالحجارة و بشظايا القناني و بقطع الخردة و ببقايا دواليب محروقة. على الجدران، أفيشات الإنتخابات أصبحت مزقا تصطفق أجنحتها، شبيهة بطيور سقطت في فخ منصوب بطين ممزوج بالقش.

الناس تلتزم بيوتها، متجاوزين ما آلت اليه الأحداث.

في طرف الشارع، تمر بسرعة البرق جماعة من الهاربين ، رجال الشرطة، في أعقابهم.

في البعد، تسمع إطلاق عيارات نارية، طورا بغضب شديد وطورا آخر بحذر عابر. في بعض الأماكن، كثافة الدخان كانت تغطي السماء لتغرق المنازل في ظليل مخنق. شاحنات عسكرية تشخر مسرعة في كل الاتجاهات، تنثر

حواجز أولية تنصب على عجل فوق البيطون المسلح. سيارات الإسعاف تتلاحق وسط جوقة صاخبة، تتعرج وسط العوائق لتختفي في ضباب الكوارث.

لحقت الفتنة و الهياج بنافا في منعطف ساحة، فسحبته نحو حلبة من الغليان. ناوله أحدهم قضيب حديد و اشار عليه كي يجهز على سيارة فخمة، أبوابها مشرعة.

انها، دون شك، ملك لأحد أبناء الكلب من البورجوازيين لا تتزعج.

كانت عيناه المتفجرتين تعنيان جيدا ما كان يقصده. دون تفكير او تمحص، اندفع نافا نحو السيارة و بدا يضرب بالقضيب الحديدي وكأنما مراد بريك موجود بداخلها... ثم، بعد ذلك، لا شيء. مجرد سرداب طويل من اللغط، من العواصف و من الدكنة و العتامة...

استيقظ نافا ليجد نفسه في المسلة، المعطف ممزق، دم على القميص و أغلال حول المعصمين. لقد حبس لمدة يومين في زنزانة عفنة و مقززة، صحبة شلة من الهمج الهائجين الذين لم يتوقفوا عن ترديد شعارات متطرفة إسلامية محاولين اقتلاع قضبان الشبابيك. مع اليوم الأول بحت أصواتهم ، صلوا في الليلة الأولى ولم يبدأ شعورهم بالمعاناة الا في اليوم الموالي. زوالا، أمر أحد المستخدمين نافا باللحاق به. دفعه بعنف داخل مكتب حيث كان هناك مفتش شرطة يعد قوائم أسماء من حزمة بطاقات التعريف المكدسة بجواره.

أأنت نافا وليد؟

نعم.

وضع قلمه كي يتفحصه جيدا.

أكد لي صديق بأن لا علاقة لك بهؤلاء التيوس المغيبين ، المختلين. لقد أجهدت نفسي لتصديقه. أتظن انني على خطأ؟

أشار له إلى باب الخروج:
أنت حر.
و قبل أن يخلي سبيله، ضرب بأصبعه على سجل:
اسمك مقيد هنا، إني أحذرك. أنت مشهر و معلم ، و بلغة أخرى إنك طليق بكفالة. خطأ صغير ، انزلاقة قدم و ستكون لي متعة سجنك بنفسي.
جمع نافا وليد أشياءه الشخصية و الخاصة من فوق الكونتوار ثم خرج إلى الشارع.
كانت السماء مغيمة. شمس ضعيفة تتسلل من خلال الغيوم دون أن تتمكن من دغدغة الشوارع .
نزل دحمان من سيارة. اليد على الباب، ارتجل ابتسامة المناسبة.
لم أطلب منك شيئا، قالها له نافا هائجا إذ وجده هنا.
أبوك، نعم. إن قلبه لن يستطيع المقاومة و الصبر إذا ما تماديت في ارتكاب الحماقات، متى ستعقل، أخيرا؟
عندما أتخلص من ملاحقاتك.
برهن أولا بأنك قادر على السير مستقيما.
هدد نافا صديقه بإشارة من أصبعه:
انتبه جيدا إلى ما تحاول التدخل فيه. إني قادر على تحمل الأمر لوحدي.
لن تكون مجبرا، إذا ما بقيت على القارعة.
هذا لا يعنيك. إننا لسنا على ذات السفينة. أنت في استجمام و ترف و أنا في الشقاء و الكد.
خطأ من، في رأيك؟
لا أستطيع أن أفهم ، يا دحمان. إننا لا نرى الأشياء من نفس الزاوية. أنت تصاحب و تعاشر ناس الطبقة المرفهة،

تملك شقة فاخرة، حساب بنكي، و لاهموم لك. انا، لا اريد ان اكل من هذا الخبز.

أحس دحمان بقرصة في القلب. ثم تصرف كمصالح:

تعال، سنقوم بدورة.

صعد السيارة، مال على المقعد المجاور كي يفتح باب السيارة.

استدار نافا على كعبيه ثم ابتعد.

لم يكلف دحمان نفسه تعب الجري خلفه. ان شيئا ما كان يسر له بان صديقه الدائم قد اختار طريقا اخر، و إلى غير رجعة

11

يعج مقهى البهجة بالزبائن، ضوضاؤهم غطت على اصوات الشارع. كل واحد كان يعلق على الاحداث على طريقته الخاصة، لكنهم جميعا كانوا مجمعين على شرعيتها.

الأحياء الأخرى تسوق إحساسها بنفس الهيجان المدمر، لم يكن ذلك في الحسبان. الإعتقالات و النفي تتتابع. المشادات تتعدد. لم يجد سكان حي القصبة سوى المقهى كفضاء للمقاومة بخفية.

ينزل زاوش على البهجة في حالة يرثى لها. القميص الطويل ممزق على الجنب، عكاز تحت الابط، مبرزا بفخر جمجمة معصبة بشاش مضحك مبرقع بالمطهر الأحمر.

يمارس زاوش مهنة بهلول القرية. لا لأنه يملك عقلا بسيطا ولكن لأن المنصب شاغر و أن زاوش لا يعنيه ذلك. الساقان طويلتان ونحيلتان، نصفه الأعلى قصير الظهر مقوس، هيئة طير من سلالة طويلات الساق. انه يذكرنا بمالك الحزين، حيث منه استقى لقبه: زاوش. لا احد يعرف عمره. أربعون سنة، أكثر بقليل، لا يهم؛ لا شيء يجعله في مامن من سخرية و استهزاء الاطفال. غير مرغوب فيه من قبل مجموعة القدامى، كان يجد في الشباب ما يشبه حرارة

الانسانية التي يجهد نفسه للمحافظة عليها بنوع من تفكيه الرواق. إن موقعه كمهرج يضعه في خانة الذين لا يمسون، إلى درجة انه حين يستجمع كل جرأته ليذهب طالبا يد عانس، تشعر العائلات التي يقصدها بأنها مست في قيمها وشرفها. محصن في العزوبية و التهكم، ما عاد زاوش ينتظر أي اعتبار او حتى استعادة كرامته. بالنسبة للجميع كان لا يعدو أن يكون مهزلة، و لا شيء غير ذلك. حتى محتضرا كان يثير الضحك و المرح الصاخب. عارفا بأنه لا يؤخذ أبدا على محمل الجد، لقد قرر فاختار أن يكون مضحكا حتى يتعايش مع العار.

يدور زاوش عينيه الجاحظتين على الأفراد الجالسين حوله، يحرك عكازه لكي يجلب انتباههم.

ماذا هناك أيضا؟ يقول له القهوجي موجها كلامه لزاوش، اسقطت السماء على رأسك؟

لا أدري، كنت بضواحي الحراش. إن الأمور ساخنة هناك. انها انتفاضة حقيقية. الأحجار تصفر من كل حدب وصوب. يرجم رجال قوات CRS ، و لكنهم يردون علينا بأفضل. أنا، أهلل لذلك. أفرح و أنقاد لذلك بكل أعماقي. أجري كوهج مستتقعي من خلال الدخان للبحث عن الحجارة و القذف بها على رجال الشرطة. و ها أنذا و إذ عاينت حجرين هائلين، مشعين و أملسين، شبيهين بأضحيتين، في ركن من الشارع. أنتم تظنون جيدا، أنني لم أتردد ولو لثانية. هجمت لأجمعهما... و هكذا، ايها الفتيان، لم تكونا حجرين. كانتا فردتي حذاء شرطي. على الفور، تلقيت ضربة قوية على الوجه. مع الحق، ايها القهوجي. ربما كانت السماء هي التي سقطت علي، لأنني رأيت فعلا حزمة من النجوم تتزوبع حولي.

تنفجر بعض الضحكات، ليتم على الفور قمعها من قبل صوت ضخم قادم من شخص يشبه راسبوتين و الذي انبرى امام الكونتوار.

لا يهمنا هذا. نحن في حرب، تصور. بلاهاتك، لتحتفظ بها لنفسك.

نعم، أضاف القهوجي مبالغا و معززا كلام راسبوتين، وهو يمسح كؤوسه في منزره الوسخ. لننتقل الى الامور الجادة، الان. ذلك ليس خطؤنا. لقد دفعوا بنا الى هذا الحد. ما عاد هناك شيء مضمون، من الآن فصاعدا.

على اية حال فجميع أوراق اللعبة القيت بها، شرح شاوش: جامعي يعتقد أنه أهم عقل محلي. لقد عملوا على ان يجعلوننا نعيش الويلات، و قد اخفقوا. ان غباءهم في عرض القوة و القمع هو برهان قاطع على هلعهم و رعبهم.

و هو كذلك، واصل راسبوتين، لقد فقدوا التوازن و لن نساعدهم على النهوض و القيام مرة اخرى. قريبا سنشنقهم في الساحة العمومية و نتركهم هناك حتى تسقط جلودهم على شكل قطع. و بعد ذلك نلقي بهم في المجاري لنستعملهم كمبيدات ضد الجرذان.

على طول الأيام ما عاد نافا يسمع سوى مثل هذه الأحاديث. مرات، كانت المناقشات تتسبب في تجمعات في الشارع، و أن المتدخلين كان عليهم أن يتسلقوا الطاولات كي يسيطروا على الغوغاء.

حي القصبة يهذي. إنها ترعد في أزقته، انه الليل في فكره. تراجعت الشمس عن تسليط بعض الضوء في الحي، علما أن لا شيء سيضل الغد حين ترفع القصبة نعي *انقاذها*.

إن نافا يحمل نعي مشاريعه. تلك كانت طريقته ليرأف بحزن مدينته، أن يكون متعاضدا مع ذويه. أن لا يبحث مرة

اخرى عن مراد بريك. ما عاد هذا البحر الواسع يثير رغبته ويذهب بعقله. لقد استعاد حكمة و عقلا. الصباح، يستيقظ متأخرا. بعد المسجد، متفرغا للانسياق، يجلس إلى طاولة في سطيحة مقهى و ينظر عبور الوقت.

يزحف زاوش، عكازه تحت ابطه، ساحبا بمبالغة قدمه في اتجاه طاولة فارغة لا لشيء إلا لأنها توجد غير بعيد من المراحيض.

- ما دمنا في الحرب، أيمكنني أن أحصل على فنجان قهوة مجانا؟ انا عائد من حرب مخططة. تحت ابطه، ساحبا بمبالغة قدمه في اتجاه طاولة فارغة لا لشيء إلا لأنها توجد غير بعيد من المراحيض.

ما دمنا في الحرب، أيمكنني أن أحصل على فنجان قهوة مجانا؟ أنا عائد من حرب مواجهة، هيه.

لن تحصل على أي شيء، علق القهوجي بصورة قاطعة.

انا معطوب حرب، لدي الحق في بعض المظاهر.

مؤسستنا لا تصدر مثل ذلك.

و ليكن، قال زاوش متذمرا، ليس مهما. كنت على حافة أن اصبح مصابا بالنسيان بعد الضربة على الوجه، لكن الله، انه لا ينسى. (ثم موجها حديثه إلى أحد الجالسين قربه) أمعك قطعة من سيجارة لبطل، يا صديق؟

انا لست صديقك، أيها الحقير، رد عليهم جار الطاولة. انا، انك لا تضحكني.

ظهر عمر زيري على الرصيف المقابل. أشار لنافا بحركة كي يلحق به. وضع نافا وليد قطعا نقدية إلى جانب ما استهلكه و أسرع ليلحق ب " الخير" الذي اندفع في اتجاه المنحدرات.

و إذ ابتعدا عن العيون، توقفا تحت قوس. مرر عمر زيري الأصبع تحت ياقة قميصه، طوى عنقه لكي يتيقن من أنهما لوحدهما حقا. حطته المبالغ فيها جعلت نافا في حالة من القلق.

هل أنت منزعج لشيء ما؟

أنا؟ ليحفظني الله. ما الذي دفعك لطرح مثل هذه الأشياء؟

ثم غضب، مزولا.

لا شيء. أنا في الاستماع إليك...

الامام يونس يرغب في ملاقاتك. لنلتق عقب صلاة العشاء، في مؤسستي.

وافق نافا بإشارة من رأسه، و قد ترك ذلك في صدره خفقانا خفيفا.

أيمكنني أن أعرف لماذا؟

أليست لك ثقة؟

لا أقصد ذلك... و لكن، فقط لأحضر نفسي لذلك

تفحصه عمر للحظة، العين غامضة:

الساعة التاسعة و النصف مساء بالتدقيق، في موسستي.

سأكون هناك.

و إلا كيف ا حسنا، الآن انتظر حتى أبتعد ثم بعد ذلك يمكنك العودة على أعقابك.

جلس جلسة زاهد وسط لحاف، كان الإمام يونس يتامل. كانت هيئته مهابة. و كآبة عظمى تثقل كاهليه. من خلفه، كان عمر زيري يعقق مسبحة، ذقنه داخل في عنقه، عيناه منخفضتان. و ربما ناعستان. وحده حسان – الأفغاني الذي فقد ذراعا في بيشاور و هو يتدرب على صناعة المتفجرات- يتفحص وجوه الخمسة-عشر بطالا من الحي الذين استدعاهم

الامام إلى الاجتماع، جلس نافا وليد في وسط الحاضرين، كان منتبها إلى صلوات و دعوات الشيخ. من حوله، كان المؤمنون الآخرون ينتظرون الإفصاح عن فحوى الاجتماع، أرجلهم متصالبة، و أيديهم مضطربة فوق الركب.

أخيرا، رفع الإمام يونس رأسه، و عالج بنظره أتباعه، وبصوت مختنق، ينم عن عناء عميق، تلا اية قرآنية لافتتاح الجلسة ثم قال:

كيف حال أبيك، يا علي؟

إنه بخير، يا شيخ.

لقد سمعت بأنه أدخل المستشفى، هذا الأسبوع.

إن ذلك بسبب ضرورة جهاز تصفية الجهاز الكلوي، يا شيخ، لن يستطيع أبدا أن يتجاوزه.

يا له من أمر مؤلم. و أنت يا نجيب، كيف حال جدتك؟

كالعادة يا شيخ، إنها ما تزال متشبثة بالحياة، و لكن دون كبير اعتقاد في ذلك.

إنها امرأة تقية، و إني أدعو لها دائما. و أنت يا فاروق، نقل إلي بأن زوجتك تعاني.

إجهاض ، يا شيخ. أنت تعلم كيف هي حياتنا في بيت صغير مع الاثنتي عشر شخصا، لا عمل لدي والمنحة البئيسة التي يتلقاها الشيخ لا تزيد الأمور سوى تعقيدا...

أنا على علم بذلك و أشفق و أرثي لحالكم.

تنهد الإمام يونس. و غشيت نظره مسحة حزن وانحفرت أكثر أسارير جبهتهن ثم قال:

لقد لجأنا إليكم، و دعوناكم لأننا نعرف جيدا ما تكابدونه من عناء يوميا... و ما تجهلونه ، هو أنكم محظوظون في الرجوع إلى ذويكم كل مساء. أنتم عند أسرة مرضاكم تساعدونهم على تحمل العناء و الألم...بينما إخوان لنا ، كانوا

منذ فترة لا تزيد عن بضعة شهور يونسوننا بوجودهم وبحضورهم، هاهم الان يقضون الآن لياليهم ينتظرون بفارغ الصبر رؤية ذويهم و أنهم قلقون عليهم ، قلق يصل حتى نومهم. هناك، في مكان ما من الصحراء، محتجزين في معسكرات اعتقال، معزولين، مقطوعين عن العالم، تحت رحمة جلاديهم الأنذال، و إنهم ليتساءلون فيما اذا كنا قد نسيناهم. لقد تركوا لنا آباء و أمهات في حالة من العوز، زوجات قلقات، و أطفال ضعفاء لا من يحميهم. .. نحن لن ننساهم، و ليس لنا الحق في نسيانهم... مباشرة بعد بداية حملة الاعتقالات و الإبعاد، وضعت الجبهة الإسلامية برنامجا للتكفل بهاته العائلات كما أنها أسست صندوقا لدعمهم ومساعدتهم و لكن للأسف فإن التبرعات و الهبات المالية وكرم المتعاطفين و المؤيدين لم تعد كافية، إنه لبؤس كبير منتشر، وإن التضخم السريع لا يسهل لنا الأمور. هكذا، فإن المجلس اقترح حلولا جديدة للتغلب على الأزمة. إن هناك محلات ، مقاهي، مصانع حرفية و محلات تجارية أخرى هي ملك للمبعدين المعتقلين سيعاد فتحها من جديد، و لقد فكرنا فيكم لأجل الإشراف عليها و إدارتها، لقد اخترناكم لأمانتكم أولا و لأنكم أيضا بحاجة إلى عمل لإعالة أهاليكم. و سيشرح لكم الأخ عمر زيري ما هو مطلوب منكم و تفاصيل المهمة التي ستوكل إليكم. لا داعي للقول مرة أخرى لكم نحن في حاجة إليكم و كم نعتمد على حماسكم وعلى إخلاصكم. إن عائلات *غانبينا* تعرف صعوبات جمة، و على كل حال فقد اكتشفتم و شاهدتم ذاك بأعينكم، لقد آن الأوان لتدارك ذلك.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، دعا عمر زيري نافا ليأخذ مكانا له بجواره في سيارة.

نافا، سيارة الأجرة هاته هي لك، لقد أخرجتها للتو من عند الميكانيكي بعد أن أجرى لها المعاينة الكاملة و العامة، إنها جاهزة للعمل. ها هي الأوراق الخاصة بها. كل شيء مرتب. و لا تنقصها قطعة واحدة. التصليحات و الوقود على حسابنا، اما اجرك فانه سيقتطع من الدخل الأسبوعي. نوقف حساباتنا كل يوم جمعة، عند منتصف النهار. الآن ، هيا إلى العمل ، و الله يشهد على ما نقوم به.

اندفع نافا وليد جسدا و روحا في عمله الجديد. كان واعيا مسؤوليته و دوره. إنه يساهم في مساعدة العائلات التي تعاني من جراء الإعتقالات و المنافي و ليس ذلك بالأمر الهين مطلقا. كان فخورا، متأثرا و عازما على الكد حتى يكون في المستوى. لقد بدأ بتوزيع وقته توزيعا دقيقا، إذ كان يقدر عناء تلك الأيام التي قضاها دون عمل، في الوقت الذي يبذل إخوان له *نزهاء* جهودا مضنية على كل الجبهات، و كان لابد من استدراك كل ذلك. كان ينهض عند الساعة الخامسة صباحا، يبدأ بمسح و تلميع هيكل سيارة الأجرة الخارجي خاصة، إزالة غبار المقاعد و الأرضية، على الساعة السادسة، يبدأ عمله. على الساعة الواحدة زوالا يتوقف لمدة ثلاثين دقيقة لتناول الغذاء. كان لا يرجع إلى منزله إلا في وقت متأخر من الليل.

كل جمعة، منتصف النهار، يذهب نافا ليودع المحصول لدى عمر زيري. كان هذا الأخير يدون الحسابات في سجل، يوقع المخالصات و يمنح نافا حصته بقدرما جمع من مال.

إنك لنشط جدا، تحسن التصرف، قال له عمر مهنئا، و إن الإمام يونس جد راض على مردودك. إذا كانت لديك أية

مشاكل مالية، لا تتحرج في عرضها علي. لقد تلقينا تعليمات بهذا الشأن. علينا الحفاظ على عمالنا من كل محاولات الغش.

لم يستسغ نافا إطلاقا مثل هذا النوع من التلميحات. إلا أن عمر كان معروفا بفضاضته . فكان عليه أن يتقبل منه ذلك.

مرت الأشهر الأولى بسلام، تزايدت المداخيل. اكتسب نافا وبسرعة سمعة طيبة. مرات كانت بعض المكافئات الإضافية ترفع من أجره. الآن بعد ما أصبح يعمل كي يضمن حياة كريمة ومقبولة للعائلات *المشتتة* فإنه لا يرى مانعا من الانتباه إلى عائلته. لقد تجند أكثر، و ليس دون افتخار و عزة اذ لاحظ الروائح الطيبة المشهية تعبق من طنجرة العائلة.

في الوقت نفسه، تزوجت أختاه الكبيرتان، إحداهما بتاجر والأخرى بمعلم، و للمرة الأولى تمتع البيت بفسحة و زال الضغط وبدا أحسن و أوسع. بمناسبة عاشوراء، اهدى نافا لوالديه لإطار سرير حديدي مطرق. كان والده لا يزال يصد بوجهه عنه. يحدث هذا مرات حين يجالسه لأجل العشاء . كان يصر أن لا ينظر إلا إلى صحنه. ذات مساء، مشجعا من قبل أمه، قبل نافا بتقبيل والده على رأسه. ظل الشيخ متجهما ولكنه لم يصده. و عندما أعلمه نافا عن نيته في إرساله رفقة أمه إلى الحج، تذمر الشيخ للحظة و انتهى به الأمر إلى القبول بحركة من ذقنه، و هو ما جعل العائلة يعمها إحساس بالإرتياح الكبير. هكذا أدرك نافا بأن والده قد سامحه و أن بإمكانه طلب المباركة من أبيه من جديد.

أوقف نافا سيارته أمام منزل عمر زيري و أطلق الزامور مرتين معلنا وصوله. أطل عمر من النافذة. بإشارة من يده طلبُ منه التريث.

كان زاوش جالسا على الرصيف، أصبع في منخاره، والعين مغبشة بشعاع الشمس.

كم تكلف تذكرة ذهاب دون عودة إلى الجنة؟

رصاصة في الرأس، رد نافا.

قهقه زاوش:

المؤسف هو أنني لا أملك حتى أين أدفع ذلك.

قام نافضا مؤخرته، اقترب من السيارة و وضع مرفقيه على الباب، رائحة نفسه الفاسدة أثرت مباشرة في السائق.

ألديك نقود يا أخ؟ إني جائع، لم آكل منذ الصباح.

قدم له نافا ورقة نقدية.

إنك شخص لطيف. من أجل هذا كافاك الله بهذا الوجه البشوش، قال له زاوش شاكرا.

كن لطيفا، ذاك ما ننتظر من العالم.

ملس زاوش على الورقة النقدية بحنان، ثم وضعها قبالة الشمس لكي تتراءى له قبل أن يعض عليها كما لو أنها قطعة من ذهب.

يبدو أنها ورقة نقدية صحيحة وغير مغشوشة، ذاك اليوم، استغفلني أحدهم فأعطاني نسخة مصورة بالألوان لورقة من فئة 10 لم يكتف بائع السندويتش بأن أشبعني ضربا ، بل إنه أراد أن يسلمني إلى مخفر الشرطة. الآن أصبحت حذرا ومنتبها لمثل هذه الألاعيب.

تنحنح عمر زيري و هو يفتح باب بيته. تلك علامة يرسلها الرجال إلى الصعاليك عند خروج النساء لكي يفسحوا لهن المجال ويخلين لهن الطريق. وضع زاوش الورقة النقدية

في جيبه و ابتعد باحتشام. صعدت زوجة عمر، صورة بشرية مبهمة مقنعة بحجاب الشادور، جلست في المقعد الخلفي وطفلها الصغير بين يديها. أغلق عمر الباب . تتحنح ثانية وجلس الى الأمام.

أنزلنا في ساحة بور سعيد.

هم نافا بتشغيل العداد.

ماذا تفعل، هناك؟

أنت ترى بعينك.

اتعتبرني زبونا؟

اسف، أنا أقود سيارة أجرة، و انها ليست سيارتي الشخصية. احاول ان أعين على نفقة عائلات المبعدين المنفيين...

هل أنت جاد؟

- طبعا، لو حصل و أن أوصلت أمي، اشغل العداد، و أدفع حق المشوار من جيبي.

تغير لون وجه عمر ليضحي قرمزيا. مسح اسفل خديه الملتهبين في قميصه الطويل. "مهان" أمام زوجته، اجتر غضبه لحظة و انفجر فجأة ضاحكا بغرابة. و لكي ينقذ الموقف و يحافظ على كرامته قال:

أنت ذو استقامة عالية فعلا، بالتأكيد سأدفع، فعلت ذلك لمجرد اختبارك.

أدار نافع عتلة السرعة و سار في اتجاه باب الواد مكشرا.

حشد من الناس يطوف حول الساعات الجدارية الثلاث. الساعة تشير إلى الرابعة زوالا. حرارة لافحة تخنق أسفل الحي. كان نافا يتقدم بحذر بسبب الراجلين الذين يغمرون الطريق... فجأة... دوي... ثم اثنان آخران، تردد صداهما عبر الأزقة في هدير مستمر. تصلب الحشد في أول طلقة نارية،

ثم حائرين، دون ضجة أيضا، بعد ذلك استولى على المكان تشتت لا يوصف، وفي أقل من دقيقة، لم يكن أحد على الإطلاق حول الساعات الثلاث.

لا تتوقف، واصل التقدم، قالها عمر امرا.

سار نافا لغاية الشارع، و بين سيارتين متوقفتين، كانت جثة رجل ممدة على الرصيف، الوجه عل الأرض و رأسه منفجر.

لا تنظر، صرخت زوجة عمر في ابنها الصغير.

دعيه يشاهد، قال الأب، عليه أن يعرف كيف تسير الأمور في بلاده، أترى يا موسى؟.. هذا ما يحدث لأعداء الله.

تأمل الجسد الممدد.

السيد ينزف يا أبي...

حتى الكبار يصابون عند الانزلاق، حاولت الأم يائسة، أترى لذلك أنصحك بأنه عليك الحذر عند الجري في الطريق، لأجل هذا...

ماذا تروين له يا امرأة؟ هذا القذر لم ينزلق، أنظر جيدا يا ولدي. لقد أطلق عليه الرصاص، إنه كافر و خائن. و قد عاقبه *المجاهدون*. لقد قتلوه. أتفهم؟ قتلوه...

زاد نافا من سرعة السيارة حتى يرحم الطفل من هذا المنظر، و ليتخلص من صراخ عمر الذي كان يهلل و يقوم و يقعد على كرسيه طوال المسافة.

كان القتيل دركيا باللباس المدني، شاب من أبناء الحي.

لطخ هذا الاعتداء الأحياء القصديرية المحيطية. و لم يفهم الناس البسطاء كيف تسقط عليهم المصيبة. كانوا يتهافتون على المقاهي، يتحدثون و يعلقون على الحدث دون توقف.

لم يكن الشيوخ مرتاحين. فقد عاد شبح 54 ليفسد عليهم غسق وجودهم، أيامهم الأخيرة. لطالما حلموا بأن يقضوا ما

تبقى من حياتهم على اسرتهم، بين ذويهم، في هدوء و صلاة و دعاء. و ها هو العنف يفاجى الجميع: طلقات نارية في شارع، على مراى ومسمع من الامة؟ أهذا زمن عودة (المنظمة المسلحة السرية) OAS ها هو هاجس الأمس يعود الى الميدان، سكن الرعب اعماق الناس، حال يضغط على القلوب بثقل شبيه بثقل السندان.

لم يعبا الشباب لذلك، فهم لم يعيشوا و ما عرفوا ايام الثورة، وانهم يطالبون بنصيبهم من الكابوس المرعب.

و في الليلة نفسها، دوت رشقات طلقات اخرى في زقاق مسدود، و في الصباح، أرعب منظر جسم عسكري مفكك جماعة من التلاميذ المارة. في الصباح ، عندما حضرت سيارة الاسعاف متأخرة، تعرضت بدورها دورية الشرطة التي كانت ترافقها الى اشتباك، والتهبت العربة في مكانها، فانتشرت رائحة الجثث المحروقة عاليا في الزقاق المسدود.

على الصفحات الأولى لليوميات كتبت MIA الحروف الرمزية المنذرة بالموت (الحركة الإسلامية المسلحة)... على الفور بدات رسائل التهديد تعكر حياة أسر بأكملها، حياة الجحيم، طوى الشيوخ كراسيهم ، عدلوا عن جلسات " *الجماعة*" ، توقفوا عن شرب الشاي على الرصيف، عن ساعات البطالة الهنينة و الأحاديث المخصصة لشعراء وقوالي الأمس تتحول الأحاديث دون سابق إنذار إلى خطب تأبينات.

و بعد رسائل التهديد، يستعمل التليفون للغرض نفسه، فيحمل مكالمات انتقامية، يرن في ساعة لا تخطر على بال. و في كل مرة يكون الصوت الذي في الطرف الآخر من الخط، صوت يجمد الدم في العروق:" ستموت أيها المرتد."

لم تكن تلك أقوال دون محتوى، في الفراغ.

كل صباح، يطلع رجال مقنعون من مخابئهم، يطلقون النار من قرب على أهدافهم. في بعض الحالات كان يستكمل العمل البشع بأن يقضي على الجرحى بحد سكين جزار. يفسر هذا التصرف في المساجد:" إنها فضيلة تحويل الميت إلى قربان و المأساة إلى ولاء."

و قريبا، ستمتلئ الليالي بالصلصلة، بخطوات السباق وكذا بالأوهام. تحاصر سرايا الموت الدواوير، فتضرم النار في البارود، في المصانع، و في مؤسسات الدولة، تنسف الجسور و الموانع لتحديد رقعة " الأراضي المحررة" يزداد صدى الخطب في الجبال، تتدفق على القرى. تتطاير المناشير باسم الجهاد. تتزاحم أخبار الإغتيالات الفظيعة ، تتصدر الصفحات الأولى للجرائد . شوارع الجزائر العاصمة، بليدة، بوفاريك، شلف، الأغواط، سيدي بلعباس، جيجل .. كلها تتراجع أمام الأفغان.

رفعت باب الواد جسرها المتحرك. يشد أبناؤها غير المرغوب فيهم الرحال. بعضهم لم تكن له الجرأة حتى للعودة للبحث عنهم. يقوم جيرانهم المقربون إليهم بترصدهم والأصبع على الزناد، فرصة الإيقاف في حالة الإنذار. شرطة، عسكر، صحفيون، مثقفون يسقطون يوميا كالذباب، الواحد تلو الآخر. يخطفون من عند عتبات أبواب بيوتهم في الصباح الباكر.

صراخ الأمهات يسقي صراخ الحوريات.. المأتم تؤكد حجم المأساة. يضرب الموت في كل مكان، كل الأيام و كل الليالي، دون هدنة و دون رحمة. بوغت ستة أعوان أمن عند منعطف شارع، وقام مهاجموهم برشهم بالرصاص. و بعد ذلك و بطريقة مهيبة أخرجوهم من السيارة و قطعوا رؤوسهم تحت الأنظار القادمة من خلف زجاج النوافذ.

و شينا فشيئا، عززت القصبة متاريسها، أصبحت قلعة منيعة، انسحب *المجاهدون* بعد بطولاتهم، إنهم في بيوتهم، و إننا نشاهدهم أيضا ، روؤسهم مرفوعة، و المسدس مرشوق تحت الحزام، يتبخترون في الازقة، يسردون و يعددون اعتداءاتهم، جالسين على رصيف المقاهي، يحكون قصص فزع ضحاياهم، راضين بالإنقلاب الذي الت اليه الامور.

12

يوم جمعة، عند منتصف النهار وجد نافا وليد عمر زيري في خلفية الدكان. لم يكن لوحده. رجال كانوا هناك، وأحاديث مندلعة بينهم على أشدها مفعمة بالحيوية و الحماس.. توقفت الأحاديث بمجرد أن رفع نافا الستار على الحاضرين. كان المكان يكاد يكون مظلما، على الرغم من وجود كوة صغيرة في أعلى الجدار. ميز نافا بين الحضور حسن الأفغاني، الذي كان منسحبا إلى الخلف قليلا، ملتفا في برنوسه الأسود. وكانت رأسه مربوطة بوشاح. كان يبدو منهكا؟ من بينهم كان هناك الإمام يونس محاطا بأبي مريم و ابراهيم الخليل وهما العنصران الرهيبان و المخيفان و هما أيضا من عناصر ميليشيات مسجد القبة. كان لقباهما أسطورة. و قد اغتالا، هما لوحديهما : ثلاثة ضباط من الجيش من بينهم ضابط برتبة عقيد، أربعة من رجال الشرطة، و صحفيين و عالما. كان حمزة يوب ، دهان العمارات، جالسا ، مقرفصا على ركبتيه امام مائدة منخفضة وسط القاعة، يملأ بالشاي تلك الكوس التي صفت بشكل دائري فوق صينية، كانت حركات يديه متسمة بالتواضع و الخشوع. و كان يبقي عينيه مغروستين في الارض في كل مرة يحضر فيها عضو نافذ و قيادي في

الحركة الإسلامية، في المقابل جلس ثلاثة رجال على أرائك، لم يسبق لنافا أن رآهم قبل اليوم. كانوا يرمقون سائق الأجرة بنظرات حادة و مكثفة.

لم تخبرنا يا أخ عمر بأنك تنتظر زيارة، قالها أحدهم وكان في العقد الخامس من عمره.

انه من جماعتنا، طمأنه عمر.

لا شك في ذلك، فالأوامر واضحة.

يمكنني الإنصراف، إذا ما كانت تلك رغبتكم، قال نافا.

ليس ضروريا، قال الإمام.

لم يكن هذا رأي الكهل الخمسيني، لكنه تجاوز الأمر و لم يصر على ذلك. كان هذا الخمسيني رجلا ذا صدر عريض وجبين بارز وحاجبين غليظين . عيناه المكحلتان ترسلان قوة وسلطة تجعل المخاطب في حالة انزعاج. يشعرنا داخله بشيء صامت نائم بداخله يذكرنا بالحمم في أعماق البركان.

كان الأخران نصف متخفيين في ظليل، بلحية تتدلى حتى القميص،الرأس الحليق المدهون يشبه محيطا محدبا ورماديا، كأنه نحت على صخرة من الغرانيت و هو ما يمنحهما شكلا صموتا ومكدرا ، غير لائق.

في كل الأحوال، لا نملك الخيار، يواصل ابراهيم الخليل ما كان قد قطعه عند دخول نافا، أنا أوافق الرأي يا شيخ نوح.

نحن نقوم بكل ما نقدر عليه، تلجلج عمر و هو يرشح بالعرق، أؤكد لكم أننا لم نتهاون ولم نتسامح مع أي أحد.

إن الأمير جعفر يرى ما تقومون به غير كاف، قالها الكهل الخمسيني، لا يمكننا أن نحقق النصر بحفنة من المتطوعين.

أسرع عمر زيري محضرا سجلا:

يمكنكم التحقق ، لقد جندنا 163 عنصرا للجهاد في الجبل.

مائة و ثلاثة و ستون عنصرا لمدينة مثل الجزائر العاصمة، هذا عار، زمجر الكهل الخمسيني، في بوفاريك كل ليلة يرسل عشرون عضوا من المجندين الجدد إلى معسكرات التدريب (استدار نحو الإمام يونس) الحقيقة يا شيخ ان مساعديك المسؤولين والمكلفين بالاشراف على عملية التجنيد ليسوا في المستوى، و ربما تنقصهم المحفزات. هذا شيء خطير، اذا انتظروا قدوم المتطوعين كما ينتظرون او يستقبلون في مكاتب التجنيد العادية، انهم مخطوون عليهم ان يتوجهوا إلى الشعب لتحسيسه، لتوجيهه و لخضه، لما لا. كثير من الشباب قد نفذ صبرهم، و لا يطلبون سوى الإلتحاق بصفوفنا، *يريدون* أن يحلوا الوضع الذي الت اليه البلاد. ويكفي تجنيدهم . في مدينة البليدة ، شارع واحد يمدنا بعناصر عددها أكثر مما يقدمه لنا حي بكامله. لماذا!؟... لان في البليدة نذهب للموضوع المطلوب مباشرة، و لانسعى لذلك طويلا، لهذا فالأمور جيدة هناك. و علينا ألا نكتفي بتزيين الجرد وتحرير القوائم و الإعتقاد بأنه قد تم إنجاز المهمة المرجوة. اخواني ، ان الصلاة وحدها ليست الإيمان الكامل،' ان القميص الإسلامي ما هو إلا بذلة للكرنفال اذا لم يكن الذي يرتديه جديرا به. يقول تعالى:" قل لا تمنوا علي إسلامكم ولكن الله يمن عليكم إن أهداكم. . " صدق الله العظيم.

أعتقد انه مجرد سوء تفاهم، يحاول الامام يونس تهدئة النفوس، إن المعطيات ليست هي ذاتها في الجبال و في المدن، لكل قطاع خصوصياته، أرى أنه يجب أن نهنئ أنفسنا، لقد نجحنا في إنجاز أشياء كثيرة و في ظرف سنة واحدة. ان المدن أكثر احتراسا من الدشور. هنا السرية هي

الشرط الأساسي لكل عمل، و هذا شيء حسن، لكن هذا لا يعني ان ما نقوم به لاقيمة له، إننا نعمل في سرية و احتراس كي نحمي شبكات مقاتلينا و كذا عائلاتهم. ان الواقع المديني ليس كذلك في الجبال حيث تتوفر مناطق لا تحصى للانسحاب أو للاختباء و الغابات في متناول اليد. وفي المدينة نحن مجبرون على القيام بعملية فدائية في شارع ثم النزول للإختباء في الجوار، ثم إننا محاطون بأناس ليسوا جميعهم راضين بمجاورتنا لهم، فضلا عن كل ذلك ينقصنا السلاح. إن اسلحة الحرب التي نستولي عليها عقب كل عملية ترسل وبانتظام إلى الجبل، إن جماعة أبي مريم لا تملك سوى سلاحا يدويا واحدا لكل ثلاثة مقاتلين.

ليس هذا هو السؤال، يصر الكهل الخمسيني، نحن نملك المال اللازم لتجاوز و حل مشكلة نقص العتاد الحربي. إننا نتوفر على قواعد خلفية في أوروبا و على حدودنا الشرقية والغربية، و ما يشغلنا اليوم هو التجنيد. ان الأمير جعفر صريح و واضح في هذا الشأن. يجب أن نسجل كل المجاهدين الذين يتواجدون في المقدمة، بدون استثناء. يجب على الجميع أن يحمل سلاحا. إذا ما وجد مترددون فيجب تصفيتهم، ببساطة كل من يرفض اتباعنا فهو خائن ويستحق نفس ما يستحقه الطاغوت من عقاب.

أنا على تمام الاتفاق معك، يا شيخ نوح، أكد ذلك ابراهيم الخليل بقوة، لا أحد له الحق في التراجع أو الانسحاب، لقد أدينا القسم، و لانقبل أي يمين مزور. لأجل الجبهة الإسلامية للإنقاذ نناضل و لأجل الجبهة الإسلامية للانقاذ نموت. وعلى مجاهدينا جميعا أن يلتحقوا بالجبال، بدون استثناء.

حسنا قال الكهل الخمسيني، و هو يهم بالوقوف للمغادرة، لقد بدت عليه علامات القلق لوجود نافا. نحن ذاهبون. شكرا

على حسن الضيافة يا شيخ يونس. لا يزال امامنا طريق طويل علينا قطعه ولكننا لا نملك الوقت الكثير. أتمنى ان أراك قريبا. أما عن عريضتك فسأبلغها في حينها للأمير.

لم الرجلان الاخران أطراف قندورتيهما و قاما بدورهما، اصغرهما اخفي خلسة محشوشة (بندقية مقطوعة العقب) تحت حزامه، حيى الإمام و خرج مسبلا.

اغلق عمر زيري الباب خلف ضيوفه، و التحق بخلفية الدكان محركا يديه على مستوى ذقنه:

صلب و عنيد هذا الشيخ نوح، مجرد زيارة مجاملة أعسر من تحقيق قضائي.

نستحق الموت رميا بالرصاص، صرخ ابراهيم الخليل.

تحدث عن نفسك اما نحن فلم نخطى و لم نغش.

انا ارى بأننا لم نف بعهدنا و ذلك بسبب اهمالنا لمهماتنا.

لم ينتبه اليه عمر زيري الذي كان منشغلا بتنظيم خزانته، رتب سجلاته داخل درج و وضع فوقها كتبا ليخفيها و ليموه عليها، ثم وضع قفلا، بينما هو كذلك كان ابراهيم الخليل يغلي، يلحظه ممسكا بأعصابه حتى لا ينقض عليه غضبا.

كفى، قالها أبو مريم، الرجاء الهدوء...

انا هادى ، قالها عمر ، أملا في إغاظة الشاب الميليشي.

ظهرت ملامح الغضب على وجه ابراهيم، قضقض فكيه و خفقت مناخيره:

لقد كنت بالجبل، و اني أعرف جيدا كيف تجري الامور هناك، العصا لأجل سيجارة يحرقون دماغك، النتيجة: الانفجار. قبل دخول فصل الصيف ستحرر الارياف كاملة، لان هناك لا ننتظر وصول الأوامر، الامراء هم الذين يقومون باتخاذ المبادرات اللازمة. ما ينقصنا هنا هي المبادرات، يجب إعطاء الأولوية للتجنيد، هذا واجب

ضروري. ما الذي يفعله كل هولاء الخاملون العاطلون الذين يتعفنون طوال النهار عند قدم الجدران؟ اننا بحاجة اليهم، لزرع أعيننا في كل الأحياء، و لأعادة تشكيل فرقنا المفككة المشتتة و اقامة مجموعات جديدة، و تحطيم هذا المجتمع الفاسد...

حدق في نافا بنظرة حادة و بعنف:

ما رأيك أنت؟

أحضرت الحصيلة الأسبوعية.

أنا لا أتحدث عن ذلك، أسألك ما رايك في....

أنا لست بإنسان خامل او عاطل، قاطعه نافا، عازما الدفاع عن موقفه.

ما معنى ذلك؟

ما اقصده واضح.

تبادل الرجلان النظرات و كأنهما كلبان من خزف، قريبان من بعضهما البعض الى الحد الذي امتزجت فيه انفاسهما. كانت ملامح وجه نافا صافية و هادئة، اما وجه شاب الميليشيات فكان يرتعش حنقا.

دع الأمر انك مرهق هذه الأيام، عليك ان تعتني بنفسك وبراحتك، قالها ابراهيم موجها كلامه في توسل لابي مريم .

لم أفهم هذه التلميحات، و لن أدعه و شأنه قبل ان يشرح لي الأمر.

كان ابراهيم الخليل مخيفا و معروفا بسلوكاته السيئة في حي القصبة. لقد تم سجنه عدة مرات في مؤسسات إعادة التربية. دون تعليم، دون عمل و لا حرفة، و منذ سنه المبكر ترعرع في أوساط تنظيم (الإخوان المسلمون) فكان بذلك من أوائل المتطوعين رفقة أبو مريم الذين تجندوا في صفوف تنظيم " الدعوة" إذ توجهوا الى أفغانستان. عند

عودته، فكر في أن يضع خبرته الحربية التي اكتسبها هناك، في خدمة الحركة الإسلامية المتطرفة. إلا أنه، لاتلك الإغتيالات التي نفذها و لا حماسه مكناه من رفع مكانته إلى رتبة امير. كان يطمح في قيادة فرقة و الانتشار في الجبال، و هاهو يعين للقيام بمهمة مساعد مسؤول التجنيد، كأي وقح خامل، منذ ذلك الوقت بدأت تقلبات مزاجه تزعج معاشريه.

قال أبو مريم غاضبا موجها كلامه لنافا:

أتظن أن حصيلتك من النقود تكفي؟ لم لا تصعد الى الجبل؟ انك نشط، في صحة جيدة ، قادر و مستعد، ممن انت خائف؟ أفقدت الايمان؟

العنف ليس هو كل شيء.

لنسمع، لنسمع، إنه كشاف الوعي، منير الطريق، مع انك كنت تقول، ليس ذلك ببعيد، بانك على استعداد للموت من اجل القضية.

للموت نعم، لا للقتل.

ماذا؟ أعد، لم أستوعب جيدا ما قلته، من أين طلعت أنت؟ الموت نعم، القتل لا. ما ذا تعني هذه العبارة؟ هكذا تلقي بنفسك من اعلى الصخرة، أو ترمي بها تحت عجلات شاحنة صارخا :" عاشت الجبهة الإسلامية للإنقاذ." و تظن نفسك بانك تضحي من أجل الحركة الإسلامية. لسنا بحاجة الى جثتك يا نافا وليد اننا نحتاج الى أفعالك وضرباتك. أن تكون مستعدا للموت ، هذا يعني في قاموس " الجهاد" و في معانيه : الذهاب إلى اخر نقطة في الأنا، المقاومة الى اخز رصاصة، لأطول مدة ممكنة حتى تنزل بالعدو أقصى العقوبات . اذ لا يحق لنا الموت الا بهذه الطريقة. العنف ممر و طريق اجباري. لا نعقل الطاغوت بفقاعات الهواء. اذكرك باننا نفقد إخوانا لنا كل يوم، و أن اخرين و في الوقت هذا الذي احدثك

فيه يصرخون تحت التعذيب، و ان اخرين يحتضرون في المحتشدات و المنافي، وآخرين لا يطالبون سوى بسكين أو مدية صغيرة لمواجهة المارقين المرتدين.

يكفي هذا، قالها الإمام يونس، ان نافا على حق، العنف ليس هو كل شيء. بقدرما نحتاج إلى مجاهدين و محاربين نحن و في الوقت نفسه بحاجة إلى مساعدين. الحرب تتطلب وضع خلف كل محارب عشرة أشخاص على الأقل لمساعدته.

دون انزال نظراته من على نافا، تراجع ابراهيم الخليل خطوة إلى الوراء، شاحب الوجه، على طرفي فمه يسيل لعاب مخثر، كان تنفسه مدويا، دار دورة حول نفسه، ثم انطلق بغضب في اتجاه الباب، و إذ رفع الستار التفت الى سائق الطاكسي:

ذات يوم اشتد بي وجع سن، لا اظن بان هناك اشد من كلب الاسنان، بينما أنا اتلوى ألما، و اذ بي على الحافة أكاد أن ارمي بنفسي من النافذة، دارت براسي هذه الفكرة: لماذا يعاقبنا الله بمثل هذا الألم الشديد من أجل ضرسة تعيسة مسوسة؟ أي علامة هذه، أي نبوءة هذه؟ سوسة حقيرة، والإنسان هذا المخلوق الرائع، القريب من الكمال، يتهاوى بأقل من تحفظ الحيوان، أليس ذلك بغريب؟ ... إذن لماذا يا نافا وليد؟ إذا كان بإمكانك الاجابة عن ذلك فاني سأتخلى طواعية عن العنف.

ترك الستار ينسدل في عقبه.

تبع ذلك صمت مزعج. انسحب عمر زيري ليتأمل بطنه، هز أبو مريم رأسه مضطربا، أخذ الامام يونس سبحته وانسحب إلى ركن الغرفة، ساحبا فوقه مسحة من الظلمة. اما حسان الأفغاني الذي لم ينبس بكلمة منذ البداية، ليست له عادة الكلام، فقد وضع نظره القاسي على نافا، منزويا بعناد، لا

يتدخل أبدا في المناقشات، وجهه من شمع كقناع الأموات. لا يترك فرصة لبروز أفكاره. عندما يشتد النقاش و تتضارب الاراء، يكتفي بالإستماع إلى هولاء و الى أولئك و كأنما هو غير معني بذلك، تصلبه و صمته يضافان إلى عاهته هي حالة إحباط، والتي تجعل حضوره محرجا أكثر من اي شخص دخيل.

محيرا ، سأل حسان الأفغاني سائق الطاكسي:

ايمكننا الاعتماد عليك في شيء آخر غير ما تقبضه من عملك كسائق سيارة أجرة.

أجابه نافا:

بالطبع.

لم يمر وقت طويل إذ طلب من نافا خدمة.

في البدء تمّ تكليف نافا بمهمات صغيرة، لا قيمة لها، كان ينقل المعبرين الملتحقين بالجبهة الإسلامية من حي إلى حي اخر، استقبال بعض " الضيوف" في محطة القطار أو في المطار. نقل بعض الوثائق بشكل غير منتظم: بيانات تدعو الشباب إلى عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية الوطنية، و تدعو التجار أيضا إلى عدم دفع الضرائب، منشورات تحذر من كل ممارسات الزنادقة، رسائل و تقارير تعرض العمليات العسكرية التي يقوم بها *المجاهدون* ... إلخ. و في كل هذه المهمات و الخرجات كان يصحب معة البهلول زاوش المعروف بحركاته العفوية اللامسؤولة و الفكاهية و التي كانت تسهل له اجتياز الحواجز الأمنية.

شيئا فشيئا، بفضل الرفقة المبهجة (لقانده) زاوش اا استطاع نافا أن يتجاوز القلق و أن يتغلب عليه، تلك الحالات التي كانت تسكنه مع رؤية كل حاجز أمني. تعلم كيف يحافظ على هدوئه، ليتحدى نفسيا كل الإجراءات الأمنية الموزعة

على النقاط الرنيسية في المدينة و أن يعرف الضعف و الخلل الكامن فيها.

بعد ذلك، و بين مهمة نقل عابر و عابر ثان، كان يكلف للذهاب في مهمة جمع التبرعات، و كثيرا ما كان يضطر للذهاب إلى قرى نائية و في ساعات حضر التجول. تكفل أحد المطالين من عناصر التنظيم فصنع مخبنا مموها داخل صندوق سيارة الأجرة، فكان ينقل فيه خفية رزما ، محافظ ، صناديق، و أكياس قماشية محكمة الربط، تحتوي على أشياء معدنية، دون شك لن تكون سوى أسلحة حربية مفككة، لم يكن هذا الأمر ليقلقه ، إن الثقة التي وضعت فيه، و الاعتبار الذي كان يعامل به، كل ذلك منعه من التراجع أو التخاذل أو الخوف. كما أنه ، و من جهة أخرى فقد بدا يتمتع و يتذوق لذة المخاطر و طعم الخوف الذي كان يسكنه بعنف، وهو ينفذ ما بين المخاطر، كان يشعر بهذه اللذة تأتيه كنفحة أفيون. كل هذا كان يغمره بإحساس قوي بعد تجاوزه للمصاعب التي تحيط بمهمة من مهماته.

لأول مرة، بدأ يكتشف نفسه، و يدرك إرادته، وأهميته، و كذا نفعيته بوصفه إنسانا و كائنا.

أخيرا هاهو إن له وجودا.

إنه لمن المعدودين، يحسب له حساب.

كان فخورا، و مقتنعا من أنه يساهم في تاسيس شيء مهم وكبير ، عادل و صحيح و ضروري. لقد أضحى هذا الشعور قناعة و حقيقة. إن اليوم الذى اعتدي عليه من قبل رجال الدرك الوطني، يو م كان عائدا من المطار بعد ان أوصل زبائن عاديين، . إذ شعر بأنه أهين جسديا و معنويا من قبلهم، في اللحظة ذاتها فكر في أن يسلح نفسه، و لكنه و بعد تفكير ، رأى بتبصر أن عليه أن يتريث و أن لايتورط في طريق لا

رجوع منها، كل ذلك لاجل غضب عابر. كان مقتنعا انه لا يرفض ذلك و لكن لم يكن بعد على أتم الإستعداد.

لم تعد البرودة و لا منظر الجثث لتؤثر فيه كما في السابق. لقد شاهد العديد منها ملقاة على حفافي الطرقات، البعض منها كان مشوها، و الأخرى ، أي جثث *المجاهدين* فكانت منقبة بالرصاص ومعروضة للمارة، حينها بدأ يتساءل عن فكرة حمله السلاح، فكرة لم يعد يستبعدها ، بل انها أصبحت ضرورية في مثل هذه اللحظات.

لم يعد يضايقه مثل ذلك الخوف الذي كان يغمره في الماضي، الذي كانت تثيره فيه غابة بينام، خوف تلك الليلة الهوجاء العاصفة: ليلة الفتاة التي سحقت بالحجارة. لقد حضر إعدامين جماعيين وسط الشارع، دون أن يهزه اضطراب أو هلع. تستيقظ القصبة بانتظام وكل يوم متعثرة في جثة أحد المرتدين غارقة في بركة من دم. رووس مقطوعة مصطفة في شكل دائري كرؤوس البصل على الدرابزين أو في باحة عامة. اما الأطفال ، ففي البداية كانوا يفزعون لمثل هذه المناظر، ثم ، و شينا فشيئا بدأوا في الاقتراب منها لرؤيتها عن قرب، فضولهم أخذ يهزم خوفهم.

لم يكن نافلا صبيا.

كان مسبلا، أضحى عضوا فعالا في مجهودات الحرب. حقيقة ان كل ما يقوم به كان في الكواليس، لكنه قرر أن يعطي الأفضل مما عنده، لكي يخلص البلد من دكتاتورية البعض و نهم البعض الآخر، كل ذلك حتى لا يستهزئ رجال الدرك المتحمسون بأي أحد من المواطنين، و كذا بهدف إعادة الاعتبار و بشكل نهائي لكرامة الرجال.

ذات يوم، حدثه أبو مريم عن مشروع " حساس" ، فمجموعته تخطط للهجوم على مؤسسة من مؤسسات الدولة تقع في منطقة منسية و مهملة من قبل قوات الامن.

سيقبض العمال أجورهم يوم الأربعاء، شرح له أبو مريم، أمين الخزينة عنصر من عناصرنا، انه منا، لقد قدم لنا كل المعلومات الأساسية ، و إن خطتنا جاهزة بكل تفاصيلها، لن تطلق رصاصة، نحن فقط بحاجة إلى سائق ماهر و متمرس. أنت ملك السياقة، بطل "لاز" المفقود، زيادة على هذا فأنت تعرف كل الطرق الاختصارية و كل المنافذ.

قبل نافا المشاركة في العملية بشرط ألا يزود بسلاح ناري. وبالفعل تم الهجوم ، كما كان مخططا له، بدون أية معارضة تذكر. تمكن نافا من مغادرة المكان قبل أن يعطى الإنذار. كان ذلك بالنسبة إليه يوما عظيما، و هو ما فجر رغبته في المشاركة في مثل هذه الأعمال، إذ شارك في هجومين آخرين قبل أن يجد نفسه ملاحقا من قبل الشرطة التي كانت بالضواحي.

توجه نحو الساحة الواسعة، أمره أبو مريم، نازعا عن وجهه القناع، يجب التخلص من هذا قبل وصول الإمدادات والدعم.

توقف هنا، سطوب ! سطوب !

في لمح البصر، استجاب نافا مطيعا أمر ابي مريم، حتى كادت سيارة الشرطة أن تداهم سيارته لو لا أن السائق انحرف بسرعة هائلة نحو اليمين، و بسرعة كان أبو مريم في الطريق مفرغا رصاص رشاشه على رجال الشرطة الذين كانوا بالقرب. كالدمى سقط رجال الأمن الثلاث، اختلط دمهم بشظايا الزجاج. أكملت السيارة انحرافها نحو الهاوية وصوت زمورها كأنه قصف الرعد. أسرع أبو مريم وحمزة يوب ،

دهان العمارات، لقتل الجرحى، و تجريدهم من اسلحتهم و اجهزة الإتصال التي كانوا يحملونها معهم، و عادا مسرعين.

اقلع، أقلع...

اندفع نافا بسيارته إلى الوراء، ثم سلك نفس الطريق جتى البساتين، ثم انقلب في اتجاه ممر محوط بأشجار الزيتون ليلتحق وباقصى سرعة بالطريق ولكي يختفي في ازدحام السيارات.

في تلك الليلة، ممددا فوق سريره، خشي نافا أن يعاوده كابوس مزعج. مع ذلك فقد نام كنجار قضى نهاره في عمل شاق.

تفقد عمر زيري ساعته، كان يتفحص عقاربها كل دقيقة. منزعجا داخل معطفه المخملي، لم يتوقف عن الالتفات براسه ذات اليمين وذات اليسار. كانت الروضة خالية، مضاءة بنور هلال نحيف. نثار من الغيوم كانت تتراكم بين النجوم. الساعة جاوزت التاسعة ليلا، وقد بدأ الجو يصقع. من بعيد، على الطريق، الأضواء الكاشفة ترسم نقاطا متتالية فسفورية على شاشة الليل. تستلم القرية ، شيئا فشيئا، للاندثار والإختفاء في السديم الذي يقطعه نباح الكلاب و كأنها أشباح تسكنه.

بداخل سيارة مخفية تحت شجرة برتقال، كان نافا ينقر على المقود. بجانبه، كان المهرج زاوش يحدق في عرض غانم مظلم لضيعة في آخر الممشى. لا ضوء خلف النوافذ. بدا السكون متأثرا بأصوات الحشرات الليلية، مما زاد من قلقهما و نرفزتهما. في الكرسي الخلفي، كان عمر زيري يعرق. لم يكن معتادا على الخروج من كوخه، كان يفضل ان يكلف اخرين للقيام بالمهمات التي كانت توكل إليه. هذه المرة كان الأمير جعفر حاسما و قطعيا، فالمسألة تتعلق بمبلغ مالي

ضخم، لذا ليس واردا أبدا أن يكلف اي شخص للقيام بمهمة استلام هذه الأموال.

برزت شاحنة صغيرة، في عمق الحقول، الأضواء مطفأة. كانت ترتج و تترنح فوق الأخاديد و الثلم. تسلقت تلة ثم التحقت بالطريق غير المعبد الذي يودي الى الضيعة. انار نافا مرتين مصباح سقف السيارة، في الخلف ارتجف عمر وهو يقتلع و بثقل مسدسا من تحت حزامه.

وجهت الشاحنة مقدمتها بفضل اشارتين ضوئيتين ثم اقتربت ببطء. نزل منها رجل يحمل على ذراعيه كيسا كبيرا، ثم صعد بالقرب من عمر.

لقد انفزر الدولاب.. قال ذلك مبديا اعتذاره على التأخر.

فك رباط الكيس و أخرج منه علبة كبيرة الحجم.

هي ذي مائتا مليون ، هي مساهمتي البسيطة، إنه شرف لي أن أخدم القضية.

كان الرجل الصناعي الناجح بالمنطقة محبوبا لسخائه، وكذا لمساندته اللامشروطة للحركة الإسلامية المسلحة. لقد سبق لنافا أن صادفه عندما كان مكلفا بجمع التبرعات، لكنها المرة الأولى التي يسمع فيها بمثل هذا المبلغ المدهش. تأمله من خلال المرآة الارتدادية، لم يجد سوى وجها مجعدا بنظرات فاقدة كل معنى.

رفع عمر بيده حزمة الأوراق النقدية، قبل أن يضعها فوق الأرضية.

لقد عددتهم، طمأنه الرجل الصناعي.

لقد كلمني الأمير عن مشكل يتسبب فيه أحد منافسيك... لقد كلفني بحله.

بالضبط، تحمس الرجل الصناعي و أخرج رزمة أوراق نقدية أخرى من حقيبته، يوجد هنا بالداخل مائتا مليون أخرى، ثمن تخليصي من هذا الخصم.

هل تريد ان نقضي عليه نهائيا؟

ليس بالضرورة، بالأحرى أريد ان تضرموا النار في مصنعيه، بهذه الطريقة أستطيع أن أضاعف انتاجي، و اضمن دعما أكبر للجهاد. ها هي خريطة الموقعين الصناعيين، مع عنوانهما، الحراسة ضعيفة، و الموقع العسكري الاقرب اليهما يوجد على بعد كيلمترات. أقترح عليكم أن يتم حرقهما معا و في ليلة واحدة، و من الاحسن الإسراع في تنفيذ ذلك.

أنا من أجل مئتي مليون أفرقع العاصمة بكاملها في الهواء، صرخ زاوش.

اغلق فمك، صرخ فيه عمر.

ضرب زاوش بعصبية على لوحة القيادة، و ادخل عنقه مبديا استياءه. على الفور لم ترق حركة زاوش الرجل الصناعي. كان يتفحص بالتناوب محدثيه. استأذن الرجل الصناعي بالإنصراف ليعود الى شاحنته الصغيرة.

ما الذي دهاك، كي تضرب بهذه الطريقة على السيارة؟ صرخ فيه عمر.

استدار زاوش دفعة واحدة، العينان جاحظتان، المنخران متسعان:

نعم، أدق فوقها، ثم ماذا؟

اني أمنعك من أن تخاطبني بهذه الطريقة.

سانزعج.

لم يصدق عمر. أيهان من قبل هذا الحقير، و هو ماهو، هو الذي يوحي لصعاليك و أوباش حي القصبة بالرعب أكثر من الإحترام.

قفز الى المقعد الأمامي، قبض زاوش من عنق سترته، و خضنه. ابعده زاوش بدفعة يد قوية، ثابتة.

لا تلمسني.

انها دعابة؟

هل يبدو علينا المزاح؟

امتنع نافا عن التدخل، منذ زمن طويل و عمر هذا يعتبر نفسه الرعب ، ليس سينا رؤية مثله مهانا و منزعجا من قبل أحقر و أسوء الرجال.

توقف عن تهريجاتك يا زاوش، قالها عمر مهددا.

سأتوقف عنها حين تتعلم أن تناديني باسمي الحقيقي. لقد قضيت حياتي متحملا حماقاتك، للمرة الاولى ارفع فيها صوتي، فتسخط و تغتاظ، مدنس ا ... طانر يتكلم، انا لست بطانر.

ليس صحيحا، أنا أهذي...

أنا، لا، إني أقول " كفى ا" ... " يكفي هذا ا" لقد انتهت الفرجة و العرض.

كان وجه زاوش قلقا، بملامح منزعجة، كانت يداه تمزقان غطاء المقعد بعصبية، كان يضرب برأسه بقوة، يرفع سخطه عاليا، كان كل جسمه يرتعش، يهتز مع صدره، كانت أنفاسه تغمر السيارة تدفع للقيء.

كأنما كان زاوش ينتظر ، و منذ مدة طويلة، الساعة و المناسبة التي يتقيأ فيها ملايين الأحزان التي ملأت حياته.

نزل من السيارة. أغلق الباب بعنف. مشى بضع خطوات، ثم عاد مشيرا بأصبعه متهما و مهددا عمر زيري المندهش كلية:

لقد حولنا الشعب أيضا إلى أحمق و غبي. منذ 62 و هو ينال نصيبه من التعاسة. اليوم، هو الاخر مثلي يقول:

" كفى"... لقد أقسم أن يرد غلى المخاطر بمثلها. مثلي هذا الشعب انه يخاطر أكثر منكم، ايه،،، علينا ألا ننساه. لست أنا من يسحق على الطريق العمومي. و ليست لي سوى حياة واحدة، هل تفهمني يا عمر زيري؟ انا مضحك و لكني لست ابلها. أدرك جيدا ما الذي يدور من حولي. الممارسات الوقحة و الخبيثة تؤلمني، حتى ولو أني اتظاهر بتجاهلها. ان الدعابات القصيرة، عندما تطول تصبح مزعجة و مقرفة. انطلاقا من اليوم ، كل شيء انتهى، المزاح انتهى. ساخفي انف المهرج و أرفع خيمة الفرجة. سأضع علامة على كنيتي، هذا اللقب: زاوش، و أطالب باسم حربي.

ابتعد نحو المزرعة، ثم عاد مرة أخرى على عقبه، وصرخ في وجه عمر:

سأبرهن لك عما قريب عما أنا قادر على فعله ، يا أخ زيري.

و يختفي بين الأشجار.

إذن، ازدرد عمر، و هو ينشف عرقه بكمه.

لقد اغتيل زاوش ليلة احتفال بمناسبة وطنية، في الوقت الذي كان يحاول فيها اختراق موقع عسكري بمبادرة شخصية منه. في القصبة، كانت النقمة كبيرة تتبع الهلع " لم يكن يؤذي ذبابة، قال الإمام يونس بصوت مرخم و مهتز، فقير، بئيس و بسيط، روح بريئة صعقت بغير سبب من طرف طاغوت متجبر و تافه، وغير واع..."، و زاوش الذي كان في كل حيلته يجسد صورة الإنحطاط البشري، هاهو بعد موته يرفع من قبل الذين طالما احتقروه الى رتبة الشهداء، لقد أحرز على مراسيم دفن كبيرة ، كانوا بالمئات من رافقوه الى مثواه الأخير.

كان أعيان باب الواد و القصبة يتصدرون الصفوف... الراس مطأطأة لموارة دمعة خبيثة.

لايام طويلة، لم يكن يتحدث سوى عن هذا "الاغتيال المجاني، الدنيء، الشنيع." الذي لايشرف أمة كان من اجلها هذا الإنسان بسيط العقل قريبا من الرب أكثر من أشجع الشجعان.

وجد ابراهيم الخليل نفسه في هذا اليوم محاطا بما لا يقل عن ثلاثين مجند جديد، و هو الذي كان يطمح الى عشرة للوصول الى جلب احترام رؤسائه.

من جانبه استغل أبو مريم الحزن العام الذي ساد حي القصبة لكي يقضي على سيد علي الشاعر الذي لم يتوقف الأئمة عن تكفيره، و الذي طالب الأمير نفسه براسه. لقد هوجم في منزله، في الصباح الباكر. كان الشاعر في انتظار مغتاليه، لقد رفض الهروب، و قد أدرك ما كان يدبر له، اكتفى فقط بإرسال زوجته إلى مكان ما، ليواجه مصيره لوحده.

لقد طلب سيد علي قبل أن يموت، بأن يحرق بالنار.

لماذا؟ تساءل أبو مريم.

لوضع قليل من النور في ليلكم و سديمكم.

13

يتأوه الشيخ في الصالون. لا الذهاب و الإياب لعيادة الطبيب و لا الأدوية استطاعت إطفاء آلامه.

كان الشيخ يتأوه في الصالون، لا الذهاب و لا الإياب لطبيب و لا الأدوية استطاعت أن تخفف من آلامه. ترسخ به المرض بلا رحمة، كان يقرضه عصبا تلو العصب. ماكرا ومرتبا، كأنه كان يريد أن يأخذه إربا إربا. هو نفسه لم يعد يقاوم. مسحوقا ، مرتجفا. لم يكن يجمع قواه الأخيرة إلا لكي يدعو الله ليختصر احتضاره.

معصبة بمنشفة من الاسفنج كانت راسه تتقلص مثل سفرجلة ذابلة. بين تأوهين تضطرب عيناه المعمشتان ، بينما جسمه المهترئ و الزنخ يرتخي تحت الغطاء.

كانت أمه تترنح من نعاس قرب سريره، تغمس و تعيد تغطيس المنشفة في إناء، بها كانت تنعشه.

لم يعد نافا قادرا على الحضور ، عاجزا ، أمام مصيبتهم، كان يحبس نفسه داخل غرفته، كان الضجيج المنبعث من الصالون يعكر نومه كل الليالي. و كمن يتحمل البلاء أخذ مكانا وسط أخواته حول مائدة. أزاح بيده القطع القليلة من الخبز المدهون بالزبدة ، هو كل الفطور ثم طلب من رئيسه ،

او بالأحرى من اميره آن تملأ له فنجان قهوة، ثم و لكي يلطف الجو أخذ في يعاكس بأصبعه الصغيرة نورة و هي تتجول بلسانها على شفاه وعاء الحليب.

إنك تدغدغني...

أنا؟

نعم، انت. رأيتك تدس يدك خلف ظهري.

لا بد أنها ارواح شريرة.

تهز نورة كتفيها و تواصل يلحس إنائها. و هي تراقب أخاها بطرف من عينها.

نافا يهتم لأميرة. هذا غير عادل، فكر في داخله، رغم جمالها الفائق و استقامتها لم تجد خطيبا، مع العلم أنه و في سنوات الثانوية كانت قامتها تثير كل شباب الحومة. عيونها الواسعة المتلألئة كحجر كريم ساحرة. كانت زميلاتها في القسم تغرن من رشاقتها و لطافتها، و كن يتجنبن الظهور برفقتها. كانت جميلة جدا. أميرة ، خداها كخدود الحوريات، مزينتان بغمازتين. و شعرها اللامتناهي مسدول على ظهرها.

كان نافا حزينا من أجلها، فإن قاطعها الخطاب فبسببه. لقد طردهم جميعا. كان قد وعد بها صديقه دحمان. إلا أن دحمان نسي كل تعهداته حين دخل معهد الفندقة في تيزي وزو، الفتيات هناك متحررات. كان دحمان يحلم دوما ان يتزوج امرأة من مجتمع الأثرياء. تعرف طقوس الاستقبال و"الخرجات" و التعامل مع الأغنياء، و التعامل مع أهل الطبقة الثرية. الآن أميرة تسير في ربيعها الرابع و العشرين دون أن ينتبه إلى ذلك أحد الخطاطيف.

تضع نورة إناءها ثم تجري نحو الغرفة بحثا عن محفظتها.

رافقيها إلى المدرسة يا سعاد. قالت الأم. أخبري المعلمة انني لن أستطيع اليوم أيضا أن أراها.

وافقت سعاد . و بدورها تركت المائدة ثم أخذت حجابها من البهو. كان لسعاد سبعة عشر سنة و خلافا لأخواتها ، فان الطبيعة لم تدللها.

قصيرة و سمينة أنفها أفطس يتربع على نصف وجهها. اصبحت تكابد نكران ملامحها اكثر فأكثر لتنسى، لاشك، ظلت محتمية بتدين ساخط. متزمت و بليد. لا يذكر نافا أنه راها تقهقه من الضحك منذ عشرية من الزمن.

بعد انصراف أختيه، نادى نافا أمه ليتخبر ان كانت هناك مهام له. مطت شفتيها اذ لم تجد شيئا اتثابيا تخبره به. كانت قلقة على صحة الشيخ، لكنها كانت تدرك ان ذلك لي من شأن ابنها.

لقد التمست من عمتك أن تأتي لمساعدتي. ان نقص النوم قد صرعني. لا أنا و لا أخواتك قدرنا ذلك. لا بد من أحد يتناوب معنا على وضعه و التكفل به.

قبل أن يخرج، رمق أميرة و تساءل ان لم يكن من أن يجد لها زوجا..

كان قد سمع أن الإمام يونس ينوي الزواج و له احترام عميق لعائلة وليد.

- سيكون ذلك بكل فرح، سمع و هو يغمغم عند وصوله الباب.

سمعه حمزة أيوب في أسفل السلم. بطاقينه المتسخة المنسحبة حتى الأذنين. كان يلبس صالوبيت ملطخة ببقع الدهان و حذاء عفن. ادرك نافا أنه ليس هنا من أجل مهمة إلا أن حضوره يحيره.

- تمهل ، طمأنه ثانية دهان العمارات.

رافقه إلى موقف السيارات حيث يصف نافا سياراته – الطاكسي. دون أن ينبس ببنت شفة. فحص الزيت و الماء داخل مبراد محرك السيارة، وجه بضع ركلات للعجلات ثم أدار المحرك.

ما الذي يحدث؟

سأوضح لك ذلك.

لم أعمل منذ يومين، أعلن له نافا.

انزاح حمزة ليتركه يخرج السيارة ثم صعد إلى جانبه. بنقرة أصبع فتح علبة الشمة، أخذ منها قرصة وضعها تحت شفته ثم مسح أصابعه على ركبتيه.

- هو ذاك، أعلن البارحة، أنه ألقي القبض على رشيد عباس في مقهى، في عملية روتينية لمراقبة الوثائق الشخصية. أكرر لك لا داعي للقلق؛ لم يتورط عباس أبدا في أية عملية . إنه قريب الإمام يونس، و هذا يجنبه كثيرا من المتاعب، فقط مع أشخاص من نوعه لا ندري أبدا...

عباس ليس عنيدا، هناك خطورة أن يصاب بالذعر ، إن الإمام قد قرر أن يأخذ الاحتياطات اللازمة: علينا أن نتغيب يومين أو ثلاثة، الوقت الكافي لرؤية ما سيحدث، وكيف ستتطور الأمور.

أبي مريض .

أنت لست بطبيب، من جهة أخرى ممنوع علينا ان نعرض أنفسنا مجانا. إن الأمر يتعلق بأمن الجماعة كاملة.

عباس لا يعرف شيئا عني.

ممكن، لكن يستطيع أن يكشف لهم شخصا أكثر معرفة منه بك. إذن عليك أن تتفهم الأمر ، أن تتراجع. هي أيام قليلة، المسألة ليست بهول شرب البحر.

كان حمزة يتحدث بهدوء و بصوت واهن و هو يتامل الجدران المشوهة لعمارات الحي. لم يثق نافا في هدوئه. كلمات الراكب كانت واضحة تحمل قسوة الانذارات.

لست ادري اين أذهب.

يا نافا، يا أخي، متى يتأكد في رأسك، مرة أخيرة، اننا لسنا وحدنا، و أن لدينا منظمة مدربة و مرتبة بعناية و تسهر على كل واحد منا و على أسرنا؟ عندما توصلني ستعود الى القصبة و ستترك سيارة الأجرة هذه عند داود الميكانيكي. ان تركها في موقف السيارات سيثير الشكوك. عليك أن تخبر عائلتك بأن سيارتك معطلة، و أنك مضطر للذهاب الى سطيف لشراء قطع الغيار.

اذكرك بان ابي مريض.

سنتكفل به. سيأتيك أبو مريم على الساعة الحادية عشر، عند عمر، ليأخذك الى مكان امن.

بعد صمت طويل، استقر بكل راحة مقعده، و وجه ضربة جافة على فخذ نافا.

إهدأ، خو، لا تقلق، أطمئنك.

انتظر نافا عند عمر حتى الساعة الواحدة، لم يظهر أبو مريم، و متأخرا بعد الظهر أفادتهم مكالمة هاتفية معلنة أن وضعية الانذار قد انتهت. أطلق سراح عباس رشيد، مطمئنا عاد نافا عند الميكانيكي ليسترجع سيارة الأجرة.

لمدة شهر لم يلتمس منه أحد شيئا، سواء تعلق الأمر بنقل " عابر " أو من أجل جمع الأموال.

رجع الى عمل بشكل طبيعي، يقطع شرايين المدينة، منتبها في طريقه إلى الشرطة و قد دعمت وجودها حول المواقع الحساسة، لتعيد تمفصل و توزيع قواتها تبعا للتهديدات، تشكل الحواجز من ماشطات الية و من الالات

مصفحة. إذا لم يكن لأحد من قبل أن يجرأ أو أن يجازف في القصبة و باب الواد فقد استرجعت شيئا فشيئا الأحياء و الشوارع الرئيسية السكينة.

تتداول إشاعة مفادها أن عناصر من المخابرات قد استطاعت أن تتسلل إلى صفوف الأصوليين. سقط الحذر فجاة في وسواس الجوسسة، الوشاية تلاحق أقل شذوذ او تصرف مريب ما. جند الأطفال لمراقبة الطاغوت و المناضلين الإسلاميين على السواء. و للرد على حضر التجول المفروض من قبل السلطة، فإن هناك آخر أصدره الأمير. عمليات تطهير دموية حصلت في أوساط الأصوليين، و أيضا في شبكة الدعم. بين الأجسام المقطعة التي جمعتها الحماية المدنية في الساحات الواسعة بعضها كان لمتعاطفين مع " الفيس"، تمت تصفيتهم من قبل أندادهم في التنظيم.

من جهة أخرى فإن حملات و مداهمات التفتيش أصبحت أكثر جرأة و أصبحوا يردون باستمرار على الإعتداءات. إن نينجا-D/Z- نخبة الشرطة بدأوا يستولون شيئا فشيئا على الميدان بمنهجية و فعالية. يظهرون في الليل، يعزلون العمارة المشبوهة، يقتادون صيدهم، و ينسحبون بسرعة البرق. معارك منظمة تندلع هنا و هناك. أثناء الإشتباك، تعلوا الشتائم الفاحشة و تبادل الرصاص. إن الخسائر الاولى المعتبرة أضعفت بسرعة الجماعات المسلحة في قطاع وسط المدينة. في ليلة واحدة تمت مداهمة مجموعة من الاصوليين متكونة من تعة عناصر، في كوخ قذر. عند الفجر رميت بجثثهم مشوهة المعالم في شاحنة لتدور بهم الشوارع. كان افراد الشرطة يطلقون الرصاص في الهواء دلالة على الانتصار. ينظر إليهم المتسكعون و هم" في إحتفالهم هذا" بعيون مليئة بالكراهية. لا يتأخر انتقام الأمراء ليأتي الرد

سريعا. دورية من عناصر نينجا-DZ- تباد في بضعة دقائق وسط سوق. هنا أيضا حضر المتسكعون المجززة و هم يكثرون باشمنزاز.

لم يكن نافا قلقة اية لحظة. يوقفونه بالصدفة أثناء حواجز تفتيش ، ينزل راكبيه من الزبائن يمرر حقائبهم للتفتيش والفحص. مرات ، تحدث ان تثور اعصاب شرطي ما الا ان نافا لا يسقط في الفخ، يتصرف بصبر ، يلوك كراهية دون ان يكز على اسنانه، يتركونه ينتظر طويلا على حافة الطريق، ثم يخلون سبيله.

في البيت، بدأ الشيخ يتعافى. لم يقف بعد على رجليه ومع ذلك ، فإنه و تبعا لأمزجته المتعكرة يفاجا و هو يحتج ضد عالمه هذا... و كان ذلك رائعا.

كان نافا يفكر بجدية في تزويج اميرة. الامام يونس لا يصرح بنواياه. لا يفصح عن ذلك الا عن طريق وسيط. كل ساكني حي القصبة يعرفون أن عينه على بنت ال وليد. في بعض الامكنة يغض الناس الطرف عند مرور نافا. لانهم يتحملون حتى تعب قطع الشارع للحظو لمصافحته، لا يخفون التملق له، و أما أصحاب المقاهي فيرفضون قطعا اخذ نقوده، حتى عمر زيري يبدو منسحقا أمامه.

و ذات مساء جمد دمه، توقفت سيارات الشرطة عند باب عمارته. كان الشارع مكتظا ، عائلات كاملة تتدافع لتطل من الشرفات.

جاؤوا ليأخذوك. أخبره طفل صغير.

رجع نافا أدراجه. و بينما هو يبتعد، كانت جدران طفولته تموج من حواليه هاربة مثل سراب. تنحفر رأسه، وفي أذنيه صرير حاد، صدره يشتعل مثل حزمة من تبن، لم يعد يسمع غير انفاسه المتقطعة. ضربات هراوة في صدغيه، لم يعد

يرى غير الأزقة تتخلى عنه، تعزله، تعرضه. استولى الخوف على أحشائه. تفطن فجأة إلى أنه ريع العطب. بينما نصف صريع يائس كلية بدأ يجري... يجري... يجري.

هنا تستطيع النو مطمئنا، تنام على اذنيك الإثنتين.

كان نافا مصدوما. لم يكن ليتخيل مثل هذه الحالة المزرية، العالم الذي يجرجره أبو مريم فيه عالم لا يتصور. مئات الأكواخ الرهيبة تتكدس فوق الساحة الواسعة، سطوح مكسرة، أراضي مستورة مرقعة بصفائح معدنية متعرجة وقطع سيارات، نوافذ مقطعة في صناديق مغطاة بزجاج وقاية مغبر و بكرطونات بالية، مستنقعات بمياه قذرة مليئة بالحشرات. مقطورات مخلعة نائمة في عرض " باحات" ، كثبان من الأوساخ المنزلية و في وسط هذا العالم المرعب، اشباح تتجول، تنظر داخل جمجمتها. الوجه ممتد و كأنه في حالة تشنج. كنا في أكواخ من صفائح في الحراش على مسافة قريبة من العاصمة. أبدا لم يشك نافا وليد في وجود انحطاط مدقع وفقر إنساني على ابواب البهجة. هو الذي ولد و ترعرع في أطلال و بيئة القصبة.

هل ظننت أنك وصلت إلى العمق، في سوق الجمعة، يقول له ابو مريم، إذن فأنت لم تر بعد شيئا.

تساءل نافا كيف يمكن لمخلوقات بشرية ان أن تعيش في مثل هذا القبح. مكدسين كما اتفق وسط الخردة القمينة، و هذه الرائحة النتنة. كيف يفعل الصغار كي لا يعورون في الممرات المشوكة بسبانك الحديد، بسياج مثقب و اسلاك شائكة،اي ضريح دنسه هولاء الناس، أية لعنة رماها عليهم كي يستحقوا أن يمضوا عقابهم في هذه القاذورة و بهذه الدناءة.

لهذا نحن نقاتل يا أخ نافا.

نعم، قال متنهدا.

هنا لن تخشى شيئا. مضيفونا يأوون حتى الشيطان اذا وافق

على أن يخلصهم من هؤلاء الحقيرين الذين سرقوا منهم كل شيء.

قبل ان يتسلل الى داخل كوخ، فكر نافا في أن يعود ادراجه ليهرب الى اي مكان، بعيدا، بعيدا جدا عن متحف الرعب هذا.

كان مقتنعا بأنه لن يستطيع قضاء ليلة واحدة، إن شعورا باليأس يكنه. فجأة بدات الصور تتزوبع في راسسه، انتابه احساس بكراهية كل تلك الصور، الحسنة منها و السيئة، كراهية الأقارب و الاصدقاء، أقارب و اصدقاء البارحة واقارب و أصدقاء اليوم، كراهية يديه، رجليه، عينيه، كراهية العالم باسره. كيف وصل إلى هذا الحد، ما الذي ارتكبه فوق هذا الجناح المنسي من البشرية. تنكرت له الملائكة والشياطين. عم جاء يبحث.

تردد كثيرا قبل أن يتخطى عتبة الكوخ.

مثل هذه الليلة، في غابة باينيم، قوة خادعة كانت تدفعه نحو قدره بهدوء الجلاد و هو يدفع المحكوم عليه نحو المشنقة.

ينتبه إلى أنه لم يحاول المقاومة. لم يكن يشعر لا بالإرادة و لا بالضرورة.

شيخ نحيل كان مقرفصا في ركن يحرك مغرفة داخل قدر، رواله المهترئ يكشف عن جزء من مؤخرته، بينما ينزلق التريكو نحو الأعلى من جهة ظهره العاري العظمي. حين سمع وقع الخطو رمى بنظرة على شقفة من مراة معلقة على الجدار، دون أن يكلف نفسه عناء الاستدارة.

رائحة شهيبة. قالها أبو مريم.

انتشق الشيخ البخار المتصاعد من القدر، اعاد الغطاء المعوج فوقه ثم وقف. و برأس حذائه العتيق ازاح سرير ليفسح الطريق. تخطى ماندة ثم جاء لاحتضان القادمين. قبل بحرارة ابا مريم. لمس نافا ثم تراجع كي يتفرس وجهه:

ايحب العدس، صاحبك هذا؟

بل يفضل حصيرا جيدا لليل.

اه ا عابر سبيل.

الشرطة تلاحقه.

ينظر الشيخ من خلال كتف نافا:

لست أرى اي " شرطي" في الخارج، كم سيكون الأمر مسليا لي أن أنتف ريش بعضهم، فقط لمجرد تغيير الطبخة.

يضحك أبو مريم في صمت.

يقول لنافا:

مؤكد أنك معت الحديث عن صالح لاندوشين.

لا.

اذن، ها هو ذا. شارك في حرب الهند-الصينية و في ثورة 54 و في حرب الحدود ضد المغاربة سنة 63. إنه لا يتعب و ما زال يتسلق الجبال أسرع من ثعلب. إنه دليلنا. انه يعرف الأدغال أكثر من معرفة جيوبه.

طبيعي، قال الشيخ و هو يقلب جيوبه، لا شيء مهم هنا بداخلها.

أحس نافا ببطنه يتلوى ألما.

سوف تقودني إلى الجبل.

لن يكون ذلك مباشرة.

طلب الشيخ من ضيوفه أن يستريحوا. خرج إلى الفناء. لم تكن لنافا القوة الكافية حتى للجلوس. نظر حوله كحيوان وقع

في شباك صيد. كان يبلع ريقه بتشنج ليصفو و ليتضح صوته.

أنا لست مستعدا للذهاب إلى الجبل، غمغم نافا.

لا تسبق الأحداث، نختبئ هنا موقتا.

كم من الوقت؟

هذا متعلق بأوامر الشيخ يونس.

عاد الشيخ بصينية محملة ببيض مسلوق، زيتون، خبز، وعلب عصير البرتقال. وضع الكل فوق مائدة... قرفص على الأرض وانتظر أن يفعل الضيوف مثله.

كان أبو مريم أول من تقدم للأكل.

رفض نافا الأكل ، غمره اضطراب فشوه ملامح وجهه.

الصديقك مشكل ما؟

واضح أن هذه هي أولى...

التهم الشيخ بيضة مصحوبة بجرعتين من العصير. أحدث صوتا من شفتيه.

يا صغير ، سيكون الأمر على ما يرام. في البداية نشعر بالغربة، هذا طبيعي. ثم بعد ذلك ستجري الامور سلسة وطيعة.

تقبل نافا ذلك دون اقتناع.

هل تومن بالقدر ، يا صغير ؟

اسمي نافا.

حسنا ، هل تومن بالقدر يا نافا؟

لا أدري.

إذا انطلقت من مبدأ بأنه لن يحدث لك شيء إلا بما شاء الله، فقد نجوت. هذا هو القدر. المهم هو أن لا نشك في إيماننا، أليس بصحيح ذلك يا أبا مريم؟

نعم هذا صحيح.

في الهند-الصينية ، لم أكن قد تجاوزت العشرين من عمري، أتذكر أنني و بمجرد وصولي انفجرت شاحنة على لغم. لم يكن لنا الوقت لجمع أشلاء و بقايا الأصدقاء، سقطت قذيفة مدفع على القافلة، سقطت أنا الاخر مقلوبا، أتفهم. كنت أنتحب مثل طفل ضائع في الأدغال. الليالي كانت تحترق بلهيب

الصواريخ المضيئة و من الإنفجارات. إنه الجحيم، يا فتى. كنت على حافة أن أصبح مجنونا. القودو و الريح الموسمية، الفخاخ في الخيس. كنا نتقدم، سواطيرنا أنهكت. عند منعطف شجرة، هاهو المستطلع أو المسبل يصاب برشقة طلقات في الوجه. عند الخروج من حقل ارز، إنها الكتيبة بأكملها التي تذوقت ثمرات الرصاص، في كمين نصب لها. لم يجد حاملو الجرحى ضالتهم. هناك، و أمام هول الحدث، من الرجال أصيب بانهيار عصبي حتى قبل بدء الهجوم و الرد على رشاشات العدو لاسكاتها... ثم ذات صباح جميل، قلت لنفسي :" صالح، يا صالح انت في هذا المأزق منذ شهور، و لم تصب بأي خدش، هل بإمكانك أن تفسر لي ذلك؟ أنا سأفسره لك. لن يحدث لك إلا ما كتبه الله لك. هذه هي الحقيقة. الباقي ، لا يهمك...." قضيت شقاء سنتين . لم تكن تلك الأرض بلدا، إنها مدفن شاسع للجثث. كنا نقضي معظم الوقت في دفن موتانا أكثر ما كنا نقضيه في الرد على الهجومات. لا زلت أسمع دوي المدفعية و قصف المدمرات... مسرحا من الجندية، قلت: ياللشجاعة !! لقد مرت العاصفة بسلام. رميت خوذتي على الأرض و استرجعت عمامتي. عند رجوعي إلى الوطن، كانت الثورة التحريرية في انتظاري على رصيف المحطة. لم يكن لدي حتى الوقت لتقبيل أمي... الثورة التحريرية هي الأخرى لم تكن جميلة و لا

مريحة. لن أحكي لك ذلك، ليس أقل من ثمانية و عشرين كمينا... فلا قنابل النابالم و لا التمشيطات من كل نوع استطاعت أن تمسني، لأن الله لم يرد ذلك...

كيف تفسر هذا، فمع كل هذه الحروب التي خضتها، لم تصب و لو بجرح؟

قام الشيخ، و بحركة مسرحية، رفع التريكو عن سرته:

كيف تسمي هذا؟ لقد دخلت رصاصة من هنا و خرجت من هناك، أضاف ذلك مدخلا أصبعا في مؤخرته. انها، ودون شك، قذيفة، لأنه و إلى حد اليوم، عندي ثقب في المؤخرة لم يلتئم بعد.

انقلب أبو مريم على المرفق مقهقها.

في حين لم ينبس نافا و لو ببسمة.

وصل حمزة ايوب في ساعة متأخرة من الليل. وجدهم على مائدة العشاء. تركهم ينهون طعامهم، جلس فوق صندوق، كان المظهر بئيسا. لم يستطع نافا تحمل نظرته الكامدة، قاطع أكله و توجه جدهم على مائدة العشاء. تركهم ينهون طعامهم، جلس فوق صندوق ، كان المظهر بئيسا. لم يستطع نافا تحمل نظرته الكامدة، قاطع أكله و توجه اليه:

ما هناك؟

حدق حمزة في أبي مريم. فهم هذا الأخير فحوى الرسالة من خلال إشارة أرسلها بحركة من رأسه. أذن له بالكلام. ببطء، وضع حمزة يديه على كتفي سائق الطاكسي، شاعرا بالرعشة و بالهلع الذي يتوطنهما، تنحنح ثم قال:

لدي أخبار سيئة جدا ، علي أن أبلغك اياها، يا أخي نافا، بشأن أبيك...

أتمنى ألا تقول لي إنهم تجرأوا على اعتقاله، انه عجوز مدنف...

الأمر أخطر من ذلك، يا أخي نافا.
لا، لا ، هذا غير ممكن...
الطاغوت ، لقد اغتالوه في بيته، أمام ذويه، إني اسف.
لا، لا ، إنه ليس هو، ليس أبي، إنه لم يفعل شيئا. هذا غير معقول...
تناول نافا رأسه بين يديه و انزلق بهدوء الى مكان ما...

القسم الثالث

الهاوية

اذا كنت تريد ان تذهب
الى السلم النهائي
ابتسم للقدر الذي يضربك
و لاتضرب احدا.

عمر الخيام

لقد قتلت أول رجل، أول ضحيتي يوم الاربعاء 12 جانفيي 1994 على الساعة السابعة و خمس وثلاثين دقيقة. لقد كان قاضيا. كان خارجا من بيته ، متوجها نحو سيارته. ابنته ذات الست سنوات كانت تسبقه، ضفائرها مزينة باشرطة زرقاء، محفظتها على ظهرها. لقد مرت بمحاذاتي دون ان تراني. القاضي يبتسم لها، لكن نظرته كان بها شيء من الألم. و كانما حيوان مطارد. قفز إذ اكتشفني لابدا أمام باب العربة. لا أدري لماذا واصل سيره و كان شيئا لم يكن. ربما اعتقد أنه وبتجاهل التهديد يكون له الحظ بابعاده. أخرجت مسدسي واسرعت للالتحاق به. توقف، واجهني. في كسر ثانية، هرب الدم من وجهه و انمحت ملامحه. في لحظة ظننت أنني اخطأت في الشخص. "خوجة ؟ سألته. - نعم " ، اجابني بصوت دون نبرة. سذاجته - أو ثقة بالنفس- جعلتني أتوانى. شعرت بكل أتعاب العالم كي أرفع ذراعي. تسمر أصبعي على الزناد. " ماذا تنتظر؟ صاح بي سفيان. أجهز لي على

ابن الزانية هذا." لم تستوعب الطفلة الأمر جيدا. او انها كانت رافضة قبول مأساتها. " هذا غير صحيح، قال لي سفيان معنفا. ليست الآن ساعة التخاذل. انه ليس أكثر من وقح." الارض تهدد بالتعري من تحتي. القيء يغمرني، يشبك احشائي، يكززني. لقد ظن القاضي ، في ترددي، بادرة حظ في حياته. لو أنه ظل هادئا، ربما لم يكن بإمكاني الحصول على قوة للذهاب الى أبعد. كل طلقة نار كانت تزعزعني من راسي الى أخمص قدمي. لم أدر كيف أتوقف عن اطلاق الرصاص، لم أنتبه لا الى الدوي و لا الى صراخ البنت الصغيرة. كنيزك، اخترقت جدار الصوت، ساحقا نقطة اللارجوع. لقد أقدمت على دحرجة الجسم والروح نحو عالم مواز حيث لن أعود منه أبدا.

ناولني سفيان كأسا من الماء و قال:

كيف تشعر ؟

لم أكن أشعر بشيء.

لم اكن أرغب في شيء: لا في الشراب، لا في الاكل، لا في الحديث.

متهالكا على أريكة، أخذت لي مكانا قبالة النافذة و اخذت استنشق بشراهة الهواء الشتوي البارد. في الخارج، مطر خفيف كان يسقي الحديقة. مزعزعة بالريح؛ هناك شجرة، كانت في اهتزازها كمن يلعب الغميضة. من بعيد، يسمع صوت عجلات السيارات تنزلق من فوق الطريق المغمورة بالمياه.

لم يكن باستطاعتي فهم ما جرى.

تملكني شعور غامض بأنني *قد أقدمت على الخطوة الأولى* ، و أن لاشيء سيكون مثل السابق.

بالتناوب، كانت ومضات ضوء تخطط السديم في رأسي. في لحظة عابرة رمقت وجها ، شفة، ضفائر مزينة، المسدس الذي يهيج في قبضتي، السماء و الارض الدائرة من حولي كرحى مجنونة تطحنني. ثم بعد ذلك كل شيء انحبس، صمت، انطفأ. لم يبق الاي، وجها لوجه مع ضميري. أشد بعنف على متكئي المقعد لقمع أو كبح رد فعل ما... لا رد فعل. *لم أكن أشعر بشيء*. لم تمسك يدي اية رحفة.

كنت أراني ثانية في مكان عملية الاغتيال. على رؤوس اصابعي. كنت ارى للمرة الثانية الجسد الذي يهوي تحت طلقات رصاصي، ينهض، يهوي ثم ينهض كما و كأن صور الفيلم تلف بسرعة. لم أنتبه و لم أبال لا للطلقات و لا لصرخات الطفلة الصغيرة. أعتقد أنني اصبت بالصمم لحظة اطلاق النار. لقد اضطر سفيان الى احتضاني كي يسحبني الى داخل السيارة. دون تدخله هذا، كنت ساظل مسمرا أمام ضحيتي. لم أنس ببنت شفة منذ غادرت المكان، منذ انسحابنا من أمام الضحية. غضب أو غيظ شديد كان يلتهم داخلي. اني اعاتب المسدس الذي لم يرد أن يسكت و الأصبع التي ضغطت على الزناد... التي فعلتها. كنت حاقدا و بشكل خاص على القاضي الذي *قبل بقدره و مصيره*، هكذا، لا لشيء إلا لأن أحد الغرباء قرر أن يغتاله، في الشارع، مثل دابة. اني أعاتبه ، هو الاخر، لأنه استطاع أن يجرني إلى هاويته، ان يورطني في المأساة... إني حاقد على الرجال الذين لم يكونوا سوى عبارة عن مظاهر خداعة، باعوض تافه، تماثيل بأقدام من تراب إذ أن رصاصة بحجم أصغر من حجم قطعة الشطرنج بمرتين كانت قادرة على أن تمحو و في لحظة...

كنت ساخطا على السهولة و البساطة المشوشة و المبلبلة التي بواسطتها يسحب *الرجل* ، الواحد وقاره و جلاله،

مغادرا العالم من الباب الضيق، هو الذي يمثل صورة الذي هو على كل شيء قدير .

لقد اكتشفت و بأقصى الوحشية ، بان ليس هناك من هو اكثر هشاشة و انثلاما، اكثر فقرا و ضعفا، اقل تماسكا من الرجل...

كان ذلك مرعبا و مخيفا. غير محتمل، مثيرا للغيظ و الحنق.

بعد الضحية الثالثه، كل شيء سيصبح عاديا، على ما يرام، تكهن لي بذلك سفيان.

14

لقد نصح نافا وليد ألا يحضر جنازة والده، و ألا يزور عائلته. إنه مطلوب ، من قبل الشرطة التي تبحث عنه في حي القصبة و باب الواد حيث الأمور تتعقد أكثر فأكثر من خلال الإعتقالات التي يقوم بها رجال الأمن.

بعد انقضاء ثمانية و أربعين ساعة عند صالح لاندوشين، شعر نافا بأنه بدأ يجن. إن فقدان الأب الفجائي يشعره بالذنب. منطويا على نفسه في زاوية، معنفا صدغيه، مجترا كابته و حقده، في صمت، متضرعا إلى أصدقائه أن يتركوه و شأنه. كان يرفض الأكل، أو الاستماع الى عبارات التعقيل، كان يرد بعنف على كل شهادات التودد و الود. في آخر المطاف، طلب أن يلتحق بالجبل. لم تكن في رأسه سوى فكرة واحدة: الانتقام.

- لا تترك الضلال يعمي عينيك، نصحه أبو مريم. معركتك ستؤول إلى الإخفاق. بقدرما تريد و ترغب في أن تصفي حساباتك، فإنك ستعزل و ستجد نفسك وحيدا. و الحال هذه، علينا أن نظل موحدين، مجموعين. حول هدف و راي واحد: الثورة الإسلامية. لقد أغتيل أبوك بدناءة. انه ليس الأول و لا الأخير. إنني أحذرك على أن تتمالك نفسك. اننا بحاجة

الى الوضوح و الصحوة. إن الحقد رفيق و شريك ضال وقبيح. علينا الحذر منه. في مقابل ذلك، إن حربنا حرب مقدسة. إن الأمر ليس عبارة عن مسألة شخصية، يا أخ نافا. ان الحرب تتطلب منا أن نكون عازمين، لكن عادلين ومتنورين. إن مستقبل الأمة مرهون بذلك. سنعثر على قتلة ابيك. ذلك لا مفر منه. سنطاردهم ذات يوم ، و نعاقبهم . في انتظار ذلك، عليك أن تعود الى الصفوف. لقد حزنا لكثير من مثل هذه اللاتفاهمات. عكاشة الحلاق فقد ابنه خلال غارة لرجال الأمن. ودون أن يستشير أحدا، فقد ذبح أول شرطي صادفه في طريقه. لقد كانت مبادرة حزينة ، مؤلمة و رعناء. لقد كان هذا الشرطي من رجالنا. فهو الذي كان يمدنا بالمعلومات عن كل الخرجات التي ينوي زملاؤه القيام بها. اذن...

أصر نافا على أن يلتحق بالجبل. اعترض الشيخ يونس قبل أن يدمجه في مجموعة سفيان.

كان سفيان رجلا أنيقا يبلغ من العمر ثلاثة و عشرين عاما، طويلا و رياضيا. شعره الطويل المسدول كان يصبغ عليه ملامح هيئة حصان. بوجهه الطفولي و ابتسامته الهادئة المؤثرة، كان قادرا على التأثير في محيطه بالقدر الذي يبهج به حتى ضحاياه. كان يقود مجموعة مختارة بعناية، مؤلفة من ثمانية عناصر: شباب لا يتجاوز عمر الواحد منهم الثانية والعشرين، و جميعهم من عائلات الأغنياء و الرجال الصناعيين . مركز قيادتهم موجود في قلب الجامعة و التي انطلاقا منها كانوا ينصبون فخاخهم التي كانت لها سمعة العمليات الدقيقة.

مختصة في تصفية رموز السلطة القضائية، الشيوعيين ورجال الأعمال، كانت المجموعة في غاية التلاحم، سرية

ودقيقة، و التي لم تكن لتترك شيئا للصدفة. مهندمين بعناية، محلقين وجوههم كل صباح و بحيوية مثالية، كانت عناصر المجموعة مكونة كلها من الطلبة. كان البعض منهم يشد شعره الطويل في تسريحة شينيو ، آخرون كانوا يتزينون ويتباهون بأقراط من الذهب في آذانهم. •في الجامعة، كانوا يعدون من أبناء الأغنياء ، إنهم فوق كل شك، بعيدا عي أية شبهة. كانت هناك *فتوى* صادرة تبيح لهم ريادة الكاباريهات و الأماكن والمحلات الفاخرة حيث يجمعون المعلومات عن الأشخاص المستهدفين. بفضل " هيئتهم" المرحة، كانوا وبكل طمأنينة يجوبون الشوارع الرئيسية، المحفظة تحت الذراع، المسدس ملفوف في المجلة.

على الفور، وجد نافا راحته و جوه بينهم. لقد وجد قليلا من جو الحياة الناعمة التي عاشها عند آل راجا، الأضواء المدهشة في الصالونات و رائحة الأبهة تلك التي إذا ما قورنت بالبيت القصديري لصالح لاندوشين فالأمر مختلف تماما و أقل ضغطا.

خلال الأسابيع الأولى سكن عند فاروق جلاب الماء للمجموعة و ذلك في غرفة جامعية . جاهدا نفسه على النسيان، فقد حرص نافا على أن يكون نفسه أيديولوجيا. كان يقرأ كتبا دينية، يصلي كثيرا دون أن يمل أو يتعب من الاستماع إلى خطب الشيوخ المصريين، السودانيين والمشارقة. كان فاروق يملك العشرات من هذا النوع من الأشرطة. هو نفسه كان يحرر البيانات و يجند المتطوعين الجدد من الأوساط الطلابية.

ثم دعاه سفيان للإقامة عنده في فيلة جميلة فاخرة ،جاثمة على بستان في أعالي حي ابن عكنون. كان سفيان يقاسم هذا السكن مع زوجته هند التي تكبره بأربع سنوات، امرأة

باردة و شرسة، بصفرة رخامية، حساسة للجواهر كما للتالف مع الاخرين. كان لها تـاثير قوي على المجموعة. لم يكن لأحد من عناصر المجموعة الجرأة للتطلع اليها، للتحديق في عينيها. كانت تضع كل واحد عند حده و فورا و دون تردد أو ملاطفة. لقد عرف أدرك نافا عينها ومنذ أول لقاء، حينما مد لها يد المصافحة، و هو على عتبة البيت، نصحته و بجفاء ردا على حركته " الزندقية" تلك، أن يعود الى المدرسة القرانية للتعلم. معتقدا أن تصرفها هذا ليس أكثر من مزاح، ابتسم نافا؛ إلا أن ابتسامته انمحت فورا غندما اكتشف في بؤبؤ عيني مستقبلته شعلة تثير الرعب و البرودة في الظهر.

هي التي كانت تقود السيارة عند العمليات. في هذه المناسبات كانت تلبس على الطريقة الغربية، تتزين و تطلق شعرها الطويل الأسود فوق كتفيها. كانت تعرف كيف تتجاوز الحواجز الأمنية كمن يقود سيارة اسعاف.

عند العودة الى البيت، كانت تسرع لمسح مساحيق الماكياج، وللتخلص من من لباسها الأوروبي و كانما هو لباس نيسوس.

مباشرة، كانت تغرق في مطالعاتها الدينية.

لقد تعرف نافا على متطرفين كثر و لكن تطرفهم لا يساوي شيئا مقارنة مع هذا الذي تمارسه هند.

أقام نافا بالطابق الأرضي. وضع مضيفاه تحت تصرفه صالونا مجهزا بجهاز تليفزيون كبير و مكتبة و حزانة ملابس سخية.

تصرف كما في بيتك، هكذا خاطبه سفيان.

إنك تدلعني.

شيئا خر: أريد أن نترك شعرك يطول و أن تحتفظ لك بذيل-حصان شعري. إن لك وجها صبوحا، يجب استغلاله جيدا. عندنا، هنا، القانون الأساسي بسيط جدا: الجمع ما بين الضروري و الرائع، بمعنى عليك أن تعتني بهندامك ومظهرك ثم ان تضرب بشكل جيد و صائب ثم الإختفاء أو الاندثار في الطبيعة، كما و أن شيئا لم يقع.

في اليوم الموالي، وفي الطابق التحت-أرضي للفيللا، شرع في تدريبه على استعمال الأسلحة النارية.

ذات مساء، حيث الضباب قد استوى على المدينة، لحق به فاروق. ألصق على الجدار صورا لرجل في الأربعين من العمر، انه محام اتهمته الجماعة الملحة بأنه لم يدافع بشكل جيد عن " *الإخوة* " تم إيقافهم و بشكل متعسف من قبل قوات الأمن. عرض فاروق بروتريه كاملا لهذا المحامي: عاداته و معاشراته و معارفه و السبل التي يسير فيها يوميا... كان نافا يستمع بعناية، ما كان ليتوقع بأنه سيكون أول صيده. اعتقد أن قلبه توقف عن الدق حين وعده سفيان بأن العملية ما هي إلا قطعة كاطو و أنه سيكون إلى جواره يحميه عند الضرورة.

بعد تنفيذ العملية ضد المحامي، لم يتأخر نافا طويلا كي يعترض طريق قاض كان يغادر قاعة حفلات، على الساعة الواحدة صباحا. كان الشخص ضعيفا، يسحب ساقا، و يلعن نفسه لأنه لم يتمكن من فتح باب سيارته. مرة أخرى، ارتجفت يده و هو يضع مسدسه على رقبة الشيخ العارية من الشعر. يبدو أن هذا الأخير لم ينتبه إلى أن مسدسا يجرد له فقرات الدماغية. و بخروج الطلقة، انقذف طقم أسنانه الصناعية من فمه، ليسقط على غطاء محرك السيارة و ينتهي شظايا فوق البيطون.

لكي يختم شهره الأول في أحضان الجماعة بكل ألوان الطيف، و في استثناء خارج عن القاعدة اهداه فيان، على طبق شرطيا، و الذي لضخامة جثته، كان على نافا أن يفرغ فيه كل ما في خزان مسدسه لكي يرديه أرضا.

كان لسفيان الحق في مثل هذا التصرف: ابتداء من الضحية " الثالثة" تسير الامور في نظامها العادي. لقد طلق نافا كل شكوكه و كل تلك الحالات من تأنيب الضمير التي طالما لحقت به، و اخذ يترقب ضحاياه الموالين بعزم و صبر قدري.

ما الذي تجلبه من طيب لنا؟ سأل سفيان و هو واقف في البهو، المعصمان مرشوقان على الخصر.

حك فاروق حذاءه على مساحة الأحذية و بحركة بهلوانية ارسل في السماء قبعته الأمريكية فوق الخزانة، و لوح بمحفظته.

تابع الشيطان.

فرك الروجي يديه ثم نفخ فيهما، وجهه النحيف، شفرة سكين، كان مغطى ببقع الحمرة. ابن أحد الوزراء السابقين في عهد الحزب الواحد. لقد عاش فوق السحاب، صارفا أيام عطله على أطراف العالم. في السابعة عشر من عمره، كان يملك سيارة مكشوفة يجيء بها إلى الثانوية. في ذلك العهد كان يحب الفتيات و السهرات الراقصة و تقديم الهدايا.

في الجامعة، أساتذة و طلبة كانوا يتنبأون له بمستقبل استثنائي، كان موهوبا، عبقرية حقيقية. دون أن يجهد نفسه، كان متفوقا على مجموع رفاق دفعته. كان ممتازا في المواد العلمية كما في الثقافة العامة، كان يفتك إعجاب العميد. مع العلم ان الروجي لم يكن معتدا كثيرا بنفسه، كان يتابع دراساته

بلا مبالاته المعهودة. لم يكن هناك سيء يدل على انه سيتحول الى قاتل ذي مثابرة شرسة.

تغيرت حياته ذات يوم حين طلب منه فاروق في الجامعة أن يساعده في اللجنة، كان فاروق لامعا هو أيضا، من عائلة غنية ومحترمة. كان يتكلم الفرنسية، لكن تفكيرهه كان "فيس". كان الروجي مفتونا بفصاحة رفيق غرفته، بوضوح رؤاه و جمال ايمانه، بسرعة فائقة سلم أمره لجاذبيته، من اجتماع غير قانوني الى جلسة وعظ، من مسجد الى مكتبة متخصصة، بدأ الروجي يكتشف بطلان المظهر، خزي الطيش، تفاهة العالم الزائل ،واجهاته المبهرجة لا تحجب حقيقة التعفن الداخلي. هكذا اذن تخلى عن الاصطناعي ليكرس نفسه للأشياء الأساسية. كان عازما أن يضع عبقريته في خدمة القضية النبيلة، نزل من فقق غيمته، و أطلق لحية رقيقة حمراء ضحى بها بكل سرور حين فسر له فاروق الضرورية الثورية للعمل السري المطلق، عدم تغيير أي شيء من عاداتهم الطلابية و لا من علاقاتهم الإجتماعية. وصل الخطاب إلى الروجي كاملا 5على 5، واصل في الظهور بالأساليب المتصنعة لتشيتشي، خلفها يختبى داعية مقتنع. منتخب شرعي للسماء. مكلف بمهمة مفصلة على مقاسه تماما، تحضر كي يتوج، فيتولاها كما الزيارة الدينية.

كانت أولى ضحاياه هو أستاذه: دكتور في الرياضيات، ارمل دون أطفال، يعيش في مسكن صغير و عتيق شرق الجزائر العاصمة. كان هذا الأخير مفتخرا باحتضانه. اذ كأن يستضيفه باستمرار في بيته، فيتقاسما معا حساءه البسيط. كانا يقضيان الليالي الكاملة في تمجيد هذا العالم أو ذاك، وفي الحديث عن الكتاب الروس و عظمة و جدية الفكر

الماركسي.. كان الروجي يتأسف للتفكك الذي اصاب الإمبراطورية السوفياتية، ولم يكن ليخفي انزعاجه لمصير الشيوعيين الجزائريين الذين كانوا حلفاء لهذا العالم المنهار. سعيدا كان الأرمل يهنؤه على حاته الفكرية تلك.و يطمئنه عن الوضع الجيد و الصحي للشيوعيين فى البلاد، و يعده بأن يفتح له كل ابواب الحزب واسعة. هكذا استطاع الروجي ان يسجل قائمة الاساتذة " الملحدين" و على راسهم اسم محتضنه و استاذه مسطر تحته بالأحمر و الذي اغتاله مساء احتفاله بخمسينيته حيث قدم له في شكل هدية عيد الميلاد رصاصتين من مسدس كبير الحجم.

لقد نفذ معه نافا عمليتين. كان الروجي يملك صرامة وفعالية قناص محترف. كان يصوب بسرعة و بدقة بمسدسه المجهز بكاتم للصوت، و حين يقضي على ضحيته، و بطريقة الية يشمر كمي قميصه، يعيد المسدس الى المحفظة، ثم ينصرف بخطوات مطمئنة و كانه شاب متجول يمسح بعينيه واجهات المحلات في البولفارات. لأم يحدث أبدا أن جعل توسلات الضحية يده لتتردد، و أبدا لم يتمكن شبح ضحيته ولا لمرة واحدة من ملاحقته أو تأنيبه. ما ان تلفظ الضحية الاولى نفسها حتى يكون قد شرع في التفكير في الضحية القادمة.

و فتح " فاروق" محفظته فوق الطاولة، في الصالون، اخرج مجموعة من الصور، ثم عرضها الواحدة جنب الأخرى.

قال معلنا:

شيوعي وقح.

قطب نافا بنظره اذ تعرف على صورة السنمائي رشيد دراق.

هل أنت متيقن من أنه شيوعي؟
إلا إذا ما أثبت لنا العكس، قالها الروجي مبديا استهزاءا، هل تعرفه؟
أدرك نافا أن ما بدر منه هو سوء تصرف، فحاول على الفور تصحيح زلة لسانه. تناول الصورة متظاهرا بتفحصها ثم تراجع عما قاله، ثم أردف:
يااللعجب، لإنه يشبه كثيرا ساعي بريد أعرفه.
هذا الشخص ليس بساعي بريد. انه مخرج أفلام هدامة، يتعاطى المخدرات، كل خميس في مطعم اللليبانون.
ضرب فاروق على الطاولة بحفاظة كارطونية:
- إن لي ملفا كاملا عنه: رشيد دراق، سبعة و أربعون سنة، متزوج ، أب لأربعة أطفال، مقيم بحي عمران، الجناح C الباب رقم 1 ، أنهى دراساته السينمائية بموسكو. سكير شهير...
أضاف الروجي:
انه قذر ، كافر وسخ، يبدو أنه يعد شريطا عن " الأصولية" ليعرضه في مهرجان أوروبي... أنا أكره الفنانين، خاصة الشيوعيين منهم.
افتعل نافا حركات كي يبرهن بأنه قد أخطأ في الشخص، و حين رفع رأسه لاحظ " هند" و هي تحدق بحدة فيه، ثم طلبت منه:
هل حرمت من شيء ما؟
لا.
هل شعرت بأننا نتحاشاك أو وضعناك جانبا؟
لا أظن.
ضربت هند بمعصمها على المحفظة و زأرت:
اذن لماذا لا تثق فينا؟

بالطبع ان لي الثقة فيكم.
زمت هند شفتيها على ما يشبه تكشيرة حيوانية. انثنت العينان بحيثتتمركز كل طاقتهما على نافا الذي بدا مشتتا وغير مركز.
ا.. نعم؟ إن لك الثقة فينا، لهذا فانك تفتعل عدم معرفتك بهذا الحثالة القذرة على الصور.
لقد اختلطت على الصورة ب...
لا تكذب ا
كانت تشير بأصبعها متوعدة.
اندار فاروق و الروجي و قد احرجا.
سحب سفيان يديه من من جيبيه و حاول أن يعترض. ترجته هند ان يظل حيث هو في مكانه، مالت هند نحو نافا وكانما كانت تبحث عن طريقة لتذويبه في ظله. بنفس متهافت و متقاطع و بوجه مقبح، قربي هند شفتيها من أذن السائق السابق للطاكسيثم همست، بصوت غير مسموع في البداية ثم عنيفا أكثر فأكثر:
اننا لم نخترك في مجموعتنا كي نرضي شيخك يونس. هنا، لا تسامح، و لا تهاون. لقد فتشنا ملفك و درسناه بدقة، وقد قبلناك تبعا لمضمون الملف. ل
إننا نعرف من أين تجيء و إلى أي حد يمكنك الذهاب، عند من اشتغلت و إلى أي مدى يمكنك أن تكون نافعا... اننا نعرف أنك وجربت أشياء كثيرة في حياتك ،عملت في أماكن متعددة، ، بالخصوص في السينما، و نعرف الدور الذي اديته في ذاك الشريط التافه، الذي قام باخراجه هذا القذر الموجود هنا على الصورة.
ليس هذا بالخطير يا هند، قالها سفيان محرجا. إن نافا ليس سوى في عمليته الخامسة.

سادسة ا

سادسة، عاشرة، ما أريد قوله هو أنه لم يبلغ بعد سرعته الخاصة به. إننا محاربو و لسنا بآلات للموت. *لإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها*. إذا كان نافا يعتبر بأنه غير مستعد لمواجهة صديق قديم، فإن هذا ليس تخاذلا منه أو نقصا في التزاماته، كما إنه ليس بخيانة أيضا.

هذا واحد منهم، صرخت و قد استقامت في وقفتها. في الجهاد لا يجوز الكيل بمكيالين. كل شخص يحكم عليه من قبل المنظمة تتم تصفيته، دون استئناف أو احتجاج. أتعلق الأمر بوالد أو قريب أو معارف، إن ذلك لا يغير في الأمر شيئا. فبالخضوع إلى هذا المبدأ الذي لا يعارض و لا يرد، يمكننا الوصول إلى التخلص من هذه الطغم اللاشرعية التي تحكمنا.

ثم عادت للهجوم على نافا:

هل تعترف، الآن، بأنك تعرف هذه القذارة على الصورة؟

حك نافا في شعره، تأمل طرف حذائه، بدت تفاحة آدم متصلبة في حنجرته.

هل تعرفه؟

نعم ا

هل لك الإيمان الكافي لكي تجهز عليه؟

كفى، قالها سفيان، ليس لك الحق في معاملة واحد من رجالي بهذه الطريقة. إني أمنعك، قطعيا. أنا الحاكم، هنا. أنا الأمير.

تحملت هند لبعض اللحظات نظر زوجها الغاضبين قبل أن تنقل عينيها لتضعهما على أسفل رقبة نافا. كان فروق و الروجي منكبين بحزم على الصور، شدت قبضتيها ثم صعدت هند إلى غرفتها.

سيذبح رشيد دراق، أمام أطفاله.
كان نافا هناك.
لقد اغمض عينيه جيدا و بكل قواه حتى لا يشاهد المذبحة، هذا لم يكن ليبعد عنهم الصرخات المرعبة للسنمامي و التي ما ظلت تلاحقه لأيام و ليال:" غير صحيح. لست انت، نافا. مكانك ليس في جهتهم. هذا غير معقول، أنت فنان، يا إلهي ا فنان..."

واقفا أمام النافذة، كان نافا يلاحظ الضباب و هو يجتاح المدينة كسرب أشباح قادم من البحر. الاف الأكفان المحملة بحبيبات لا تلبث أن تتناثر على البنايات، فتتخذ الأحياء شكل الهياكل المومياتية ثم تصعد متسارعة دون تردد باتجاه البيوت القصديرية المتواجدة على الهضبة. مكسورة الخاطر، متقوقعة حول نفسها، كانت الجزائر العاصمة تصغي الى الرعب الذي يقرض أحشاءها و الألم المقيم بخاطرها. الظلال التي تقطع شوارعها تسرق النوم من جفونها. تلاطم الأمواج على مينائها يوقع ساعة احتضارها. هاهي العاصمة تستسلم للضياع. رهينة حزنها و يأسها ما عادت هذه المدينة تنتظر شيئا لا من الرجال و لا من الأمم الصديقة، ما عادت تنتظر خلاصا و لا رجاء لا من البحر و لا من السماء.
حاول نافا أن يتذكر أيام زمان، ذلك الزمن حيث كان الناس يحبون التسكع في الشوارع، حيث ضجيج بائعي السندويشات الرخيصة، و مغنوالحان الحوزين و جماعات الأطفال الصغار يقفزون و يتسابقون لاهين في باحة الحوش. حاول نافا أن يستعيد هذه الفترة التي كانت تفتقد الاستقرار ولكنها لم تكن لتفتقر إلى العفوية، السهرات الرائعة حول فنجان قهوة، النكات التي كانت تنطلق بسرعة الصاروخ...

لكم بدت بعيدة تلك المعالم، تلك الذكريات، لقد ماتت وقبرت !!

هل أنظف المائدة؟ سألت هند.

بالطبع ، أجاب سفيان من عمق اريكته. أحضري لنا الشاي، من فضلك.

من خلال انعكاس الصورة على زجاج النافذة، لمح نافا هند وهي تجمع الصحون من فوق المائدة فأدرك على الفور أنها لم تسامحه على كذبته. حاول أن ينقذ نفسه، أن يستدرك غلطته بأن اشترك في عمليتين كبيرتين مثيرتين، بعد عملية اغتيال رشيد دراق. إلا أن كل ذلك لم يجد نفعا و لم يعد له الاعتبار في عينها. انها لا تبدي حياله سوى النفور، و انه لا يحظى من قبلها سوى بتلك النظرات الباردة الملينة بالاحتقار و التي تسلطها بشفقة على من لحقت بهم الخيبة و الهزيمة الحتمية.

عاد نافا ليتأمل الليل. سيارة شرطة تعبر الشارع. ضوؤها المسلط على الجدران يخلق تشكيلات لونية و كأنها لوحات بألوان مائية مائلة إلى الحمرة الدموية.

يرن الهاتف.

ينهض سفيان ليجيب.

- هل جهاز التلفزيون يشتغل عندك؟ قالها صوت متهدج منتقطع الأنفاس في ا لطرف الآخر من الخط.

نعم.

ما الذي تشاهده؟

قناة فرنسية.

- غير، ثبت على قناة المؤسسة الوطنية للتلفزة الجزائرية ... و ابق على الخط

عاد سفيان إلى مكانه، تناول جهاز التحكم، ثم عاد الى الي سماعة الهاتف، اختفت الصورة المخضرة من على الشاشة، لتحل محلها أخرى توحي بالرعب: منزل يحترق وسط الأنقاض. رجال الشرطة توزعوا في مجموعات صغيرة لمراقبة الضواحي . تتسلل الكاميرا إلى داخل العمارة المسيجة بالحرس، كانت الكاميرا تتابع مخلفات الإنهيار ، جدران مسودة و قد ثقبها الرصاص، أثاث مرمي فوق الأرض، ثم انتقلت الكاميرا لتحط على ساحة حيث يسجى سبع جثث ملقات إلى جانب بنادق حرب، قنابل من صنع تقليدي، رزمات أوراق نقدية و حفيف وثائق.

- ألو ، ألازلت هنا؟

- نعم ، أجاب سفيان، لم أفهم شيئا.

- لقد تم اختراق القيادة الوطنية. لا بد أن هناك مندسين في أعلى القيادة. إنه اجتماع أساسي و محدد، سري جدا. حتى أنا لم أكن على علم بذلك.

- لقد أحصيت سبع جثث.

- لقد كانوا ثمانية. يجب الحذر. ربما يكون ذاك الذي نجا بين أيدي الطاغوت.

- لم أستطع التعرف على أي أحد منهم، سأل سفيان بقلق.

- انها عناصر القيادة العامة بكاملها. هل تفهم ما أقوله لك. إنها ضربة قوية و قاسية. ستكون لها عواقب وخيمة على الحركة.

- هل الأمير جعفر من بين الضحايا؟

- نعم، هو و المنسق الوطني الشيخ نوح و و المنسقان الجهويان للناحية الغربية و الشرقية و الوسط و أمير ً المنطقة ا و أحد ممثلي المنظمة في أوروبا ، و ... هل هند موجودة بجوارك؟

- انها تغسل الصحون.
- تدبر الامر معها.
اصابت سفيان ما يشبه الرعشة.
بلع ريقه باختلاج، و سأل مندهشا:
- أبو الهول؟
- نعم... لقد قتل هو الاخر.
كأنما حدسا غريبا أنذرها، وقفت هند عند عتبة باب الغرفة، عقدت ذراعيها حول صدرها. حدقت مليا في زوجها و هو يتصبب عرقا حاول أن يدير وجهه بسرعة.
-ألو، استأنف الصوت الذي في الطرف الآخر على الخط حديثه.
- أنا معك دائما.
- أخبرها، لكم أنا حزين لهذا المصاب.
- سأنقل لها ذلك.
- عليكم أن تحذروا جيدا أيها الإخوة، فهذه ضربة قاسية وصاعقة، لكننا سوف نتجاوزها، سوف نتخطاها.
- إني لا أشك في ذلك و لو لثانية واحدة. سأتصل بك لاحقا، إلى اللقاء.
وضع سفيان السماعة، مرر معصمه على شفتيه اليابستين الملتصقتين. أما نافا الذي تابع الصور على الشاشة، فقد أدرك أن كارثة قد ضربت بعنف الحركة. لم يتمكن من التعرف على أية جثة منها، ربما فقط تلك الجثة التي كانت معروضة في الوسط و التي ذكرته بشخص كان قد صادفه ذات جمعة عند عمر زيري.
كان يراقب شفتي الأمير و هو يقبض على أنفاسه.
رفع سفيان نظره في زوجته. لم يكن يعرف كيف يبلغها الخبر.

ثم استرجل بعفوية قائلا:
- شيء مروع قد حصل يا هند.
شعر نافا بوجوده زائدا. نحنح نحنحة خفيفة في كمه ثم انسحب.
- ابق في مكانك، قالتها هند، موجهة كلامها لنافا.
اتكأت بكتفها على عتبة الباب، ثم اخذت تتامل ثرية الصالون، ثم عادت لتلاحق نظر زوجها:
- من كان على الهاتف؟
-اسحاق.
- اه...
- لقد عرضت التلفزة ما جرى. لقد تمت تصفية قيادة الأركان العامة، لقد كان هناك: جعفر و الشيخ نوح و أبو هريرة و أبو عبد الرحمان زكرياء و سليمان أبو داود و احد الإخوة الذي جاء من أوروبا...
- و أبو الهول، أضافت هند بنبرة هادئة.
دعك سفيان حاجبيه، ثم سألها:
- كيف علمت بذلك؟
- لم يكن أخي ليفارق جعفر قيد أنملة. فإذا ما قتل هذا الأخير فإن لأخي المصير نفسه حتما.
- أنا آسف.
عدلت هند من وقفتها،بهدوء، بحركة لينة من حوضها، كانت تفرك ذراعيها دون أن تفارق عيناها زوجها. لا شيء يومض أو يتحرك في ملامح وجهها. كانت تبدو غير متأثرة، هادئة و رائقة المزاج.
هزت رأسها ثم قالت:
- أذهب لأحضر لكما الشاي.

خلال أسابيع ، التزمنا فترة الترقب. البلد يعيش حالة هدنة. لا عمليات، و لا أخبار من المعسكرات في الجبال. الضربة التي تلقتها الحركة كانت قاسية ، نادرة في عنفها. تدريجيا، وبمرور الوقت كنا ندرك مدى خطورة هذه الضربة . أمر سفيان رجاله بالتوقف عن كل العمليات والعودة إلى مدرجات الجامعة في انتظار التعليمات الجديدة. بموت جعفر، فتح مجال الصراع حادا حول من يخلفه. كل أمير يموت فان اختفاءه يسحب خلفه سقوط الحاشية التي تدور في فلكه. فعلى الفور يتم تفكيك الحاشية و عناصر الحراسة و يتم ابعاد أعوانه المقربين، بعضهم الأخر يتم الاحتفاظ بهم لمدة قصيرة ريثما تنطلق قاطرة المجموعة الجديدة، لتختفي ذات ليلة دون أن تترك أثرا.

كان سفيان قلقا، منزعجا، فصهره أبو الهول لم يعد هنا، وهو الذي كان يضمن له الاستقلالية النسبية التي كانت تتمتع بها مجموعته. كان خائفا من مجيء أي أمير جديد معارض فيخلخل الشبكة التي أتقن تنظيمها منذ سنوات. كان يخشى أن يبعد من منصبه هذا ليتم نقله إلى منطقة أخرى لن يكون فيها مرتاحا في الحركة.

الخلافات، بل أكثر من ذلك الانشقاقات، هي ما كان يشد حبل الحركة. فبعد تنظيم "الحركة الإسلامية المسلحة" ، ظهرت في الساحة تنظيمات عسكرية أخرى، أكثر فأكثر انتشارا. و إذا بتنظيم " الجيش الإسلامي للإنقاذ" يرى نفسه مهددا متجاوزا من قبل " الجماعات الإسلامية المسلحة" التي برزت دون أن نعرف مكان نشأتها، جماعات مسلحة مريعة ومخربة، مجهزة تجهيزا قويا، مؤطرة تأطيرا أحسن، نشطة و مرعبة. خلال وقت قياسي استطاعت الجماعات الإسلامية المسلحة أن تفرض سيطرتها على معسكرات جبال الوسط

والغرب و الجنوب الشرقي للبلاد، تم هذا التحكم في زمام الامر عقب عمليات عنيفة و هجومات على تجمعات عسكرية. كان تصرف هذه الجماعات المسلحة و كأنما هي قوات حدود، تنقض على قرية أو دوار صغير لتاتي على الاخضر و اليابس فيه، لا تترك حيا يتحرك. لقد اكتفى الاعضاء الموسسون للجبهة الاسلامية للانقاذ بدور شكلي وهامشي، فكانوا يستعملون للتغطية الإعلامية و الوجاهة. ولم تعد لهم سلطة و لا كلمة. بدأت هيبتهم تتراجع و تندثر تحت رحمة العمليات الإرهابية التي بدأت تضع في الصدارة اناسا مجهولين. ان الساعة ليست للكلام المفخم. لقد حل السكين محل الكلمة. ها هم الشيوخ يسحقون أمام الأمراء، السياسي أمام المحارب. بعض الأئمة يرفعون و يلوحون بالراية البيضاء، و يسلمون أنفسهم للسلطة. و دون تردد، ها هم يقدمون أنفسهم للفرجة من على بلاطوهات التليفزيون، رافعين كل تقدير و هيبة و تقديس كان يتمتع بها " المجلس" ، مشيعين الشقاق. المسؤولون، مسؤولو " الجبهة الإسلامية للانقاذ" الموجودون في المنفى يتناقضون في تصريحاتهم و بياناتهم، كل واحد يبحث عن سحب الشرعية و الثقة من الأخر. مقابل المطالب تطرح الإهانات كجواب حاد و ساخط. في الداخل الأمر أكثر سوءا، الصراعات و النزاعات تتضاعف و تبر من كل جهة، محدثة شروخا في هيكل " الجهاد"، و موججة التيارات و الانقسامات التي بدت في ارتدادات و صراعات دموية. كانت الجماعات تراقب وتلحظ كل فرصة تستغلها نحو السباق إلى الزعامة: ايرانيون، افغان، الهجرة والتكفير، السلفية، الجزأرة .. و رفاق سعيد مخلوفي، . أتباع شبوطي الذي أعلن نفسه " جنرالا"، وتيارات و فصائل أخرى باطنية و خفية و مكيافيلية، كلها

تحرك المياه العكرة حتى تسقي و تروي الشقاق وتثير الغموض أكثر.

يوم بعد يوم، الأصابع معقودة خلف الظهر، الذقن في العنق، كان سفيان لا يكاد يفارق الهاتف، لا يلبث يلف و يلف حوله. كل اسم يأتيه إلى الذاكرة، كل مرشح متوقع أو محتمل للقيادة، يغرقه في حالة من الهستيريا، طورا بحماس و طورا بانتكاس و بدوره كان يقترح أسماء، و يعترض على أخرى، مهددا بإنشاء فصيل مستقل. كان إسحاق محاوره يهدئ من روعه و يطلب منه أن يحافظ على برودة دمه، مؤكدا له أنه سيكون سنده و دعامته اللامشروطة.

باستماعه و حضوره هذه النقاشات في الهاتف و التي كانت غاية في الحدة، كان نافا يقاسم أميره تلك الحالات النفسية العصبية التي كان يعيشها. كان هو الآخر يغرق في الكآبة و اليأس لمجرد سماع الأمير يحتج و يحنق، و يستعيد بصيص أمل حين يشعر بأن الأمير مرتاح.

من جهتها، أغلقت هند على نفسها في الغرفة، منذ إعلان مقتل أخيها. كانت تلتجئ إلى القراءات اللاهوتية الفقهية و إلى الصلوات، لا تظهر سوى لإعداد وجبات الطعام التي لم تكن لتتذوقها.

و ذات مساء، على الساعة الثامنة مساء، رن الهاتف.

بإحساس غريب، شعر سفيان و نافا بوعكة غير عادية وهما يتابعان أخبار النشرة المتلفزة.

- نعم؟ قالها الإمام بصوت مضطرب.

ينصت ثم ينصت، وافق سفيان ثم أقفل الخط.

عاد بخطى متثاقلة، لينهار على الأريكة، مريضا من القلق و اليأس.

- اننا نملك في صفوف الحركة أدمغة نيرة، و هاهو يتم تعيين مخبول، امي و منغلق على رأس القيادة، غريب... حقا لغريب.

كتاب مقلوب على ركبتيه، كان نافا غافيا تحت شجرة الاجاص. لقد أمطرت السماء البارحة، وهاهو البستان يترنح تحت زقزقة الطيور، و يتصاعد بخار الارض تحت اشعة الشمس. السماء الصافية تنشر رداءها الازرق فوق المدينة، الربيع يتبختر، رائعا في لباسه السلطاني، زهرة في العروة، خطافة فوق العمامة، ابتسامة الفرح و الارتياح بادية على وجهه المتعب بمحن الجهاد. كان نافا مستسلما للمسات الدفء المنعشة، حالما بتلك الجولات و الخرجات التي كان يقوم بها، بين الحين و الاخر، حين كان سائقا لدى " الديوان الوطني للسياحة".

ها هو ظل عنيد يحجب عنه فجأة أشعة الشمس، انتظر نافا ان ينسحب الظل، لم ينسحب الظل. فتح عينيه واذا بسفيان واقف أمامه، اليدان في الجيبين، و قد جعد بعمق جبهته.

- سوف أشتاق إليك، أيها الشاب. قالها مخبرا اياه، و هو يداعب عشبة برأس حذائه.

- هل ستذهب؟

- بل أنت الذي سيرحل، يا نافا. لقد تلقيت الأمر بأن أضعك تحت تصرف أحدهم، إنه صالح لاندوشين، حاولت أن أفاوض معهم كي أستبقيك معي، ضمن عناصر مجموعتي، الا انهم لم يستجيبوا لرغبتي، ولم يسمعوا طلبي.

نهض نافا من فوق كرسيه المصنوع من عيدان الخيزران. سقط الكتاب على الأرض، فلم يلاحظ ذلك.

- تحت تصرف صالح لاندوشين؟

- هذا ما قيل لي. عليك أن تعرف وتعلم بذلك.

- انه ليس أكثر من عضو مساعد في التنظيم.
- ربما تم تعيينك في مصلحة المساعدة و الإسناد.
- أتعتقد أنني لم أكن في المستوى المطلوب تحت أوامرك؟
- لقد كنت كفئا و رائعا. أؤكد لك بأنني لا دخل لي في هذا الامر.

رفع نافا رأسه في اتجاه نافذة الطابق الأول.
أوقفه سفيان على الفور موضحا:
- إن هندا لا تعلم حتى هذه الساعة بأنك ستغادرنا. انها قاسية ولكنها ليست من ذلك النوع الذي يطعن في الخلف.

قضقض نافا فكيه، حاول أن يفكر، أن يفسر سوء التفاهم هذا. لم يستطع التركيز.
حرك رأسه منزعجا و مشمئزا.
- متى أرحل؟
-اليوم.
- حسنا...

شد سفيان على كتف نافا، مبديا تضامنه.
- لقد أعجبتني قدرتك على تصحيح نفسك، يا نافا، لقد كنت شجاعا، ضيفا رائعا، فطنا و محترسا. إني أشعر بمودة تجاهك. إنني سأفتقدك حقيقة. كنت أرغب ابقاءك معي، مع هذه التغييرات و هذه العواصف التي تلحق بنا ، لا أحد يستطيع أن يضمن مستقبله الشخصي.
- إني أتفهم كلامك...
- إذا ما احتجت إلي، فأنت تعرف أين تجدني.
شكره نافا.
تصنع ابتسامة لكي يبدي له بأنه سيتحمل الصدمة، ثم سار مدندنا حتى الفيللا.

كان نافا ينتظر قدوم الليل ليلتحق بصالح لاندوشين؛ اصطحبه سفيان الى مخرج الحراش متمنيا له التوفيق والحظ السعيد.

- مرحبا بك في أي وقت تشاء يا نافا.

- أجل...

- انتبه لنفسك.

- سأحاول.

عادت السيارة على أعقابها، اصطدمت صدمة خفيفة بمزبلة، ثم انطلقت مسرعة. كان نافا ينظر إليها وهي تبتعد. واقفا، مسمرا وسط الشارع الخالي.

باستثناء متجر كان لا يزال مفتوحا، لم يكن هناك أثر لشيء حي.

كان القمر بدرا يتثاءب في السماء و كانت رائحة الوادي تنبعث في الهواء محاصرة الإحتياط البشري، أولئك المتروكين لأمرهم.

تسلل نافا على طول حاجز و تسلق طريقا شديدة الانحدار الى غاية الخيام كانت الكلاب تنبح بهيجان، الفم هائجة، كان بعضها يبرز من الظل، قبل أن تنسحب واضعة الذيل بين الساقين، مطاردة بسيل من الحجارة..

في الهدوء المخيم على الأرجاء، كان الاطفال يصرخون خلف صفائح الأكواخ القذرة.

- بدأت أتساءل، فيما إذا لم تكن قد حجزت؟ صوت صالح لاندوشين و هو يستقبل نافا على عتبة كوخه.

خمسة رجال كانوا متراصين في غرفة يعانون اليأس وملل الإنتظار. كان الضجر باديا عليهم. من بين الخمسة، تعرف نافا على أبي تراب الذي كان مساعدا لأبي مريم. كان منعزلا في زاوية، يداه حول ركبتيه، مزاجه عكر، يجلس إلى

جواره عمار الخردجي يدعك شاشيته سرا، بينما كان الثلاثة الاخرون جالسين فوق رزمة ملابس وسخة يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت:

بدأ صالح لاندوشين بالتقديمات:

- انه نافا، أخ من حي القصبة (نهض الأخرون لمعانقته و السلام عليه) طيب، أنت تعرف أبا تراب و عمار... هذا عبد البصير ابن إمام القبة، إنه صانع قنابل لا مثيل له، فقنبلة الشهر الماضي كانت تحمل توقيعه، و ذاك مقاتل من حي بلكور... أما هذا الأخير فهو سهيل جندي هارب من الخدمة العسكرية، لقد شارك في عملية الهجوم على مركز القيادة البحرية.

اتخذ نافا مكانا له قبالة أبي تراب:

- أتريد قهوة؟ عرض عليه مضيفه.

لقد استهلكت ما فيه الكفاية من سواد شبيه بهذا...

طأطأ صالح و ضرب على ركبة نافا قائلا:

- تبدو منزعجا، ما دهاك؟

- أنت تعلم السبب قبل الجميع، أنت الذي عليك أن تخبرني لماذا أنا هكذا؟ لقد كنت مرتاحا حيث كنت انشط، لماذا وضعوني تحت تصرفك؟ هل تمت ترقيتك، أنت الآخر أيضا؟

- ألم تعلم بذلك؟ قالها أبو تراب مستغربا.

- بماذا؟

- بالتعديل الذي حصل: لقد تم عزل الشيخ يونس و تم ايفاده إلى الجبل. إن ابراهيم الخليل هم من يرأس مجموعات غرب-العاصمة. وقد اختار أبا مريم مساعدا له، كما أنه استدعى زبانيته من القبة للإلتحاق به. لقد استولى على منطقة النفوذ التي صنعناها و بنيناها بأيدينا.

- انتبه للسانك، إحذر ما تقوله، نصحه صالح لاندوشين.

- إنها الحقيقة.
- مهما يكن ، فلا تنس أنك تغتاب في أمير.
- ما الحكاية؟ صرخ نافا هانجا: أين ذهبت البقية من الرجال؟
- إلى الموت ، دمدم أبو تراب. لقد احتفظ ابراهيم و لفترة مؤقتة و ذلك حتى تستتب له الأمور بمن هم في صفه، اما المعاندون المعارضون فقد أبعدهم. كان عليك أن ترى و بأية وقاحة طرد بها الشيخ يونس، شيء يثير القيء، ثم بعد ذلك بدأ في تفكيك و ضرب شبكة الدعم، لقد أعدم أهم مسؤوليها لأسباب تافهة.
- لا لم تكن تلك الإعدامات لأسباب تافهة؛ احتج صالح لاندوشين، فجميعهم كانوا كلابا عديمي الذمة.
- من أدراك؟
- أعلم أن الأمير لا يخطئ، فهو على صواب دائما. إنها القاعدة و المسلمة: عمي باشي كان نذلا فقد اغتصب نساء شهدائنا، على مسمع و مرأى أهل حي باب الواد... و الاخر الأحدب كل حركاته كانت غامضة، كنا نصادفه في أماكن ما كان عليه أن يتواجد فيها. بينما عمر زيري كان يغترف من الأموال المخصصة للمقاومة ليشيد و يعلي فيلته بالشراقة.
قفز نافا مرتجفا: هل قتل عمر زيري؟
- و كيف ذلك؟ قالها صالح وقد علته ملامح البهجة: لقد كنت حاضرا ساعة مقتله و قد متعت عيني بذاك المنظر. لقد ذهبنا للبحث عنه فوجدناه في خلفية الدكان. كان منبطحا حول مائدة يأكل بشراهة كالخنزير. وقد وضعت أمامه مأدبة ملكية، له وحده: دجاجة رومية ضخمة محمرة و محشوة بالفطر، أطباق ملأى بأثمن الفواكه؛ موز كولومبي، تفاح فرنسي، تحليات مستوردة. كانت مأدبة فاخرة. كان منهمكا في

مصمصة اصابعه الممرقة، و تلذذ طعامه الفاخر حتى أنه لم ينتبه لقدومنا و لم يعبا لذلك بتاتا. و فجأة أحس بوجودنا، تسمر في مكانه، حين رفع نظره الينا كاد ان يختنق، قال له ابراهيم " واصل التهام ما تبقى لك يا خنزيري، و امضغ اكلك جيدا اني لا أريد عظما واحدا بحنجرتك، يزعجني جدا ان أفسد حد السكين بعظم ما." لا أصف لكم يا إخواني، مدى الخوف الذي خيم فجأة، عمر زيري الشره، إن اللصوص لبس فجاة ثوب الراهب، ... لقد فعلها في ثوبه، اقسم لكم انها الحقيقة، فخلال ثانية واحدة عمت الرائحة القذرة الأجواء. في بادئ الأمر حاول أن ينكر ما ألصقت به من تهم. لكن لا احد صدقه، ثم ركع مترجيا الأمير أن يعفو عنه. لقد كانت مهزلة مذهلة و مخزية. مثل برميل مملوء بالدم أهرق على الارض، لا اخفي عليكم لقد تمالكت حتى لا أسقط فيه، حتى لا ألعق منه. لقد عانيت من الإهانة منذ أن كان يعتقد في نفسه انه هو الرب.

كان الرجال الخمسة يتأملون الشيخ ، مروعين و ساخطين في الوقت نفسه.

مسح نافا عرقه بمنديل.

- كانت الحنجرة حرشاء.

قال نافا:

- هلا شرح لي أحدكم ما الذي أفعله هنا؟

- خبره أنت، قال صالح عبارته موجها اياه الى ابي تراب.

رد هذا الأخير:

- و لم أنا؟ هل تعذر عليك الكلام، أم نسيت اسانك فوق الأحذية التي كنت تلعقها.؟

تدارك أبو تراب غضبه، ثم شرح:

- ان ابراهيم الخليل يجتاز مرحلة التصفية، تصفية الصفوف، فهو يحاول التخلص من جميع عناصر جماعة الشيخ يونس القديمة، خاصة أولئك الذين لا يستلطفهم و لا يستسيغهم.

في اللحظة ، تذكر نافا خصامه مع ابراهيم الخليل، كان ذاك ذات جمعة، في متجر عمر زيري. شعر على الفور بالوهن الكبير.

- انه حقود، قال عمار،: لا وجود لإثنين من امثاله، لقد تخاصمنا منذ سنوات في بيشوار لمجرد مسألة تافهة و بسيطة، كان ذلك حول غطاء شرشف. اذ كان ابراهيم بحاجة اليه لغرض ما، فقلت له خين طلبه مني، عليك ان تستعمل شرشفك الشخصي. فشتمني و شتمته، فرحل و لم يغفر لي ذلك أبدا.

- أما أنا واصل أبو تراب قائلا:لقد اتهمني بإطلاق النار على على الشاعر سيد علي، مع أن ابو مريم هو الذي كان يحكم يومها.

- هنا أعترض على كلامك و أوقفك، قاطعه صالح لاندوشين: ان الأمير قضى أن يذبح ذلك النذل لا ان يغتال بالرصاص، و أنت تصرفت تصرف الداهية الذكي.

- تبا له ا لقد كان شاعر القصبة و عندليبها و قد احتج الشعب عندما علم أن معشوقه قد قتل رميا بالرصاص.. لو ذبح بسكين، ربما لكان...

- كل هذا لغو ا لم يكن سوى فاتنا ابلها، كان ينيم الناس على قاذوراته الموسيقية، فأمر الأمير برأسه، كان يجب الطاعة و بالتالي إهداؤه رأس الشاعر، و هذا كل ما في الامر.

- اجل، اجل، ثار نافا رافعا يديه في السماء،: اريد ان اعرف بالضبط لماذا وضعوني تحت تصرفك.

- أنا دليل، وفقط.

- و ماذا بعد؟

- سوف أقودكم هذه الليلة إلى الجبل.

انتبه نافا الى أن الآخرين كانوا يحدقون فيه. و قد شعر ان الخوف قد تملكه. قلص فكيه لاستعادة السيطرة على نفسه.

- هذا مناسب ا متنهدا بصلب. متى يكون الإقلاع؟

- قبل حضر التجول بساعة.

- يجب علي أن أادي زيارة للعجوز أمي، لم أزرها منذ وفاة أبي.

- هذا من شأنك، اما انا فسأشد الرحال على الساعة العاشرة ليلا بالضبط، ولن أنتظر أحدا من الخاملين المتسربلين.

نظر نافا الى ساعته ثم قام:

- ساعود في الوقت المحدد.

- ارافقك ، قال أبو تراب.

لقد جاءت السنين على أم وليد نافا بسرعة، بضعة أشهر كانت كافية للقضاء عليها، وفعل ما لم تستطع ان تفعله فيها السنون الطويلة و التقلبات الزمنية و الأشغال المنزلية.

من ذلك الوجه المنير الذي كانت تتمتع به ذات زمان على الرغم من كل سلسلات الخيبات، ومن تلك الملامح الامومية التي كانت فيما مضى، من كل ذلك لم يبق سوى قناع حزين، داكن و كئيب، و عينان متعبتان ساهرتان كشمعتين وسط غرفة الأموات.

حزن نافا كثيرا للمنظر. لم تكن الام قادرة على الوقوف على قدميها، يدها كانت متشبثة بمقبض الباب، و كأنما تكاد

أن تقع. بكل تأكيد فقد نسي عمر زيري تسجيلها في قائمة العائلات المحتاجة. في الدهليز لم تتحرك أخته نورة، ان عودة اخيها لم تثرها. كانت تتامل ارضية الشقة وهى تلوي ضفائرها. اما سعاد و اميرة فقد اختفتا في المطبخ. ارتكنتا في زاوية، غير داركتين بان ظليهما كانا يبدوان من خلف الستار:

- ماذا تريد ؟ قالت الام.

- ألا تسمحي لي بالدخول؟

- ما كان عليك أن تفارقنا.

- كنت أنتقم لأبي.

- لم يطلب منك شيئا.

- ما كان عليه أن يؤكد ذلك، الطاغوت اغتاله، و الباقي يخصني أنا.

- أنت الذي قتله؛ كانت الشرطة تبحث عنك. لقد جاء رجال الأمن للتفتيش و احتج أبوك، فأظهروا له ما كنت تخبئه في درجك، لحظتها وضع يده على قلبه و سقط ميتا. لقد توقف قلبه. لم يتحمل ان يتحول ولده الوحيد و الذي كان يمثل كل اماله الى ارهابي.

طأطأ نافا رأسه.

عند اسفل سلم العمارة، كان أبو تراب في انتظاره حارسا الشارع، تفسخ شيء في الظلام.

- لقد أتيت لاخبرك بأنني ذاهب إلى الجبل.

- لم يكن عليك إتعاب نفسك.

- اردت توديعكم.

- قد فعلت.

عض نافا على شفته، شعر بثقل حزنهِ على رقبته.

- أعتقد أنني لن أحصل على رضاك.

- يكفيك رضى شيوخك.

هز رأسه، دار على عقبيه، توقف عند الدرجة الأولى للسلم، ثم دون أن يلتفت خلفه، و بعد صمت متأمل، قال:

- انا لست بارهابي.

ثم سمع الباب يقفل.

وشرع في نزول درجات السلم كمحكوم عليه بالإعدام.. ينزل درك الجحيم.

15

تكفل أحد مناصري الحركة بنقلهم إلى خارج المدينة، على متن شاحنة متهالكة متمايلة. قبل أن يسلمهم إلى سائق آخر كان بانتظارهم في مزرعة معزولة. بعد استراحة قصيرة و تناول فنجان قهوة، صعد الجميع على متن جرار، لتوغلوا في البساتين إلى غاية قدم تلة مشجرة. من هناك واصلوا ما تبقى من الطريق مشيا على الأقدام. مت تلة حرشاء مشققة بلغوا سهلا لامعا منارا باشعة القمر حتى بدا و كأنه النهار.

من الآن تستطيعون الغناء بصوت عال، علق صالح لاندوشين، فهنا الليل نحن أسياده. لا أحد من خبثاء الطاغوت يجرؤ أن يخاطر بحياته في الضواحي.

من بين الرجال السبع لم يكن سوى صالح لاندوشين وحده مسلحا ببندقية صيد قديمة مقصوصة الكعب..

كانوا يمشون و يمشون، مجتازين دشورا ساكنة صامتة غارقة في ظلام مقبري. نوافذ البيوت مغلقة و الابواب مسيجة، يمكن تخيل الفلاحين بداخلها و هم ينامون متشبثين بأغطيتهم، نصف إغفاءة، والقلب على الجمر. إن أية طقطقة

تصدر أو أبسط جعجعة كافية على أن تبعث في أحشائهم الرعب كقطرة من النتروغليسين.

كان صالح يعلم ذلك جيدا.

لذلك، مدفوعا برغبة لا يعرف لها مصدرا، و هكذا، أقدم صالح على إطلاق النار في السماء، عند مخرج واحدة من الدشور:

اخوف الحريم، قالها مازحا، بالرغم من استهجان الجماعة لفعلته تلك. إنه لمريح أن نذكر الشعب بأن الأب يسهر على الغلة وعلى الحبوب.

مع خيوط ضوء الفجر الأولى، استراحوا بغابة حيث تحلقوا حول نبع ماء. استأذن صالح طالبا منهم انتظاره. و إذا به يرجع إليهم بعد عشرين دقيقة محملا بحقيبة مملوءة بالزاد.

- سناكل حتى نتقيأ، قال صالح، و قد وضع على حجرة معلبات مصبرات و قنينات ماء معدني و علب بسكويت.

- لا تنظروا إلي هكذا، أنا ساحر، استطيع أن اخرج لكم نساء من قبعتي إذا ما رغبتم في ذلك.

استعاد جديته، فشرح لهم، موضحا بأن المكان هو عبارة عن مركز عبور و أن الإخوة يخزنون هنا الأغذية حتى تستغلها الجماعات المسلحة المتنقلة.

اكلوا ثم ناموا في الأدغال.

ما بعد ظهيرة اليوم التالي قادهم صالح عبر متاهة لا تنتهي من النباتات. كانت الأرض متموجة صعبة و حرشاء، أرهق الرجال و التهبت ارجلهم و تجمدت و تخشبت سيقانهم. كان العجوز صالح يرفض أن يتركهم يستريحون قليلا. يبدو و كأنه كان يختار الطرق الأكثر صعوبة لكي يتعبهم أكثر، و لكي يروي رغبة و يحقق متعة بداخله.

- هذا المشوار يعوضكم عن الإقامات الدافئة و المريحة، أليس كذلك؟ كان يقولها باستهزاء باد...

و اذ سقط الليل كانوا بقاع واد يعانون و يتعلقون بجذور الشجيرات الجنيبية. في أعلى المنحدرات، كوخ مهمل محوط بأشجار الكاليتوس.

ألقم صالح بندقيته:

- هناك نور سأذهب لأستطلع الأمر، اذا سمعتم اطلاق نار، إنصرفوا.

من طريقة حديثه، كان يبدو و أنه يبالغ. لكن رفاقه كانوا جد متعبين فلم يكلفوا أنفسهم تعب التعليق على كلامه. أغمض صالح عينيه و ذكر اسم الله ثم صلى. كان يقوم بدوره كممثل محترف ورائع، في وضع آخر غير هذا الذي هم فيه، ما كان يمكن أن يكون تصرفه هذا هنا إلا مثيرا للضحك لكن شيئا ما بداخله كان حامضيا و كبريتيا.

مدركا، و متيقنا أن لا أحد سيعاقبه، كان صالح يتصرف بكل حرية دون وازع أو قيد، مع أنه كان يدرك أن حركاته مزعجة إلا أنه كان يتمادى في بهلوانياته. بل و ربما كان ذلك هو هدفه و تلك غايته: هو أن يكون ممقوتا و كريها.

زحف في الأدغال، التف لفة كي يصل الكوخ من الجهة الأخرى. نبح كلب، ثم...

وبعد حوالي عشر دقائق، شعر نافا بالقلق:

- ماذا يفعل؟

- أتمنى أن يكون قد سحق، قالها أبو تراب متمتما: لقد سئمت من حركاته هاته.

على التلة، ظهرت امرأة عجوز، و أشارت لهم باللحاق بها.

- إنه فخ، قالها عبد البصير و قد بدا عليه القلق.

- انه ذاك الأبله ثانية. الذي لا يتوقف عن تصرفاته الحمقاء.

بالفعل كان صالح لاندوشين مستلقيا للراحة و قد علق معطفه في مسمار، و وضع سباطه معروضة على حافة النافذة. لقد غسل وجهه و هو يحتسي كوب شاي، بخبث و تصنع و ابتسامة ساخرة.

- إن الأمر لمهزلة، قالها أبو تراب متمتما.

توسط الغرفة شيخ زاهد، جمجمته البيضاوية الشكل تلمع تحت نور مصباح زيتي، كان يبلغ على الاقل الثمانين من عمره. كانت ملامح سحنته جافة و يداه طويلتين و نحيفتين، كان يرتدي أسمالاِ بالية، و كانت تتبعث منه رائحة التبن الرطب الغامل.

- كنت أتمنى لو قدمت لكم خروفا مشويا، قالها بصوت مرتعش. لم يبق لي إلا القليل ما الكسكسي و بعض قطع اللحم المجفف.

زوجتي و أنا فقيران عديما الحال، لقد رحل أبناؤنا إلى المدينة لكسب عيشهم هناك. فهنا حتى المطر يقاطع الحقول.

- لا يهم يا حاج، قالها صالح بنوع من الشموخ، مهدنا من حال الشيخ. ليس هناك أفضل من كسكسي جيد نتقوت به... قل لي أين هم *الطاغوت* ؟

- من؟

- العسكر أو رجال الدرك؟

ضحك الشيخ العجوز، بدا فمه المنزوع الأسنان كشق يقسم وجهه و كأنه جرح مرعب.

- لم أشاهد أحدا منهم منذ الاستقلال. حتى أيام دوغول لم اكن أرى الكثير منهم. هذه المنطقة معزولة، مقطوعة و :انما

منها نرحل مباشرة الى العالم الآخر. لا أحد يروح و لا احد يجيء. زوجتي و أنا لا جار لنا. إننا نعيش تقريبا لوحدنا.

أحضرت العجوز قصعة كبيرة ملأى بالكسكسي الفوار.

تناولوا عشاءهم و ارتووا و استراحوا.

- حسنا، قرر صالح: هذا موعد مغادرتنا المكان.

طلب صالح من مضيفهم أن يدلهم على الطريق المؤدي الى الولي الصالح سيدي البشير، على الطريقة الهندية تسلقوا مسرا للعنز، فجأة ضرب صالح لاندوشين على جبهته:

- نسيت حقيبتي في الخيمة.

أمر صالح من الشيخ العجوز أن يواصل مع البقية في اتجاه الولي الصالح، في حين عاد هو مسرعا إلى الكوخ.

لم يكن مقام سيدي البشير سوى كومة من الحطام و البقايا بعد أن تم تفجيره بقنبلة تقليدية. كان ضريح الولى الصالح مخربا و محروقا. على منصة المقام كتبت احرف بلون أحمر تعلن ان " الجماعات الإسلامية المسلحة" مرت من هنا.

حمل الشيخ العجوز حجرة إلى فمه ثم قبلها بخشوع ليعيدها فوق العشب.

وصل صالح لاندوشين منهكا. طلب من رفاقه أن يواصلوا طريقهم دونه، و كأنما كان يريد أن يشعرهم بأن له وصايا مهمة عليه أن يوصلها إلى مضيفهم. حين اختفى نافا والاخرون في عمق الغابات، استدار صالح في الشيخ الثمانيني و قال له:

- شكرا على الكسكسي يا حاج.

- ياه، إن ذلك واجب.

أخرج صالح خنجره ثم طعن الشيخ على مستوى الكلية، ثم اردفه بطعنة ثانية على مستوى البطن. مباغتا، حملق الشيخ بعينيه ثم هوى على ركبتيه:

- لماذا يا بني؟

- ها... هذا ما تستحقه يا حاج؟ إن طرق الرحمن مسيجة.

جامعا الفعل إلى القول، سحبه من جلد جمجمته، أمال الرأس نحو الخلف، ثم حز له الحنجرة بعمق حتى أتت شفرة المدية على الفقرات الرقبية، و إذا بضخة دم فوار تلفح وجه صالح. تذوقها صالح لاندوشين بتلذذ، و باثارة بادية كما و أنه في لحظة إفراغ شبقية.

في الصباح، لاحظ أبو تراب بقع الدم الجامدة على صدر و ياقة الدليل: صالح لاندوشين:

- هل قتلته؟

محركا يديه في السماء، أجاب:

- الأوامر واضحة: لاتتركوا خلفكم اي اثر.

في الحال هذه، لماذا لم تمس المرأة العجوز ؟

أدار صالح عينيه الخبيثتين:

- أنا لا أحمل أي حقيبة، و لم تكن معي اية حقيبة.

ثم انفجر ضاحكا.

شعر نافا و كأن صالح لاندوشين يلف بهم في فراغ لا ينتهي، يدورون و يتقدمون منذ ساعات وسط غابات كثيفة، بين أشجار كثيرة و نباتات متشعبة حيث ضوء النهار يموت على الاوراق، فتصعب الروية. كانت المنطقة متوحشة، لا أثر فيها لعابري الطرق أو الرحالة أو الصيادين. لا شيء سوى جذوع الأشجار المسيجة بالحشائش المتوحشة، و بيوت عنكبوت شائكة و معلقة في الفراغ، و شجيرات باكيات تحجب الأفق. كان صالح لاندوشين يقتحم النباتات بخفة كعرسوب، البندقية بالمرصاد جاهزة. كان يهول و يبالغ في توصيف المخاطر، محاولا تضبيب كل وضوح في المسار

الذي يسلكونه، محاولا قدر الإمكان ان يضع اكثر فاكثر رفاقه الذين بدوا منهكين و الذين يجرجرون اجسادهم المتعبة و المجروحة في وضع غير مريح و غير متزن.

في اليوم التالي ، تصل المجموعة الى مخيم اسلامي. مجهز ومبني داخل ثنايا وادي، انه عبارة عن مركز طبي. مكون من " كازمات" مموهة تحت اغصان كثيفة. مسوول القطاع طبيب مفكك البنية، أصلع و حسير ، كانت تساعده في عمله هذا اربع ممرضات بلباس عسكري، حوالي عشرين مجندا بلباس افغاني كانوا يحرسون المكان.

وصول صالح لاندوشين الى المركز احيا المكان الذي كان قبل ذلك غارقا في سبات: عبارات السخرية والتنكيت تعالت في السماء، بعد العناق و السلام و تبادل ضربات الترحيب على الظهر. كان صالح يعرف الجميع، حتى الفتيات الممرضات يبدو عليهن الفرح لرؤيته.

شاهد نافا مجموعة من الجرحى ممددين على اسرة المخيم، داخل" الكازمات". اخرون كانوا ينعمون بفترة نقاهة، هنا و هناك، على عكازاتهم البسيطة، او مستسلمين لأوهامهم عند جذوع الأشجار. شاب مفتول العضلات، مبتور الساقين يقرأ القرآن عند عتبة ملجأ. حياه نافا، لم يرد المقعد التحية. رفع كتابه قليلا كي يخفي وجهه خلفه. كان نافا يبحث عن احد يعرفه من بين هؤلاء الرجال المجمعين في هذه الوهدة من الغابة و لكن دون جدوى. قدمت له طنجرة من الرز ثم تم نسيانه. تناول وجبته في صمت، ثم أوى الى ركن من هذه الخميلة، سحب نعليه من الرجلين، كي يتبرد قليلا. كانت جواربه مدماة، طوى سرواله إلى ما فوق الركبتين. ثم عرض ساقيه للشمس، و دون أن ينتبه أخذه النعاس.

حين استفاق، وجد رجلا سلاحه بين فخذيه جالسا إلى جواره. كان الشخص مرتديا سترة المظليين و سروالا من الجوخ فقد لونه، لحيته الكثة كانت تضيع في شعر راسه الطويل الأبيض المسدول على ظهره.

لو كنت أنتظر أن ألقاك ها هنا، قالها الشخص.

انتصب نافا على مرفقيه و حدق مليا في الرجل.

- هل سبق لنا ان تعارفنا؟

- ألك غربال أو مصفاة مكان الرأس... الا تذكر ؟

فتش نافا في شريط ذكرياته، دون جدوى، كان للرجل نظرة مألوفة لكنها غير منسجمة مع ابتسامته، لكن كان من المستحيل على نافا أن يحدد أين راه.

- يتغير الإنسان أما الحرب فلا؟

ان هذا الصوت يذكره بشيء ما، لكن دون ان يفصح له بجلاء عن الشخصية التي تكمن وراءه...

بحث الرجل عن رصاصة في جعبة خراطيشه، اخرجها، حركها في يده، أغلق راحة كفه عليها، نفخ فيها، ثم فتح الكف، كانت الرصاصة قد اختفت من راحة اليد.

- يحيى، سائق بن سلطان ا قالها نافا مستغربا، و قد تنفس الصعداء، أخيرا هاهو قد عثر على معرفة قديمة، انه الموسيقي الذي كان يطلع الحوريات من آلته الموسيقية: المندولين.

- انه يحيى بلحمه و عظمه.

تعانقا ضاحكين.

- أخيرا اخترت مهنتك، أيها الممثل؟

- لست لوحدي، كما يبدو لي، أنت أيضا تشتغل هنا؟

انني لست مقيما، فأنا عابر فقط، أحضرت أحد الجرحى، و انت؟

- لا أدري، كنت أنشط في العاصمة-وسط، الامير الجديد لم يعد بحاجة إلى خدماتي، كيف هي الحال هنا؟

ارتسمت ملامح العبس على وجهه يحيى:

- اني مشتاق الى ماندوليني... إني افتقدها كثيرا.

- ألك مدة طويلة منذ أن انخرطت في تنظيم " الجماعات الإسلامية المسلحة"؟

- قرابة السنتين لقد نشطت في سيدي موسى، هناك منيت مجموعتي بهزيمة نكراء. انسحبت نحو منطقة شريعة.

حفر ثقبا بعقب سلاحه:

- كان الواقع مرا، قبيحا... قبيحا جدا.

- ماذا كنت تريد تحقيقه؟

- في الوهلة الأولى، نعتقد أننا نبحث عن شيء ما، كي ندركه، لكن في الحقيقة نتقبل ما يقدم لنا، ماهو متوفر وموجود نقبل به.

غرق يحيى في لحظة من الشعور بالمرارة، ثم فجأة رفع يده إلى ياقة نافا ليخرج الرصاصة، دحرجها بحزن في كفه.

- يبدو الأمر ثقيلا، حين يكون اللعب بالرصاصة، في لعب الخفة ليس هناك أفضل من قطعة نقدية... المشكل مع السلاح يمكن في أن هذا الأخير له موسيقى غير اصيلة. أنا على استعداد أن أدفع أي شيء لاسترجاع ألتي الموسيقية: مندوليني. صحيح أنني كنت في تلك الفترة متعصبا. كانت مخاوفي تظلل ملاحظاتي. لو كنت أعلم أن الأمور ستسحبني و تجرجرني إلى هذا المصير، لفضلت و بكل سرور أن أبقى ذاك البائس الذي كنته من قبل...

صمت لحظة، تأمل رصاصته ثم واصل حديثه:

- لم ألتحق بالحبل عن اقتناع. حين شرعوا في اغتيال الأشخاص الذين لا يمتون في عملهم و حياتهم و فكرهم بأية

صلة الى النظام، غيرت اتجاهي، و انضممت الى صفوفهم، هذا التحول لا يعني أبدا أنني كنت انتظر شيئا من الثورة الاسلامية. لم يتركوا لي فرصة الإختيار. ابني البكر كان مناضلا في صفوف الجبهة الإسلامية للانقاذ. بعد ذلك تم نفيه الى معتقلات الجنوب بصحراء " رقان". قبلت بالامر وبالواقع، الا ان رجال الدرك لم يتركوني و شاني. حيث كانوا يجيئون بيتي كل أسبوع، يقلبون البيت كاملا، ثم يسحبون معهم ابنا او اثنين يرجعان فيما بعد وقد اشبعا ضربا مبرحا. ذهبت لمقابلة ضابطهم و الشكوى له. عيرني هذا الاخير بالارهابي القذر ثم رماني في غرفة الحجز. عذبت و بعد اطلاق سراحي تسلمني رجال الشرطة بدورهم ، كانت جروحي لم تندمل بعد. أصيبت زوجتي جراء ذلك بداء السكر. كان كل هذا غير مقبول، و لم أعد أطيق الوضع. بعد عدة اشهر من الملاحقات و المضايقات، اصطحبت ولدي وصرخت عاليا:" الموت للبقر.. إلى الجحيم.". هناك حدود يا خو، الأفضل أن أموت على أن أتحمل اهانات و مبالغات معينة و وقحة. قتل ابني الصغير في سيدي موسى، لفظ انفاسه بين أحضاني. ألديك أطفال يا نافا؟!!

- لا.

- لن تفهم إذن ذلك الموقف. لو نزل ملاك ليخفف عني الامي لبلعته حيا و في الحين. لقد أصبحت من لحظتها مجنزرا من جراء الكآبة و الحزن. و لمجرد رؤية الزي الرسمي كنت أصير غاضبا وهائجا. لقد أحرقت العشرات من ذوي الزي الرسمي في سيدي موسى، كلما كنت أذبح منهم ارغب في الزيادة أكثر. لم تعد هناك أية وسيلة أخرى للتخفيف من آلامي. لم أكن أنتظر سقوط الليل للإغارة، كنت اهجم في وضح النهار، في وسط الشارع، تحت أضواء

السلاليم، يا خو. كنت أصر أن تكون الامور واضحة: إما هم او انا. أصيب ابني الثاني بجروح. فنقلته الى الجبل للاستشفاء. نصبت على رأس سرية مكونة من حوالي خمس عشرة نفرا مدربين أحسن تدريب. أحرقنا العديد من المدارس و المزارع، نسفنا جسورا و مصانع، نصبنا حواجز مزيفة و أرغمنا سكان القرى و الأرياف و الدشور على مغادرة اراضيهم. ثم لم أدر لماذا اتهمت احدى المجاهدات ابني بالتحرش الجنسي عليها. كان هذا غير صحيح أبدا. كان ابني شديد الورع و التقوى، حيث لم يكن يقترب حتى من النساء اللواتي كن سبيات الغارات التي نقوم بها. كان ابني عامرا بالإيمان، يجاهد باقتناع. لم يرد الأمير أن يتراجع أو أن يتفهم الأمر. فنفذ فيه حكم الإعدام، كان ذلك هو اليوم نفسه الذي التحق بنا أخوه الأكبر بمجرد أن تم إطلاق سراحه من معتقل " رقان". ان ذلك لمن مساوئ الصدف التي لا تطاق. لم أدر اين رمي بي. و كإجراء وقائي جردت من سلاحي. ولولا علاقة ابني مع أحد الأعضاء الفاعلين و القياديين في " المجلس" لتخلصوا مني أنا الآخر أيضا. حاليا أتكفل بنقل الجرحى إلى هذا المركز الاستشفائي. هكذا صرت.. و هذا هو أنا.

سكت نافا.

لم يدر ما يقول.

عاد يحيى للعب بالرصاصة:

- غريب، لأول مرة أفضي بهذا لأحد. هنا إفشاء سر مثل هذا يعرض صاحبه للإعدام.

شعر نافا و كأن السائق القديم لإبن سلطان بدأ فجأة يتوخى الحذر منه، ضربه ملاطفا على فخذه وقال:

- لا داعي للخوف مني.

- سامحني...
- و لا داعي لطلب السماح ايضا.
تمدد يحيى.
- هذا رغما عني، كان لا بد أن أصرح بما يختلج به صدري، أن أفرغ...
- لا تخف يا صديقي، سأحفظ سرك، انا بئر اسرارك.
حط عصفور مزركش أمامهما، طار وسط الاعشاب، تأمله يحيى بدقة، غير قادر على حبس أنفاسه، تنفس بعمق الصعداء ثم قال:
- كنا ذات مرة في بستان، مسك الشاعر سيد علي بجرادة خضراء
كان ذلك في يوم ربيعي جميل. كانت الزهور في كل مكان. كشف لي سيد علي عن سر هذه الحشرة. و سألني إن كنت أعرف أصل هذه الجرادة الخضراء. فأجبته بأنني أجهل ذلك، إن أصل هذه الجرادة ورقة شجرة، وقص علي سيد علي قصة تلك الورقة الثائرة الغاضبة المتعجرفة التي أبت ان تسقط من غصنها، لا لشيء إلا لأن فصل الخريف قد حل. كانت تعتقد أنها ذات قيمة و مكانة معتبرة و كبيرة، لذا فهي ترفض أن تتعفن
بين الأوراق الأخرى الميتة التي كانت تذلها الرياح و تجرها في الوحل. فعولت على نفسها و فقط، متحدية وشامخة. أرادت البقاء حية على مدار الفصول الأربعة. و قد أخذت وسحرت الطبيعة بحماسها و شجاعتها فحولتها إلى حشرة لترى إلى أي مصير ستصير، و إلى أي هدف ستصل. و هكذا أصبحت الجرادة الورقية الخضراء عنيدة ، متجبرة وطموحة إلى حد بعيد. لقد سكنتها معجزة الغرور، فباتت تستخف بغصنها الذي هو أصلها، تدوسه احتقارا

واستصغارا، حتى صارت قاسية و مفترسة و طاغية، لقد اغشى شططها هذا بصيرتها فأصبحت تلتهم ، دون أن تدري لماذا، كل شيء يعترض طريقها، حتى أولئك الذين يحبونها.

طار العصفور.

- خرافة جميلة، علق نافا.

- نعم... كان علينا أن نستمع جيدا الى أقوال الشاعر.

- هيا يا شاب، صاح صالح لاندوشين من على صخرة في القمة، تعال لنذهب.

لبس نافا نعليه. فك طية سرواله ثم نهض.

- علي الذهاب يا يحيى ، لقد سررت لرؤيتك.

- الى الملتقى أيها الممثل. إذا مررت ثانية من هنا فاسأل عن عصام أبو شهيد، هذا هو اسمي الحربي. أنا في كتيبة *الفرقان*، سأكون سعيدا لرؤيتك ثانية.

- لا استطيع أن أمنحك عنواني فأنا لا أعلم أين أنا ذاهب.

- هذا ليس بمشكل، سأعلم بذلك.

تصافحا، و تحاشيا النظر الى بعضهما البعض، كان الموقف مؤثرا و المشاعر جياشة. ثم تعانقا بصمت لمدة دقيقة.

- كن حذرا يا نافا.

- الوداع.

تخطى نافا دغلا، ثم أسرع للإلتحاق بمجموعته. استدار من على الصخرة فرأى يحيى واقفا وسط الخميلة يشير له بذراعه مودعا.

ولم يتمكنا من الإلتقاء ثانية.

سيقتل يحيى أواخر الصيف: متضايقا من حركاته البهلوانيه، ومتهما إياه بممارسة الشعوذة ، أمر الأمير بتنفيذ حكم الاعدام فيه.

16

لم تقاوم قرية سيدي عياش طويلا تلك الهجومات الإرهابية. ولم ينفعها قربها من السماء لتستجاب دعواتها.
تحملت لصوصية العصابة، المضايقات، التجاوزات، رضيت بفقرها لإطعام مضطهديها، غير أنه و بعد المجازر التي حدثت و التي استهدفت عائلتي حارس بلدي و عسكري متقاعد ، دفعت القرويين بان يأخذوا ابناءهم و امتعتهم على متن عربات و يغادروا المنطقة.
استولت الكتيبة على بيوتهم الفقيرة و اتخذوا منها مركز قيادة كما استحوذوا على ممتلكاتهم المهجورة.
محاطة بالغابات و الأحراش، تتموقع القرية على قمة عالية جعلت منها مكانا استراتيجيا يطل على كل الناحية، ويراقب الطريق الوحيد الذي يخترق الجبل و يحوضه. المخاطرة بالقيام بعملية عسكرية تبدو ضئيلة جدا. حيث أن ادنى تحرك معادي كان يمكن اكتشافه قبل وقوعه.
تضم الكتيبة في صفوفها حوالي مائة شخص، يراسها شخص اسمه " شرحبيل" ، و هو أمير ابن هذه المنطقة، حيث لا تبعد قريته عن هذا الموقع الا ببضع خطوات ، هناك في الأسفل. رجل ذو بنية قوية، مشعر يشبه في ذلك هيدورة

خروف، ذو قوة عظيمة قادرة على صرع حمار بلكمة، من قدماء " المجاهدين الافغان". قواته المسلحة التي يقودها تتكون في غالبيتها من اقاربه و جيرانه. لقد وضع بيده عدة وظائف في الوقت نفسه فهو رئيس البلدية و القاضي و الموثق و الإمام.

كان سكان البلدة يحترمونه ، فبفضله ياكلون حتى الشبع. حين ينقض شرحبيل على مراكز التموين التابعة للدولة، كان يوزع ثلاثة اربع الحصة على الفقراء و الاقارب. و في الشتاء حين كان يستولي على حمولات كاملة من قارورات الغاز ، كان يأخذ كمية لاستعمالاته الخاصة او لصناعة القنابل، و يهدي البقية للقبائل المتحالفة معه.

كان "سيد" الناحية، يهتم بالحالة الصحية للشيوخ والأطفال. لم يكن يحرق موسسة تعليمية الا و يفتح بالمقابل مدرسة قرانية، كان يمثل خلاص البوادي من هامة النظام. يسحر الشباب بفضل خطبه الحماسية النارية. كان الأهالي يعرضون عليه نزاعاتهم و همومهم وخصاماتهم التي كان يدرسها بدقة و عناية كبيرة. كانت قراراته غير قابلة للطعن. هو الذي يبارك الاعراس و حفلات الختان. يصدر احكام الطلاق، يحل الخلافات القديمة حسب الشريعة الإسلامية. كان في ذلك يدرب اتباعه على التسيير الاداري للدولة الاسلامية الوشيكة التاسيس.

كان شرحبيل عادلا، هيبته تكمن في كونه غير متساهل. كان يثير الرعب في أعدائه كما في أتباعه.

عين اخاه نائبا له، احد ابناء عمومته مفسرا شارحا للنصوص الدينية، احد اصهاره في امانة الوحدة و حفيد له امينا للخزينة. كان حرسه الخاص يتشكل من أقاربه و أبناء البلدة. هولاء كانوا يستفيدون من امتيازات غير محددة، كان

لهمم الحق في الزواج و العيش مع عائلاتهم في القرية. كانوا يقيمون في الأماكن و الساحات الرئيسية، وكانوا أحرارا في تنقلاتهم، و لهم في ذلك كامل الحرية. اما بقية الكتيبة فقد جمعت مجموعة من الجنود الفارين من وحداتهم العسكرية، سجناء فارين من السجن، جانحين، أساتذة و مهندسين مطرودين من المدن و بعض الفلاحين الصغار الذين اختطفوا بصدفة فوجدوا انفسهم متورطين في الأمر دون اختيار. هذا الصنف من المحاربين كان خاضعا لقواعد صارمة و عسيرة: الحذر الشديد و التضحية بالنفس الغالية لاسباب تافهة. و كان على كل فرد منهم أن يتدبر قوته و أكله.

لم يستقبل الامير شرحبيل نافا و رفاقه، فهو يكره المدينيين، وكان يعد مثل هذا التحويل الى كتيبته عبارة عن اجراء تاديبي ضدهم. لقد بعث بعمار و مقاتل الى كتيبة اخرى و احتفظ بعبد البصير الذي أثنى عليه صالح كونه صانع قنابل ممتاز، و سلم أبو تراب و سهيل و نافا ولبيد الى عريف فض متعلق بالترهات، منع عليهم حمل السلاح، و كلفهم بالقيام باعمال السخرة الخاصة بالقطاع. و نبههم بان ليس من حقهم الاختلاط بعناصر الحرس الخاص، و لا التقرب من المحاربين، و أن مهامهم تتمثل أساسا في تزويد الوحدة بالماء الشروب الذي يؤتى به من نبع يوجد على بعد كلمترات، و كذا حفر الخنادق المحصنة الاحتياطية وتجهيزها تحسبا لاية عملية انسحاب أو تراجع. و كذا الاهتمام بالبغال واحصنة الكتيبة، و اضافة الى ذلك يتولون مهمة دفن الاموات. من جهة أخرى كان عليهم أن يتمرنوا على المعارك المغلقة بنفس الدرجة التي يتدرب بها المتعينون الجدد، و كذا متابعة دروس الوعظ التي كان يلقيها مفتي الكتيبة في الصباح و المساء.

لم يكن ينتظر سهيل مثل هذا الاستقبال البارد و المضجر. لقد كان ضابط صف في البحرية الوطنية، وكان يعيش نوعا من حالة الحذر من قبل القيادة البحرية. و اذا به يخدع وحدته و يقتل رفيق الغرفة و عسكريين اخرين ليفر حاملا معه اسلحة و امتعة، و هو في ذلك كان متيقنا من أنه سيتحصل و ببساطة على أوسمة " أمير ". ألم يكن بحوزته ثلاث بندقيات رشاشة، سلاحان يدويان، صندوق من القنابل اليدوية و القائمة الكاملة باسماء الضباط؟ الم يعده الإخوة بارساله الى القاعدة الخلفية بأوروبا، بمجرد توفر الفرصة لذلك، و انه لا ينشط قبل الرحيل الى الخارج إلا في المنطقة المدينية؟ بما انه كان بحريا، لم يكن سهيل متعودا على قساوة المخيمات و على على المناطق الخطيرة ذات الحوادث المستمرة، لقد كان عاملا في اللاسلكي يعمل في دفء مقصورته، ياقة سترته نظيفة و يداه ناعمتان كيدي عازف بيانو.

ان مجيئه و نزوله ببلدة سيدي عياش كان امرا صعب القبول. و أكثر من ذلك كان يشعر بالغربة، و هذا ما كان يقلقه. كان يشعر بخوف دائم و متزايد تجاه رجال الكتيبة، كانوا وسخين، مثبطي العزيمة، حواجبهم نازلة نحو الاسفل ونظراتهم سامة، يأكلون مثل الحيوانات و ينامون مثل الدواب. لا يضحكون أبدا. يقيمون الصلاة في كل وقت و دون وضوء و بأحذيتهم، و لم تكن أحاديثهم سوى عن شفرات خناجرهم.

أبدى سهيل الى نافا رغبته في العودة الى الجزائر العاصمة، وقد نصحه نافا بأن لا يخاطر بنفسه و عليه أن يواجه آلامه بالصبر.

صبر سهيل أسبوعا و ذات صباح سجل غيابه في التجمع، حدثت ضجة كبيرة، و عمت الفوضى البلدة. وبدأت المطاردة.

و في يوم الغد ، عند قيامنا لأداء صلاة الفجر ، اكتشفنا سهيلا معلقا من رجليه في عمود لساحة القرية. كان جسده عاريا و مكززا. كان مذبوحا و قد قطعت حنجرته من الأذن الى الاذن الاخرى.

قطع نافا عهدا على نفسه ألا تكون نهايته مثل نهاية سهيل.

يقول مفتي الكتيبة للملتحقين الجدد، المجتمعين حوله في الفرجة:

" هذا شيء واضح، بسيط الفهم كقول (السلام عليكم)، كاداء التحية. لا توجد سبل متعدة. هناك سبيلان اثنان و فقط: سبيل الإله وسبيل الشيطان الرجيم. و هما متناقضان ومتعاكسان تماما. ننطلق من نقطة انطلاق، كلما توغلنا في طريقنا كلما اقتربنا من طرف نبتعد اكثر عن الطرف الاخر . لا يمكن أن تكون لنا قدم في المشرق و ثانية في المغرب. هذا غير ممكن و مستحيل. عندما نختار سبيلا علينا أن نسير فيه حتى النهاية. هناك بعض السبل ضيقة لدرجة ان الماشي فيها عليه أن يضع رجلا واحدة ثم يلحقها بالأخرى. لا يمكننا أن ندور دون أن نعكر صفو نظام الأشياء، دون أن نقلب معلما، و في النتيجة الضياع... ضياع السبيل."

كان الملتحقون الجدد يوافقون بصمت.

مسح المفتي على لحيته المصبوغة بالحناء، ضرب باصبعه فوق كتاب للأحاديث النبوية و أضاف بصوته الغليظ الرنان:

" لا تظنوا اننا أصحاب امتياز. الله ينير عباده دون تمييز. يوجد اناس يتقبلون عطاءه و آخرون يرفضونه مفضلين عليه الغشي والعمى. لنا الفخر أن نكون من بين صنف الاوائل. لاننا تنازلنا عن الوهم البراق و اخترنا الطريق الواضح الذي كل شيء فيه عار وشفاف دون اضواء و لا تمويه أو تزويق. إلى يوم القيامة، اليوم الاخر ينزع القناع عن كل خداع، الزائف ينكشف أمره: و لن تتجلى امام الإله إلا الحقيقة الكاملة لأعمالنا. في ذلك اليوم يجب ألا نخجل من عرينا. اليوم هذا هو البرهان على صراحتنا و هو ما يؤكد على أن ليس لنا ما نخفيه... هنا نعد أنفسنا جنود الله. اولئك الذين لم يلتحقوا بصفوفنا يموتون في ظلال الشياطين. وهؤلاء لا يجب أن نعيرهم اهتماما و لا نحسبهم منا، فهم مثل الاعشاب الضارة يتوجب علينا اقتلاعها. بذلك يصبح طريقنا سالكا، و لاخلفة سيئة يمكنها أن تعرقل خطانا."

"الجماعات الاسلامية المسلحة هي عائلتنا الوحيدة. الامير هو أبونا كلنا. هو قائدنا و روحنا. يحمل في داخله النبوءة. فلنتبعه مغمضي العيون. هو الذي يعرف كيف يقودنا الى جنات العادلين، فلنا فيها روائع الخلود.".

"اذا لم يكن ابوك الطبيعي في صفك فهو لم يعد اباك. و اذا لم تكن امك في صفك فهي لم تعد أمك. و اذا لم تكن اخواتكم و اخوتكم و أقاربكم و أعمامكم في صفكم فأنتم لم تعودوا منهم. انسوهم، وتامروا عليهم فماهم إلا فروع مريضة يجب قطعها للحفاظ على شجرة نسبكم."

" ما بين الله و الاباء ، لا يجب ان يطرح الاختيار اساسا. ليست هناك مقارنة ما بين السماء و فقاعة هواء. إننا لا نختار ما بين الكون و ذرة غبار."

رفع شاب ،مراهق أصبعه طالبا الكلمة، فلكزته مجموعة من رفاقه بمرافقهم لكي ينزل أصبعه و يسكت. لكنه لم يفعل و أبقى أصبعه مرفوعا، حتى وافق المفتي على سماع سؤاله:

نعم يا بني؟

ارتبك الفتى المراهق

- ألديك سؤال تريد طرحه؟

- نعم يا شيخ، ما موقفنا من الاباء الذين.. الذين يناضلون في " الجيش الإسلامي للإنقاذ"؟

عمت وشوشات في الفرجة، و أوقفها المفتي على الفور، بإشارة من يده:

يا بني، إن "الجيش الإسلامي للإنقاذ" هو عش أفاعي، انهم *بغاة*، يعني راضين و خانعين، يمارسون كل أصناف المؤامرات الدنيئة ويتعاملون مع النظام/ الشيطان إذا ما سمح لهم بالوصول و لو إلى ركن من عرشه. هؤلاء الناس متقلبون، وصوليون، مناورون، فما هم الا مجموعة من الإنتهازيين مقنعين بطيبة السامريين. ذئاب تحت جلد نعاج، قوالين و ذوي مغامرة تتمثل أساسا في خداع البؤساء وتنويمهم و الإدعاء بأن المعجزة تتفجر في الأحلام. انهم أخطر من حلفائهم *الطاغوت*. يستخدمون الايمان لأغراض نفعية، و يتفاوضون مع النظام لأخذ حصتهم من الغنيمة ولايبالون إطلاقا بالآخرين... " الجماعة الإسلامية المسلحة" لا تساوم. لن تجلس أبدا مع أعداء كلمة الله إلى طاولة واحدة. لن يغريها أي امتياز. لا مشاركة و لا اقتسام ... إننا لا نحسن أن نكون دبلوماسيين عندما يتعلق الأمر بالمساس بالله تعالى. من أجله سنحارب الأمم كلها، إذا ما تطلب الأمر ذلك. وهذا البلد الفاسد الذي هو بلدنا، و الذي يقضي عليه الجفاف بسبب خطايانا. بالتأكيد ، انه يعاني و يترجانا أن نخلصه من سيطرة

زمرة المرتدين و من مخالب النسور. هذا هو قسم " الجماعات الاسلامية المسلحة": الحرب، و ليس غير الحرب، حتى الإبادة الكاملة للطاغوت و البغاة و اللائكيين والماسونيين و الرجال المفسدين المنحطين، و بالأخص المفسدين. اذ لا يوجد الا طريق واحد لتقويم العالم. إنه القضاء و التخلص من الذين يركعون لأسيادهم و يرضون بالذل.

استنتج الفتى المراهق براحة و قال." اذن علينا الا نعامل الوالدين اللذين يناضلان في " الجيش الاسلامي للانقاذ" كاعداء لنا."

- بالتأكيد.

- هل رايت ذلك؟ قالها الشاب موجها كلامه لزميله الذي اخفى رأسه في عنقه، ما ذا كنت تقول؟ (ثم موجها كلامه للمفتي) هل نحاول إقناعهم لكي ينظموا الى صفوفنا؟

إنهم لا يستحقون ذلك التعب؟ كم هو عددهم في " الجيش الإسلامي للإنقاذ"؟ بضع مئات من قطاع الطرق، بعض حفنات من الغيلان الذين لا يهتمون سوى افزاع الأطفال الساهدين المصابين بالأرق؟ إنهم لا يهموننا، فهم بالنسبة إلينا موتى ينفر حافرو القبور من دفنها. مصير الأمة بين أيدينا نحن. إننا نعد بالالاف في الجبال، بالملايين في المدن. نحن شعب الغد. البرهان الحي على ذلك واضح أمام أعينكم: هاته الجبال التي لا يتجرأ طاغوت على أن يغامر فيها، هاته الحشود التي ترتبك عند سماع صوت اقدامنا، هذه الشوارع التي ترتعش تحت تجشئات قنابلنا، تلك المقابر التي تستقبل يوميا جثة لأحد من الأنذال الذين هم في طريقهم الى الإندثار... أتشكون في ذلك؟

- لا، يا شيخ.

- لم أسمع.

- لا، يا شيخ !!

من يشك في كلامنا فهو يشك في كلام الله. ذلك سوف يرى حمم جهنم متأججة، تحول صراخه الى مشعل لا ينطفي. حذار من ابليس يا إخواني، انه يتربص بنا، مستغلا أبسط اهوائنا الداخلية لكي يسكن داخلنا. على المجاهد أن يظل يقظا، حذقا. لا تشكوا إطلاقا، اطلاقا وإطلاقا في أميركم. إن الله يتكلم بواسطة فمه. لا تفكروا، لا تتاخروا في أداء أعمالكم و أفعالكم، أطردوا أفكاركم و وساوسكم من رؤوسكم، أطردوا ترددداتكم من قلوبكم، اقتنعوا كونكم الذراع الذي يوجه الضربات و يحمل الراية الخضراء و المشعل، و تذكروا هذا ليلا ونهارا: إذا ما ازعجكم شيء ما، بينما انتم تزرعون الموت و النار، قولوا انه " إبليس" الذي يدرك إن نصركم قريب، و انه يوسوس لكم ليضللكم عنه.

أغلق المفتي كتابه بقوة. انتهى الدرس. المدرب الذي كان يشخص ببصره كالأبله إلى ظل دغل ، نهض و ضرب بكفيه. استعد المتطوعون الجدد، شكلوا مربعا، المعاصم مصلوبة على الصدر ، والركب عند الذقن، ثم اختفوا في الغابة و هم يصرخون على طريقة الكوماندوس. المدرب عريف-مظلي سابق، الهراوة تلاحق المتخلفين، تطالب بصفوف متراصة جيدا. كان صراخ هذه الجواميز يثير اهتزازات في الأرض.

اقترب أبو تراب من المفتي الذي كان جالسا على زربية، منشغلا بتأمل ملامح وجهه في شقفة مرآة.

- ما سمعت أبدا خطيبا جذابا بحديثه مثلك، يا سيدي.

حرف المفتي بعينيه قليلا، متحايلا كجني:

- ذاك لأنك لم تكن لتتعب نفسك في السابق و لو بتنقية أذنيك.

- تلك حقيقة يا سيدي. قالها أبو تراب مؤكدا ثم اردف: ان كلامك عبارة عن جرعات سحرية تقوي عزيمة النفس.
- يا حسرتاه ! إنها لا تمنع ذويك إن يواصلوا في العمى والخطأ، يا أخ ابا تراب.
أنا صادق.
ادخل المفتي شقفة المراة في جيب خفي في قميصه الطويل، ثم قام . كان في قامته يتجاوز برأسين كلا من أبي تراب و نافا وهذا ما كان يشعره بالعلو أكثر.
أخي العزيز، لو كان لي ميل نحو الحوريات، لكنت الان في شرود فوق إحدى الحشفات. بفضل الله فسمعي جيد، حذر و لا يخونني. إنه ينبهني و في الوقت المناسب. إن كان القدر قد جعل مني أميرا فذاك بفضل هاتين الأذنين، فقصري ليس مدفنا للرفات، إن متزلفي يعلقون من ألسنتهم، و المتامرين تتم تصفيتهم بسرعة لم يكونوا ليحسبون لها حسابا، هل تعلم لماذا؟
- لا يا سيدي.
- لأنني لا أسمع كلاما إلا و تحريت الفكرة التي تختفي خلفه وتحركه. ان التملقات ترتطم فوق جسدي كحبات البرد فوق الواقية أو الدرع. لذلك أنصحك بأن نوفر على نفسك هذا النوع من الحيل وأدخل في الموضوع مباشرة.
- حسنا، هذا جيد جدا، منذ قليل كنت تقول : لا يجوز لأي مجاهد أن يشك في أميره.
- تماما.
- هل يجوز لنا أن نشك في مجاهد.
حرك المفتي جناح شاشه من على كتفه، ثم نسلق طريقا متصاعدا.
- أين تريد أن تصل يا أخ أبا تراب.

- لقد التحقنا بالكتيبة منذ فصل الربيع، أنا و الأخ نافا، وهاهو فصل الصيف يقترب من نهايته، و لم نستلم سلاحا. مجندون جدد دربوا و بعثوا إلى التعميد بالنار و خوض القتال و نافا و أنا نواصل العناية بالبغلات و نقضي جل وقتنا في الفراغ، مع أننا أثبتنا جدارتنا في الجزائر العاصمة و ذلك أن قتلنا كثيرا من الكفار.

- برايكما ، لماذا لم يحتفظ بكما أمراؤكم السابقون؟

- إن واجبنا يفرض علينا ألا نبحث عن السبب، لقد حان الاوان لاستدراك ذلك. لقد كنت ملازما اولا لابي مريم، لقد خيبت ظنه بالتأكيد، ربما في غفلة مني وقع ذلك، و لكنني ما خدعته قط. نتمنى ان نوضع رهن التجربة، اذا ما أخطأنا مرة اخرى فلنردم في التراب نهائيا. أعمال السخرة، يا سيدي، تهيننا، ان الحرب قائمة و ملعلعة، ونريد أن نكون طرفا فيها. لقد حملنا السلاح من أجل النصر أو الموت.

- حدثوا الأمير في ذلك.

- أنت من يحامي على قضيتنا أفضل منا. لديك سمع لا يخيب، أنا متأكد أنك تدرك إخلاصي.

تنحنح المفتي ثم حدق مليا في الرجلين، فأخرج لست ادري من أين مسبحة من عنبر و بدا في تفريك حباتها مفكرا.

قال: حسنا، سأرى ما أنا قادر على فعله، إرجعا الى جوار البغلات، في الانتظار. مرات تكون رفقتها أحسن من رفقة الخيول.

- هكذا تريدون أن تجعلونا نصدق بأنكم لستم لقطاء؟

كان أبو تراب و نافا وليد في كوخهما يحضران غذاءهما، عندما لعلع خلفهما الصوت القوي، صوت عبد الجليل، توقفا للتو عن كل حركة، تراجعا، متفاجئين بزيارة العسكري الأكثر شجاعة في الكتيبة كلها.

كان عبد الجليل عملاقا هرميا إلى حد انه لم يكن يجد زوج حذاء تناسب مقاسه. طويل و عريض، جعبات الخراطيش متدلية على صدره، الساطور مرشوق في النجاد، كان قادرا على قتل فرائسه بمجرد تقطيبة العينين، كان يخرج مستقيم القامة كأنما ينهض للتو من كابوس بشعره المضفور الذي يذكر بشعر ميدوس و صوته الذي كان يسمع على مسافة بعيدة كصوت مدفع. عندما كان يمر وسط صفوف الجنود ليراقب استعراضهم كانت رائحة الوحش المفترس تنبعث منه فتجعلهم يرتعدون من قمة الراس إلى أخمص القدم.

لم يكن عبد الجليل من لحم و دم و فقط، كان هو الموت ذاته متحركا.

و عبد الجليل ابن عم شرحبيل مكلف بقيادة المفرزة المتنقلة للوحدة، تلك التي كانت تضرب في أي مكان و في أي لحظة. كانت تمر على النواحي فلا تبقي شينا كما الوباء، و صاعقة كما البرق كانت.

- لقد حملني الأمير بأن أنظر ما إذا كنت قادرا على استخراج شيء من لصين مثلكما.

- إنه لشرف أن نؤدي خدمة تحت أوامرك، صاح ابو تراب عاليا.

- أنا لست أصما.

- كان عبد الجليل لطوله و لهرميته مضطرا للإنحناء كي يتمكن من الدخول إلى الكوخ.

تفحص أركان الغرفة، ركل سريرا حقيرا برأس رجله، قرفص أمام القدر ، رفع الغطاء.

- ماذا تطهون على هذه النار الهادئة؟

- لحم و خضار.

- انا لا اقصد هذه القذارة، و لكن عن الذي تطبخونه خلف رؤوسكم.

نهض، سل ساطوره من غمده، ضرب به راحة كفه.

توتر نافا.

قاوم ابو تراب خوفه حتى لا تخونه قواه. كان واضحا ان قدرهما مرهون و محسوم خلال الثواني القليلة القادمة. مركزا بقوة، تنفس ابو تراب عميقا، و اجاب بصوت واضح ورصين:

" لدينا رأس واحد انه رأس الامير" لوح عبد الجليل بساطوره، تلألأ في الضوء الذي كان يتسرب من ثقب في الحائط. برشاقة ومهارة حرك شفرة الساطور أمام ابي تراب قبل ان يضعها تحت ذقن نافا.

- لا وقت للقطع الزانفة كي تفسد و تتعفن ها هنا عندي. ما تحمله هذا الصنف مني يفوق الخيال.

- انهم لا يستحقون أقل من ذلك، قالها أبو تراب موافقا. والقلب يدق بعنف.

مد عبد الجليل عينيه ، زاغ بنظره في كل مكان، علهما تكتشفان حركة مشبوهة أو نظرة مريبة.

بسط عبد الجليل شفتيه، كان مسرورا، تنحنح و مر قبالة الرجلين و هما في وضعية الاستعداد، شبيهين ببطلين انتحاريين.

أعاد الساطور إلى غمده و غادر المكان دون ان ينبس بكلمة واحدة.

ارسل أبو تراب زفيرا حادا نصفه الى اثنين.

في حين استغرق نافا وقتا طويلا كي يستعيد هدوءه، غير مصدق أن الأمر انتهى.

و بعد مرور بضعة ايام، وزعت عليهما بندقيتي صيد وخراطيش و صدارتين واقيتن من الرصاص مصنوعة من مطاط العجلات مملوءة بالرمل. ثم أخيرا ادمجوا في فرقة عبد الجليل.

قادتهما الخرجة الأولى لمسافة خمسين كلمتر. في عمق واد حيث نصب الجيش معسكرا جديدا. اصر شرحبيل ان يهنى و يرحب بمجيء الطاغوت الى مقاطعته.. قنبلتان تقليديتان وضعتا وسط الطريق الترابي، ثلاثون جنديا نصبت لهم كمائن في الأدغال، و في أقل من عشر دقائق اتى الكمين على سبعة عشر جنديا، كما تم الاستيلاء على حوالي عشرة أسلحة رشاشة، و العدد نفسه من الصدارات الواقية من الرصاص، صناديق من الذخيرة الحية، جهاز راديو، كما تم تدمير شاحنة و سيارة من نوع "جيب".

لإثر العودة إلى سيدي عياش، كان للأبطال الحق في اقامة حفلة خالدة. إن نجاح العملية أدهش و افرح حتى أمير المنطقة، أي القائد العام لمجموع كتائب المنطقة، الذي تحرك، على رأس حرسه، ليهنئ عبد الجليل شخصيا.

- إن البلاد لنا، أعلن ذلك بصراحة.

ما يقال هو الحقيقة بعينها. البلاد هي بين أيدي المتطرفين المسلحين. إن الكتيبة تتحرك كيفما و حيثما يحلو لها. و بكل سكينة. انها تستولي على شاحنات النقل في الحواجز المزيفة. تسرق شاحنات حضيرة البلدية. تستخف بقوات الامن. تستعرض قواتها في القرى، و في وضح النهار. الراس عالية أرفع من الراية. تستقبل الكتيبة بالمراسيم والتشريفات و الترحيب و التهليل و التصفيق. بمجرد أن تظهر في الأفق يسرع الأطفال لملاقتها. يغادر الفلاحون محارثهم لتحياتها. و النساء ترفعن لها الزغاريد في كل

القرية. النبلاء لا يدخرون و لا يبخلون عليها بالإمكانيات. تنصب لها عشرات الخراف المشوية مصفوفة في الساحة، محفوفة بقصاع الكسكس و العسل و الشاي الأخضر. اناشيد دينية ترتفع في السماء، وعامة الشعب البسيط متاثرا بهذا الموقف الحساس يذرف دموع الفرح لاقتراب " المنقذين" المخلصين. مرات كان شرحبيل يركب فرسا بيضاء. في تلك الايام، بشاشه اللامع و برنوسه من الحرير و بلغته المطرزة بخيوط الذهب، كان يتمثل احد الائمة المرسلين، حيث شبحه يثير الهستيريا الجماعية. بعد الزردة حيث دعي الجميع، يتم حشد الجماهير حول المسجد، يعطي المفتي الحرية الكاملة لخطبته و لشرح نظرياته: يتكلم المفتي عن بلاد الخرافة والعجب، حيث الأضواء ساطعة، حيث يعيش الناس أحرارا وسواسية. تكون السعادة في متناول اليد... بلاد حيث يسمع فيها حفيف جنات الله تعالى ليلا، كما يسمع كل صباح نداء المؤذن.

يتراجع فصل الخريف أمام زحف الكتيبة. وفي كل ذلك كان شرحبيل يرسم و يصنع أسطورة له. كانت له زوجة في كل دشرة، وله كنز في كل جبل. كانت التبرعات تجمع في حقائب تجيء ملأى، و مرات كانت الأرياف تبتز. لكي يتم الضغط اكثر على الأتباع، ولكي يتم ضبط " الرافضين" وإدخالهم في الصفوف، كنا نأتي على عائلة من هنا، و نحرق مزارع من هناك، نقوم بذلك بشكل عشوائي لفرض الرعب على العامة. حين لا تكون هناك أية تهمة يمكن توجيهها لدوار ما، كنا نصطنع له واحدة كأن نخرج له قضية انتماء أحد النبلاء غير المرغوب فيهم إليه، أو تصرف يستحق اللوم كي نعاقبه و نوبخه عليه. كانت أجهزة الراديو و التلفزيون ممنوعة، أصحابها يتم جلدهم. نطارد المتآمرين و الأئمة

المتمردين علينا و صعب المراس و الوجوه الرموزية التي تمثل الماضي و النساء المسترجلات غير الطائعات و اباء الطاغوت . هو لاء يذبحون، تقطع اطرافهم، يحرقون احياء او يمزقون و تعرض جثثهم في الساحة العمومية.

بالموازاة مع ذلك، نلاحق فلول جماعات الجيش الاسلامي للانقاذ حتى نطردهم بعيدا عن التجمعات السكنية المدينية و المناطق الحساسة. بهذه الطريقة فإننا نعزلهم عن قواعد امداداتهم حتى نجوعهم كي نفرض عليهم الركوع أمام تنظيمنا " الجماعات الإسلامية المسلحة" . بعض المناوشات تحدث في اماكن هكذا تثير السخرية. مجهزين تجهيزا ضعيفا، دون حماس، هكذا تجد قوات البغاة نفسها مجبرة على التراجع، متجاهلين معالمهم و وثائقهم. يحدث مرات، ان تستسلم مضطرة مجموعة ما و تسلم سلاحها. يعامل أفراد هذه المجموعة معاملة العبيد قبل أن ينتهوا في المقابر الجماعية.

من جهة أخرى، أثناء عمليات التمشيط التي يقوم بها الجيش، ما أن يبدأها حتى يتراجع على اعقابه. و لأن العسكر ثقيل الحركة، فانه يخدع قبل أن يتحرك و لن يصل المكان المقصود إلا متأخرا. كان شرحبيل يفضل أن يميل الى الجهة الاخرى لكي تمر العاصفة قبل أن يهجم على الوحدات المعزولة بعد عودتها من العمليات. بفضل بسالات عبد البصير ، تلغم الطرق الترابية، تفخخ العربات المتروكة بقصد في الساحة، مكيلة هكذا الخسائر دون أن نتبادل النار معه.

كان المواطنون يتعاونون مع الأمير. فهم الذين يعلمونه وفي الوقت المناسب بتحركات الجيش و كذا مساراته و تشكيلاته وخططه. ما أن يتحرك فيلق باتجاه معين، إلا ويكون

قد تم التعرف عليه و تقييمه. مراكز الدرك التي كانت تبنى في سرية تامة، كانت تفجر ليلة بدء العمل بها. مرات كانت قنبلة تحول يوم تدشين المقر الى مذبحة. بقدرما ما كان الطاغوت يتعنت في استرجاع و ربح الميدان بقدرما كانت الجماعات الاسلامية المسلحة توسع من مجالها الحيوي. تصاعد الاغتيالات ، وسط المدن و القرى، الهجرات من الريف التي بدأت تضخم الأحياء المحيطية، الحالة النفسية القلقة التي تعم، الاختطافات التي تحدث أمام عيون العسس، الهجومات على الحواجز و الدوريات، الألغام المتفجرة المزروعة في الدوائر الحكومية و في الأحياء العسكرية؛ كل هذا السيل من الضربات والتحرشات كان يقلق " السلطات" و يسلم بقية البلاد، فالقري والأرياف و شبكة الطرقات هي بين أيدي الكتائب. لقد بدأ تشرذم قوات العدو حيث تراجعت السيطرة و السلطة و مقابلها ازدادت شهية الأمراء توسعا، ثملين بيدهم المطلقة دون رادع، إذ بدأوا في تطعيم طموحاتهم اللامتوازنة و الحلم بإمبراطوريات خارقة و خرافية.

شياطين الشقاق و الفتنة يستيقظون.

الجشع يضاف إلى الشراهة.

يسحق العرش تحت مراوغات التحالفات و تحت تشنجات الصراعات الداخلية.

ذات صباح، اجتاحت سيدي عياش حركة غير عادية. بدا ذلك أولا بسخرة القطاع، وزعت أحذية رياضية جديدة على المتطوعين الجدد، تم إلباس الجميع اللباس الأفغاني: قائد كبير يشرف الكتيبة بزيارته. ارتدى شرحبيل طقم المناسبات الرسمية، هو نفسه الذي يرتديه حين يقوم بدوراته التفقدية في القرى المتحمسة. تم نحر حوالي عشرين خروفا. للمرة الأولى يختلط الحرس الخاص بالمقاتلين العاديين لإخفاء لونهم

القرمزي و بدانتهم المزعجة. عند منتصف النهار، وصل مسبلو و نذيرو الوفد لمعاينة و تفتيش المعسكر ووضع حراس في كل مكان. في ساعة متاخرة من الليل، وصل الامير زيتوني مرفوقا بفرقه المثيرة. السحنة رمادية، رفض ان يذوق من الوليمة ثم اجتمع لساعات طويلة مع اهم رؤساء الكتيبة في منزل شرحبيل. على اثر انتهاء الإجتماع، غادر القرية في منتصف الليل.

شرح عبد الجليل لرجاله بأن هناك فريقا منشقا مكونا من اربعمائة خائن يهدد وحدة الجماعات الاسلامية المسلحة.

- سلفيون، قالها مصحوبة بحركات توحي بالتقيء، وسخون لا ينظفون حتى مؤخراتهم. اذن، سنعرف فيما اذا كان ما يحفظونه في أحشائهم صلبا بقدر ذاك الذي خلف الرأس.

ان الامر يتعلق بمجموعات قادة بن شيحة، حلاق من مدينة سيدي بلعباس، قدمه عرجاء، و حبه في السلطة شره، هو الذي قاد كتائب غرب البلاد قبل أن يعزل و يحكم عليه بالإعدام من قبل " المجلس الوطني". شخصية أسطورية، تميزت بالإعتداءات الأكثر عنفا ضد مجموعة من أهم التكنات في القطاع الوهراني. يعد رجاله من الأفغان الأكثر خطورة. كان بحوزتهم أهم التجهيزات العسكرية، هم الوحيدون الذين كانوا يملكون المدفعيةو المدافع المضادة للدبابات. طلب الأمير بعض التجهيزات العسكرية لمساندة ودعم الفرق العاصمية. لم يتوقف قادة بن شيحة عند رفض طلب الأمير بل طلب أن يعين قائدا عاما للجماعات الإسلامية المسلحة، و هو الدافع الذي جعله يزحف على القيادة العامة الوطنية كي يستولي عليها بالقوة.

جمع شرحبيل وحداته و دون تاخير اقلع زاحفا على الناحية الغربية. في طريقه انضمت اليه كتائب اخرى. مئات الاشخاص، منهم من كان على ظهور البغال، و من على سطوح الشاحنات المسروقة او المستعارة من المواطنين، كانوا جميعا يقطعون الجبال مجانبين جبال الورسنيس حيث كان السلفيون في انتظارهم بالمرصاد.

كانت المعارك عنيفة. عشرات القتلى. كل ذلك كان حظا وافرا بالنسبة للعسكر الذي يريد أن يغتنم الفرصة حيث يوجد عدد هائل من المحاربين في هذه الاماكن و كان يرغب في تصفيتهم.

جرى الانسحاب في تشتت كامل. كانت الحوامات تطارد عصابات المتطرفين، المدفعية تضيع طريقهم، المظليون يعترضونهم في فخاخ نهمة. أصيب ابو تراب في الظهر. لو لا نافا لكان قد هلك. كان عبد الجليل يشحن موتاه في الشاحنات و جرحاه على ظهور البغال راسما باعجوبة طريقا في لوحة النار. قضى أياما طويلة للإلتحاق بالكتيبة التي فرت باتجاه الجنوب و التي ألحقت بها خسائر كبيرة.

بسرعة نسيت الخسائر. لقد اعتبرت معركة الورسنيس ايجابية. لقد تفككت صفوف السلفية. لم يكن الامير زيتوني ليخفي راحته، و لكنه كان يرى بأن الجو لا يزال ساما. لقد اعلن القيام بعملية تنظيف شاملة. حوكم الامير القطاعي من قبل محكمة عسكرية أصدرت حكما بالإعدام في حقه بتهمة التعاون الفكري مع السلفية، اغتصاب الوظيفة و الزندقة. علق رأسه في عمود كهربائي في قريته الأصلية. قادة آخرون لحقهم المصير نفسه. تم حل بعض الوحدات أو ذبح عناصرها. لقد أعاد التغيير هذا عقارب الساعة الى مكانها.

أصبح شرحبيل قاندا قطاعيا. و للاحتفال بهذه الترقية فقد انتقل إلى دواره العائلي ليتزوج بواحدة من بنات اعمامه. وبمجرد الإنتهاء من مراسيم الزواج، كلف شرحبيل شيخين بنقل رسالة الى الجنود مفادها أن الأمير يحتضر و أن هناك ثمانية " ارهابيين" ينتظرون في القرية لدفنه. كان الطعم مشهيا. لم تتاخر دورية عسكرية بالمجيء. في منعطف مطل على هاوية تسقط الدورية في الشباك المنصوب. تنفجر الشاحنة الأولى و الأخيرة من جراء الالغام. واقعين بين المفكين، احترق بقية الجنود تحت وابل نار المدفعية. قتل ثلاثون عسكريا. أما الجرحى فقد تم تكديسهم على متن شاحنة ، رشوا بالبنزين و أضرمت النار فيهم احياء. كان نحيبهم يدوي في الجبال كجوقة معذبين؛ لا الريح الصاقعة، لا نزلات الثلج القوية الشتوية كان بأمكانها ان تبردهم، ان تنعشهم .

- أدخل إذن، زأر عبد الجليل مشيرا له بهيدورة تيس مفروشة على الأرضية.

استجاب نافا وليد. جلس جلسة الزهاد في المكان المشار اليه وقد جمع يديه في حجره.

كانت الحجرة خافتة الإضاءة. مبخرة كانت تعطرها بروائح ناعمة. لم يكن في الغرفة أثاث، باستثناء مائدة صغيرة كانت تتوسطها. على الجدران العارية علقت بعض الغنائم : سيفان متقاطعان، قبعة عسكري مهشمة، و صهد - وهو عبارة عن بازوكا تقليدية الصنع غنمت من وحدة الجيش الإسلامي للانقاذ غير صالح للإستعمال و حقيرة.

كان عبد الجليل يتربع على مصطبة مفروشة بمطارح، حول اصبعه مسبحة، على كتفيه برنوس اميري. و لأنه عينه

على راس الكتيبة فما عاد ضروريا حمل الخراطيش والساطور. كانت كلمته هي القانون. صراخه قرارات واحكام، و اذا، ما كان لنا الإيمان. فاننا ندرك بما لا يدع شكا في ذلك، و كانما يشبه جناحا ملائكيا.

- كيف الحال يا صيقي؟

- اننا لا بأس، يا امير.

هز عبد الجليل لحيته. راية رفرافة، انها تلك اللحية المباركة.

بعد لحظات خشوع، صرح:

- لقد اقنعتني يا اخ نافا.

احضر أحد المقاتلين الشباب براد شاي، ثم ثانيا و ثالثا حتى التهب الحلقوم. لم ينتبه حتى إلى ان المشروب كان بدون سكر.

- اني أراقبك منذ مجيئك إلينا. لقد رايتك في الورستيس، وخلال الانسحاب. لقد كنت شجاعا، ولا يبدو عليك انك ترغب في تحقيق غرض شخصي. انت شخص غير مبال بذلك. متواضع و فعال. مثل هذا النوع من الرجال يلزمني جدا كي يشتغل تحت أوامري.

- اني جد...

- لاتقل شيئا، يقاطعه قائما.

كان يقطع الغرفة و يداه خلف ظهره.

- مع ذلك، هناك شيء لا يعجبني فيك.

وضع نافا كأسه فجأة و قد تملكه ضيق شديد.

وقف عبد الجليل قبالته.

- شق في درعك، أخ نافا... حرباء محزنة: عيناك انك تخفضهما بسرعة كبيرة.

باضطراب احنى نافا رقبته.

- هل ترى؟ إنك تنظر كثيرا إلى رجليك.. و هذا سيء. بهذه الطريقة لن تعرف مخرجك..يا أخ نافا. ارفع راسك، فمن له شجاعتك يجب أن يحرص على ان يترك رأسه مرفوعا، مرفوعا جدا... هل تعلم لماذا استدعيتك؟

- لا يا أمير.

- لكي أضع بعض المساند تحت ذقنك، حتى تستطيع ان تبقي رقبتك مستقيمة...

- المساند ليست مجدية يا أمير.

- اذن قوم فقار الظهر، لأنك و ابتداء من اليوم، ستكون على راس السرية المتنقلة.

- أنا؟

- و هل ترى شخصا ثالثا هنا؟.. انها منطقة قاسية، وعرة المسالك، صعبة المراس، تحتاج لقبضة فولاذية، اني احذرك، لقبك هذا و ترقيتك ستجلب لك الغيرة. و هناك محاربون أحسن و أقدم منك، يحلمون و باكتواء أن يحكموا يوما. مشكلتهم هو أنني أكره الرجال المتسرعين و الطموحين، انهم قادرون على المشي فوق جثث أقاربهم لاشباع رغباتهم، و هذا ما أرفضه. هل إن كلامي واضح؟

- نعم يا أمير.

- حسنا، قف الآن.

وقف نافا

وضع عبد الجليل يديه على كتفي نافا، و ضغط عليهما بكل قواه. كان ذلك دلالة على الإحترام الكبير.

- تهاني يا أمير نافا. أرجو من الله ان يسدد خطواتك وضرباتك. من الآن أنت قائد. و سوف تستفيد من الإمتيازات التي هي من حقك و ستتحمل مسؤولياتك لوحدك. اوامرك ستكون منفذة بالحرف الواحد. لا تقبل حركة تردد أو تفكيرا

في غير محله. رجالك هم اصابع يدك ولا شيء اكثر. هل تفهم؟

- نعم يا امير.

- أعتمد عليك لكي تدخل هذا الذي قلته في رؤوس مرووسيك. اطلب منك ان تاخذ الأمور بحزم و نهائيا. و أن تبقي الرأس عاليا والعيون مفتوحة على اتساعها.

- حسنا يا امير.

- دمر الحساد. في الحالة القاهرة لك الحق في تقضي على واحد او اثنين ليظلوا عبرة.

- أتمنى ألا اصل إلى ذلك.

- هم سيصلون إليها.

وافق نافا.

ادار عبد الجليل له ظهره.

انتهت المقابلة.

ان أخذ الأمور بزمامها ليس ببساطة. فمرور عبد الجليل في السرية قد أثر في الأفكار. لم يجد نافا أي صعوبة لفرض وجوده. باستثناء خباب وهو نقيب سابق في الطيران و قد تحول إلى صانع قنابل، فإن الآخرين كانوا يخفضون بصرهم. لم يكن الفصيل سوى ظلا لنفسه. اندحاره في الورسنيس اقعده الارض. بقتلاه العشرة وجرحاه الثمانية لم يكن له الحق في التعبس.

لقد حدت قساوة الشتاء من المهمات، في المكان و في الزمان. افتتح نافا عهدة حكمه ببعض الاقتحامات المتواضعة هنا و هناك، إقامة بعض الحواجز المزيفة الرمزية، ثم يعود إلى سيدي عياش ليستمتع باستراحة المحارب.

مهمته كأمير جعلته يتخلص من بعض الانشغالات العامة. لم يعد يشغله هم ترتيب سريره او اكله. خادم ضيع

مستميت يتمايل خلفه، مستعد أن يحقق له كل رغباته بعفوية عبقري ماهر.

كان يقيم في حوش لانق. نار التدفئة مشتعلة ليل نهار في كانونها. في الصباح بجانب فطور مشه، كان سطل الماء ساخنا للوضوء.

كان اميرا.

كان يكتشف نشوة السلطة و الاعتبار. لقد ادرك انه لا يوجد شيء أروع من هذا. كان مثل اولئك الذين اختارتهم السماء ينعمون في جنات عدن، ما كان عليه الا ان يفرقع أصابعه ليتحقق الحلم. في أغلب الأحيان لم يكن يتعب نفسه حتى بحركة مثل هذه. كان رجالهيفكرون بدلا عنه. كانوا يقومون بكل شيء املا في كسب رضاه و تحقيق رغبته. كان نافا مندهشا من بساطة الأمور والأشخاص. تحوله من محارب الى أمير حصل بسهولة رائعة.

كان الأمر عجيبا و سحريا.

ذوبان الثلج كان يطعم خرير الغابات، و كانت طبطبات ورقرقة الشلالات تغرق صمت السمفونيات الكريستالية الشفافة. و كانت البساتين تتبدى وسط غلاف حليبي اللون. كانت الأرض قد بدأت تخضر تحت سماء دافئة. عندما نظر نافا الى أرضه، الى مملكته، وجدها عبارة عن ركن من الجنة يفتح له ذراعيه. كان يحب ان يقف على قمة صخرة عالية ليمكث هناك ساعات يستمع الى صوت اصطفاق جناحي معطفه في مهب النسيم و كانما هما يصفقان له. واقفا في العلي فوق الجبال و فوق الرجال، ما كان عليه سوى أن يبسط ذراعيه كي يطير.

17

مزق صفير الهواء، متبوعا كان بدوي انفجار . على بعد امتار من الدشرة، ارتفعت سحابة من غبار، و سط الغابة. قفز نافا وليد من فراشه و أسرع الى الخارج. مجموعة من المحاربين متجمدين كانوا في الزقاق، ينظرون الى المكان الذي جاء منه صوت الانفجار.

ما الذي جرى؟

لن يكون سوى أحد مساعدي خباب صانع القنابل، يا أمير.

قطب حاجبيه. عاد إلى غرفته للبحث عن المنظار المكبر، به يتقصى القرية. على ما يبدو ليس هناك ما يدعو إلى الريبة. حل الصباح، و بمجرد أن بدأت السماء تصحو، بدت الطريق المنعرجة الدائرة حول الجبل خالية تلمع بالوردي. في البعد، اضواء الدشور تتراجع امام انعكاس ضوء الفجر.

- اذهبوا لاستقصاء ما حدث.

وبدوره خرج عبد الجليل و زوجته امام منزلهما. وباشارة من يده استفسر عن الوضع.

اجابه نافا بصوت عال حتى يسمعه، مطمئنا ، بأنه كلف رجاله بالتوجه الى عين المكان:

- انها ، دون شك، حركة خاطئة من قبل صانع القنابل.

ابدى عبد الجليل موافقة القائد، و ما ان كاد يستعد للعودة الى منزله، حتى سمع سلسلة من الصفير، شبيهة بصوت الستارة عند تمزيقها تقطع السماء، و اذا بانفجارات تطايرت من جرانبها الاكواخ البعيدة في القرية. كانت الأحجار وصفائح الزنك تدور محمولة كما في اعاصير من الغبار و الشهب.

صرخ عبد الجليل:

- هذا قصف مدفعية، ليلتحق الجميع بالمخابى في الغابة.

نزلت رشقة ثانية على الساحة، ساحقة بعض الدواب. اكواخ القش التي اندحرت تدحرجت سادة منافذ الازقة بانقاضها. تعالى صراخ ثم نحيب النساء ثم سادت الفوضى. المحاربون يلقون بأنفسهم خارج الأكواخ، يقفزون من النوافذ لينتشروا في كل اتجاه. رشقة ثالثة زعزعت القمة ناسفة في طريقها حضيرة و مخزنا. جرحى يتحشرجون تحت الانقاض، و اخرون كانوا يزحفون متكئين على الجدران. دخان كثيف داكن اغرق الدشرة بينما شب حريق في الحطب ثم بدا ينتشر في الغابة.

عند قدم الجبل، تظهر الشاحنات الاولى لقافلة عسكرية لا تنتهي و قد شرعت في الاستيلاء على الطريق.

أمر عبد الجليل خباب أن يصحب فريقه ويذهب لنسف الجسر. على الفور، شحن النقيب السابق القنابل التقليدية فوق البغلات ثم اندفع في مناوراته.

في الدشرة الملتهبة تواصل القنابل قصفها على المتأخرين الذين من جراء هول الإنفجارات ضلوا الطريق فباتوا يدورون في حلقة مفرغة.

فجأة دوت طلقات في الاسفل، متبوعة بطلقات رشاش حية.

تحدث نافا الى خباب بالراديو:

" ماه هذا الهرج؟"

" مستحيل الوصول الى الجسر ، ان قوات المظليين فى كل مكان." أجابه النقيب.

" هل انت تهلوس ام ماذا اصابك؟."

" قلت لك ان قوات المظليين حول الجسر ما العمل؟."

" لغم الطرقات الترابية."

" انني معهم في مشادة ."

" ضع قنابلك في المنافذ. هذا أمر."

سرب من الطائرات المروحية أطل من خلف الجمل.

" يا لها من كارثة، مأزق. ما كان متوقعا هذا." صاح عبد الجليل.

انسحبت الكتيبة نحو الادغال تاركة خلفها في الميدان امواتها وجرحاها.

الحوامات تمشط الدشرة. تزعق قاذفاتها قبل ان يتم اقتحام اية دار. تعود ثانية لقصف ضواحي و أطراف الدوار ، مغتنمة ستار الدخان الذي يغلف الجبل لتحط. ينزل منها عناصر وحدات المظليين، يسرعون ليأخذوا مواقعهم على المرتفعات في انتظار أن يتلاحقوا ليتم الهجوم.

ممسمرة في الميدان، انسلت عناصر الكتيبة الى مخابئها، غير قادرة على الرد أو المناورة دون التعرض لخطر الهجومات الجوية. من جهة الجسر ، سكت هيجان المدفعية. يعلن خباب للأمير بأن ذخيرته قد نفذت و أنه مضطر لقطع المكالمة. في الأسفل، القافلة العسكرية تتقدم بدون رحمة و لا شفقة.

" سنقاتل في الميدان و إلا سننتهي مثل الجرذان. قالها عبد الجليل."

تتمركز مجموعة في المكان هذا كي تبقي المطلبين في أماكنهم محاولة مناوشتهم بين الحين و الاخر. بقية الكتيبة تنسحب داخل الغابة كي تفلت من المروحيات حوالي منتصف النهار ستبلغ قمة دكناء معتمة على بعد حوالي عشرة كلمترات من المهبط. تخبر المجموعة التي تتولى التغطية بان الحوامات تنقل قوات الاحتياط، و ان القافلة تمركز مجموعاتها على الضفة الشمالية للجبل لمباشرة عمليات التمشيط. من نقطته للمراقبة ، هناك من على علو صخرة، راى نافا قوافل أخرى قادمة من الشرق و من الغرب كي تحكم قبضتها على الجبل من كل الجهات.

- كي نتخلص من هذا الأمر نُحتاج إلى معجزة. قالها نافا متذمرا.

في ظرف ساعات، احكم الجيش قبضته. مئات الجنود اكتسحوا الأدغال، فجروا المخابئ، أحرقوا المؤن التي كانت موجودة بها واستولوا على منابع الماء. حاولت الكتيبة اختراق صفوف العدو. إلا أنه تم دحرها و ارجاعها. حاولت مرة اخرى و في مكان أبعد من الأول فلقيت نفس المقاومة. بلغت خسائرها قبل سقوط الليل خمسة وعشرين قتيلا و كثيرا من الجرحى. لقد اضحت المواصلة مستحيلة. أمر عبد الجليل من سرياته أن تفك الاشتباك و أن تنسحب نحو الفوهة. تمكنت الكتيبة من التسلل وسط الوهاد، ساترة جرحاها ونساءها في المغاور وصعدت على الأعلى لمناوشة العدو لتلهيته و ابعاده عن الفوهة. إزدادت الاشتباكات ضراوة. شيئا فشيئا تغير محور المعركة، مما أثار ارتياحا لدى المحاربين. تتقدم قوات الطاغوت على محاور متعددة، تحكم سيطرتها على الأماكن المشبوهة، تقصفها بالمدافع قبل أن تمشطها تمشيطا دقيقا. كنا نلتقط مكالماتهم مع بعضهم البعض عبر

اللاسلكي و هم يتحدثون عن الحصيلة التي حققوها في الهجوم و عن عدد جثث المتطرفين التي تم العثور عليها. وبفضل هذه المعلومات ، تمكنت الكتيبة من اكتشاف هامش مهم للمناورة و لربح الوقت:

- علينا ان نقاوم مهما كان الثمن حتى سقوط الليل، شرح عبد الجليل، بعد ذلك نقترب من خطوط العدو للبحث عن خلل او كسر ما.

- كيف ذلك، قالها نافا محطم المعنويات.

- شيء بسيط، نتقدم و نطلق النار اذا ما وجدنا ردا ننسحب ونعيد العملية نفسها في مكان ابعد حتى اللحظة التي لا نجد فيها أية مقاومة، و تلك علامة أن الطريق سالك.

لقد أتت حيلة الأمير أكلها. قبل طلوع النهار تمكنت الكتيبة من معاينة منفذ فاندفعت دون تأخير. أسرعت في اتجاه واد مشجر اين التجأت حتى نهاية عمليات التمشيط التي دامت خمسة ايام. لقد صبرت و تحملت رغم الجوع و العطش. ولانها لم تكن قادرة على التحرك تحت سماء تغلي بالمروحيات، كانت الكتيبة تتجمع عند أقدام الأشجار، دون حركة، كانت تأكل من النباتات الصالحة للأكل والفواكه الوحشية. وحين رفع العسكر حالة الطوارئ، أدرك عبد الجليل انه لم يعد باستطاعته العودة إلى سيدي عياش. فقد اقام العسكر مركزين للكوندوس و أصبحت الطريق معززة بالحواجز.

كلف نافا بإرجاع النساء و الجرحى الذين و لغياب العلاج والموونة فقد توفي ثلثهم، إلى الفوهة. ليبدأوا بعد ذلك مرحلة الترحال و التشرد. كانت المنطقة مزروعة بالكمائن ، الدوريات تجوب المرتفعات باستمرار. من وقت لاخر المروحيات تستطلع الغابات، تدك الأماكن المشبوهة ثم

تنسحب رامية ققف المناشير التي تدعو المتطرفين الاسلاميين الى وضع أسلحتهم و الاستسلام. تلك الايام كانت السماء تبدو متلألئة بقطع الأوراق التمتطايرة و الشبيهة بالاف الفراشات الضخمة قبل أن ترتطم بالغابات. لكن تبا لمن تخول له نفسه التقاط ورقة واحدة. عطشى، منهكة، مطاردة من كل جهة ودون أكل منذ أيام و أيام، أمام هذا الوضع، طلبت الكتيبة الانضمام إلى القيادة العامة القطاعية. رفض شرحبيل الفكرة قطعيا. وفي الوقت نفسه حذر عبد الجليل من مغبة إخلاء الجبل للطاغوت، كما أمره بالبحث عن وسيلة لكي لا ينقطع الاتصال بالقبائل المتحالفة و التي سيتم تصفيتها من قبل الدشور الرافضة التحالف معنا، في أول فرصة.

أخيرا قرر عبد الجليل اللجوء إلى أحد المعسكرات القديمة الذي أخلاه " الجيش الإسلامي للإنقاذ"، و المتواجد في منتصف الطريق ما بين سيدي عياش و قرية اخرى والتي هي مسقط رأس شرحبيل. كان الموقع ما بين نبعي ماء، مشجرا و عاليا، لكن حجم الاستيعاب كان ناقصا. لقد تم حفر كازمات (مخابئ) إضافية و زرع الأنحاء بالألغام تحسبا لأي هجوم متوقع، كانت الدشور المجاورة معادية للجماعات الإسلامية المسلحة ، متحالفة مع الطاغوت. تجتاز الكتيبة مرحلة صعبة و حادة. ظروف معيشتها كارثية. الأفرشة و الألبسة و أدوات المطبخ و الأدوية و المؤونات كل ذلك تم تركه في سيدي عياش. أمام ذلك كان لا بد من البداية من الصفر و الاعتماد على الامكانيات البسيطة المتوفرة. لقد انتهت حياة القصور و الدور المبنية بالحجر و النيران في المدافئ و الذخائر المخزنة. إن الكازمات (المخابئ) والمغارات التي يتكون منها المعسكر الجديد تثير إحساسا مرا بالسأم و بالتنازل. مفتوحة عى الرياح الأربعة، غير

مريحة و حزينة و مخيفة، هنا فيها كانت الكتيبة تنام حيث الليث يصقع الدم. كنا ننام مقرفصين على الأرض، في ركن دون غطاء، الأيادي مدسوسة مابين الأفخاذ و الركب لاصقة بالذقون. في الصباح، كانت عناصر الكتيبة المتيبسة بالجليد يرفعون صراخات قاسية. امام تدهور الحالة النفسية للرجال، قرر عبد الجليل ان ياخذ بزمام الامور. لم يكن طلب مساعدات من سكان القرى المجاورة امرا دون خطورة. مجرد معلومة، افشاء سر لتعود قوات الأمن للهجوم ثانية. مقزمة و متروكة هكذا لأمرها، ليس بامكان الكتيبة أن تقاوم تمشيطا ثانيا. كان نافا و سريته مجبرين على القيام بعمليات في اماكن متفرقة حتى لا تنهار فكرة أن المنطقة لا تزال منطقة حياة بالنسبة للوحدة. على رأس أمهر محاربيه، كان ينتقل الى التلال والغابات الصغيرة، لأيام و ليال، لحجز وتحويل شاحنة في طريق فرعي مهمل، لسرقة قطع الأغنام من المراعي المعزولة، تجريد التجار المتنقلين من سلعهم والعودة الى المعسكر مع الاصرار على عدم ترك أي اثر لهم. وقد هاجموا أيضا مركزا للمعوقين ومسجدا للاستيلاء على وثائق المقتصد و كتب دينية و زرابي.

بمرور الزمن، بدأت الأشياء تتعقد اكثر فاكثر. التحرشات العسكرية تتواصل و المجموعات المسلحة لا تتوقف عن التراجع، تاركة الميدان للطاغوت. الثكنات العسكرية تقام حتى في الغابات وأخرى في القرى. بالموازات مع ذلك بدا المواطنون يشعرون بنوع من الاطمئنان. بدأ تشكل المجموعات الأولى للدفاع الذاتي في بعض الاماكن...

ذات مساء تم استدعاء نافاوليد من قبل امير الكتيبة. داخل المغارة المغطاة بالستائر الشفافة، بدا عبد الجليل بملامح بئيسة. بجانبه كانت تقف زوجته زبيدة، امرأة من حديد

دموي في لباس مبرقش، الرجلان في حذاء رياضي والمسدس مرشوق في الحزام. كانت جميلة و طويلة. نظرها المغناطيسي كان يشوش نافا باستمرار و الذي لم يكن بإمكانه تحمله أكثر من ثانيتين. خلفها ، كان عثمان جالسا مقرفصا على بساط ، إنه إمام مدينة بليدة السابق. كان يبدو قلقا. مقابله واقفا على ساقين قصيرين ، احد الاشخاص، اسمه رامول، كان يعصر اصابعه.

كان رامول هذا احد الموالين الأثرياء في المنطقة. توجد ضيعته عند مخرج دوار اولاد مختار، في الجهة الاخرى من الغابة. كان في الستين من العمر ، ينعم بصحة جيدة خلف لباس رث و رائحة كريهة. كان يبدو غير مرتاح، عيناه كانتا تزوغان بسرعة من تحت شاشه الوسخ. صافح نافا مطاطنا كخادم.

" هل بينكما سابق معرفة؟ قال الأمير ."

" نتقاطع، بين الحين و الاخر."

" حسنا، إن سي رامول يؤكد لنا الاشاعات القائلة بأن قسما من المواطنين يتجندون ضدنا. ما كنا نظنه إشاعات مغرضة يذيعها الطاغوت اتضح أنها صحيحة و واقعية. ويبدو إنها في اتجاه أن تتعمم. قرى تستعد لاستقبال واحتضان مفرزات عسكرية بهدف تأسيس مجموعتهم الخاصة للمقاومة. هكذا، فدواوير مطمر و شعيب و بوجارة و قبائل أولاد مختار و قبائل رياح و مصابيح هم بصدد تحريض أقزامهم ضدنا. يبدو من خلال قول سي رامول ان مقر رجال الدرك يستقبل يوميا ملفات طلب حمل السلاح.

" هذا صحيح. قال راموال هازا راسه."

نقر عبد الجليل على المائدة الواطئة ليذكره باحترام النظام. تقطبت عيناه حين أردف قائلا:

" حمدا لله، ان الورم لم ينتن بعد أرضنا. غير أن العدوى بدأت تظهر هنا و هناك، إن امير المنطقة لا يريد ان ان تتوسع هذه الجراح في مقاطعته. لقد امر بعلاج صادم ونهائي.

أضاف رامول و هو يستنشق شمة (الساعوط) الأنف. يجب ان لا تتعمم هذه الظاهرة. انا تاجر مواش و أسافر كثيرا. ما رأيته شيء لا يصدق. أتعلمون ان في بلاد القبائل ولكثرة عدد الميليشيات لم يعد المواطنون في حاجة الى حماية من الجيش؟ أأكد لكم بأن هذا صحيح. رايته بأم عيني. كنت كذلك في منطقة الظهرة، لبيع بعض مئات رووس الاغنام، و هناك ايضا شاهدت، كما اشاهدكم الان، مقاومي الدفاع الذاتي ينصبون حواجز على الطرقات. اعتقدت أن الحاجز هو من عمل جماعتنا، و كان هناك مجموعة من رجال الدرك يقدمون يد المساعدة في ذلك. هذه حقيقة، أأكد لكم ذلك. لو أنني لم أشاهدها بأم عيني ، كما أشاهدكم الآن، ما كنت لأصدق ذلك. و في ضواحي تيارت، إن الامر هناك خطير. قوات الدفاع الذاتي تقوم بدوريات وتنصب حتى الكمائن ايضا. إن مجموعاتنا ما عادت قادرة على التحرك كما من قبل. مرات، لا يجدون ما يسدون به رمقهم..."

ضرب عبد الجليل على المائدة:

" لو كنت في مكانك يا سي رامول لوزنت كلماتي."

" لماذا؟"

" انك بهذا تقوم بالدعاية المضادة و المغرضة."

" انا؟."

" اغلق فمك."

تراجع رامول خطوتين الى الوراء تحت صراخ الأمير.

" أدر سبع مرات قذارة هذا اللسان في فمك النتن، قبل ان تتلفظ بغباواتك الوسخة هذه.

شعر تاجر المواشي بوهن في ساقيه. تلون وجهه بمسحة رمادية. لم يستطع البقاء واقفا فجلس مرتعدا. أخذت جوزة عنقه (تفاحة ادم) تصعد وتهبط كمكبس معطل.

" من يسمعك، يعتقد أن الكرة غيرت المعسكر. اننا لانزال اسياد الموقف. كل هذه المهزلة ما هي الا حركة عقيمة. فعلا، توجد هناك كمشة من الانذال الذين سقطوا في شباك الطاغوت، الا أن هذا لا يعني نهاية العالم. كم عددهم في اولاد مختار، أقصد أولائك الذين دخلوا في لعبة الكفار.

" ستة، تمتم رامول، ساحبا ورقة مكمشة من جيبه."

" وتسمي هذا مليشيات؟!"

" لا ياسيدي، حاولت أن أهول حتى نأخذ الأمر عل محمل الجد."

" ليست مشكلتك."

" تماما، يا سيدي."

هل هددوك أو أزعجت في مزرعتك؟"

" لا يا سيدي."

" اذن انسحق."

داكنا و محموما، مسح راموول زاويتي فمه بابهامه، و قد بدا صغيرا منسحقا.

مد عبد الجليل القائمة الى نافا:

" يدلك سي راموول أين يسكن هؤلاء الكلاب. أريد ان تعلق روؤسهم في مدخل البلدية."

اوقف نافا أربعة من المرتدين الستة، فاجاهم على الساعة الثالثة صباحا في بيوتهم. شيخ، مجاهد قديم، ابنه، حفيده البالغ من العمر تسعة عشر سنة و فلاح. أوثقهم بسلك

وسحبهم الى الساحة أين تجمع المواطنون تحت حراسة حوالي ثلاثين متطرفا إسلاميا. أعلن فيهم أن كل شخص يتلاعب بطلب الاسلحة كي يواجه الثورة الإسلامية والله سيلقى العقاب نفسه. قرأ الإمام عثمان سورة تبين كيف يجب ان يعامل الكفار.شرح للحشد بان عليهم جميع ان يحذروا من الحكام الذين يحاولون إقحامهم في دسائس شيطانية، ثم وعدهم بأن النصر قريب، و انسحب ليترك للجلادين مباشرة عملهم في قطع رؤوس الكفار الاربع.

بعيدا عن الاستسلام، أو التخويف، دفن اولاد مختار" شهداءهم" مقسمين على القبر، بانه، من الان فصاعدا، لن يفلت ارهابي من قبضتهم و لن يخرج سالما من قريتهم. في انتظار الحصول على الأسلحة التي طلبوها من السلطات، فقد كانوا مضطرين الى حدادة السيوف و صناعة المقاليع وتحضير زجاجات المولوتوف و تنظيم الدفاع عن كرامتهم و سلامتهم.عاد نافا من جديد لقمعهم و محاولة اخضاعهم. متاكدا أنه سيرعبهم لمجرد إصدار صوت مضمضة. إلا انه رد على اعقابه بالحجارة و سيل من القنينات الحارقة.

في الأسابيع التي تلت، استقرت ثلاث مفرزات من الحرس البلدي حول المعسكر، مجبرة الكتيبة على الرحيل في اتجاه غابة أخرى داخل البلاد.

انتشرت اشاعة إجراء انتخابات جديدة، فزرعت الشك والدهشة: مشروع انتخاب رئيس للجمهورية. ولان المجموعات المتطرفة كانت مقطوعة الاتصال ببقية العالم- لقد كانت الصحافة والراديو ممنوعة، الأشياء الوحيدة التي كانت توزع عليهم للإعلام هي بيانات المجلس الوطني، فإن معلومات مثل هذه كانت تنزل كالهراوات على معنوياتهم .سجلت ، في بعض الأماكن، بعض حالات من العصيان

و التي كانت تقمع بشكل منظم و دموي. ان الطغيان الاعمى للامراء، و الذين هددوا في استقراهم من جراء الوتيرة التي بدات تسير عليها الأحداث. إضافة إلى حالة التشرد المرهقة لرجالهم الذين رحلوا و طردوا من " قلاعهم" و حكم عليم بالتالي ان يهيموا في الأرض دون توقف هروبا من الغارات الجوية و من عمليات التمشيط، و مازاد الامر استفحالا هو التراجع الملحوظ في القرى المتحالفة حيث تفككت شبكات الدعم، و الذي أغرق حرب العصابات في ليل حالك. عاد شبح الفتنة و الريبة يسكن و يوسوس في دواخل المتطرفين و يضعف صفوفهم . يوميا، كان يلاحظ تصاعد عدد الغيابات، و كان البعض يعدم لمجرد شك، و اخرون كانوا يفضلون الاستسلام باسلحتهم و عفشهم عوض العيش تحت رحمة سيف " دمقليس" المشهور على الرقبة. كل ردة كانت ترمي بالكتائب على طرق أخرى. كان " التائبون" يتعاونون مع الطاغوت، يدلونه على المعسكرات ويشاركون معه كمرشدين في العمليات العسكرية. أمر شرحبيل بالغاء كل تسريح أو اجازة و اعتبر كل محارب يفاجأ خارج معسكره متمردا و عاص و هو بالتالي "منفذ" فيه حكم الإعدام و في الحال.

همس ابو تراب في أذن نافا:

" عليك أن تراقب عمرو و هارون. انهما يبدوان غريبين في تصرفاتهما هذه الأيام. إنهما ينزويان في عزلة بادية، و لا يفترقان قدر خطوة."

" ثم ماذا من بعد؟ "

" انهما على هذا الحال منذ أن ألقت الطائرة المروحية بمناشيرها علينا. حسب رأيي المتواضع، من الأفضل ان تلقي بنظرة في عفشهم."

بدون انتظار، ذهب نافا فوجد المحاربين المشكوك في تصرفاتهما، فتشهما ليسقط على منشور الطاغوت مخبئا في حقيبتهما.

" ما هذا؟"

دون انتظار تفسير، أخرج مسدسه و قتلهما برصاصة في الرأس، وسط السرية و هم يتناولون الغذاء. لقد أتى هذا التحذير أكله. لقد بدد الرعب عن كثير من النوايا السيئة. لقي الكثير منهم حتفه على المسالك الوعرة، سحقت الكثيرين منهم المدافع و الطائرات المطاردة، و لكن، لا أحد منهم و في اي لحظة، فكر في مخالفة أو خيانة العصابة. لتوفير مثل هذه الأفكار الانتحارية، لا بد و أن يحصل ذلك بين اثنين على الأقل. كي تتوفر الشجاعة و تحضر خطة للهروب. مع أن المحارب لم يكن مثلما هو الان معزولا . مجرد نظرة، مجرد إشارة باليد قد تكون السبب في جلب الصاعقة حول الواحد. و بالتالي يضطر للانغلاق على نفسه في صمته فلا يتفوه بشيء. فتصبح طاعته هي منقذه و منفذه الوحيد. يحاول ألا يكون نشطا كثيرا و لا حياديا كثيرا. طيعا و كفى. مثل آلة أوتوماتيكية. يجيب حين يصفر له. يتكلم حين يطلب منه الكلام.

خلال اجتماع للقيادة القطاعية، حاول شرحبيل ان يكون متفائلا. إذ وعد أن الانتخابات الرئاسية ستكون مهزلة وفاشلة، و أن الشعب سيقاطع الاقتراع ، لأنه، و حسب خبراء المجلس الوطني، أي الشعب يطالب بقطيعة مع النظام المتشرذم و الذي يحكم البلاد. لكل ذلك فالأوامر لا تستبعد استعمال كل الامكانيات المتوفرة لمنع ذلك. لقد كان شرحبيل مخطئا. إن قنبلة خباب التي وضعت في مكتب للانتخابات خلفت اثني عشر ضحية و حوالي ستين

جريحا، لكن الانتخاب تم. ثم إن المواطنين شاركوا بأعداد غفيرة في كرنفالات الطاغوت. لقد كان اليوم الأكثر كارثية بعد يوم الفداء. التهجير العقابي ضد سكان الأرياف، التقتيل الجماعي على الطرقات، العمليات التفجيرية بالقنابل في الأسواق، كل وديان الدم و الدموع لم ترو عطش الانتقام لدى شرحبيل.

18

قال عبد الجليل:

" لا أستطيع الإنتظار أكثر. يجب أن أذهب لمقابلة شرحبيل والاستفسار. إن الزيادة التي وعدني بها طال أمد انتظارها. يستحيل العمل في ظروف مثل هذه. إن شهر رمضان على الأبواب و ليس بخمسين محارب يمكنني أن أمنع هؤلاء الأنذال من قضاء صيامهم في سلام."

عدل من من لباسه الأفغاني، حمل بدقيته الرشاشة ثم مسك نافا بقوة من كتفه:

" أعهد إليك بالكتيبة. لا تتخذ شيئا في غيابي. رجالنا متعبون. سأعود في أقل من ثمانية أيام."

" أتحتاج إلى مرافقين للحماية؟"

" لا داعي لذلك. سآخذ معي حنضلة و دجانة. إنهما يعادلان سرية. زوجتي ترافقني."

" ليحفظكم الله."

بشكل آلي ، تفقد عبد الجليل ذخيرة بندقيته، ثم خرج من المخبئ. كان حنضلة و دجانة يسبقانه على الطريق، بغلة

محملة بالهدايا لشرحبيل. كانت زبيدة في لباسها العسكري منورة كملكة أمازونية. طارد نظرها نظر نافا دون أن تصيبه.
" حسنا، إلى اللقاء: قالها عبد الجليل و أضاف: لا داعي لإتعاب الرجال. لا داعي للحيرة و القلق قبل عودتي. أتمنى أن أعود بدفعة إضافية من الرجال. و إلا، لا أرى كيف يمكننا أن نكرم و نعد بإلتزاماتنا خلال شهر رمضان."
" سمعا يا أمير."
" شيء آخر: حاول أن تحرس على الحبة، فأي هروب ممكن الاحتمال و بسرعة."
لحق بزوجته ثم أمر مصاحبيه أن يسبقاهما.
مالت الشمس نحو الغروب؛ ظل الأشجار المبسوط يستعد لاستقبال الليل. في الغابة، يسمع صوت وقواق يسخر من شحرور. تابع نافا قائده بنظره و هو يبتعد. التفتت زبيدة، عيناها الساحرتان تقولان له : الوداع. ابتسم. انها المرة الأولى التي يبتسم فيها لزوجة أمير، ثم تساءل فيما اذا لم يكن ذلك إشارة إلى فأل سيء.
بعد يومين، أخبره عامل الراديو- اللاسلكي بأن عبد الجليل أصيب بجروح. معززا بحراس، و ممرض انطلق نافا لإغاثة رئيسه. وجده ممددا على غطاء، داخل كوخ مهجور، على بطنه جرح بليغ.
حكت زبيدة:
" لقد شاهدنا منزلا منعزلان فقررنا قضاء الليل هناك. في اللحظة التي دفعنا فيها الباب أطلقت امرأة علينا النار. تلقى عبد الجليل طلقة الصيد عن قرب."
تفحص الممرض الجريح، كان متشائما. نظف الجرح، ضمده ثم نصح نافا بنقل الأمير على عجل الى المعسكر. كان عبد الجليل يقاوم الموت بحرارة الخيبة. ممددا بالحرف

على ظهر البغلة، كان عبد الجليل يرتعد من الحمى و يهذي. كان النزيف حادا.

تم نقله إلى مخبئه و تولى الممرض السهر عليه

أخبره العامل على جهاز الراديو- اللاسلكي بأن شرحبيل محاصر و أنه ليس باستطاعته ارسال طبيب.

قال عبد الجليل:

" لا داعي لذلك ."

وقبل أن يلفظ أنفاسه بقليل، قال:

" مهزلة ! أيقتل عبد الجليل على يد امرأة. حتى في الجنة، سأكون هناك ممهورا."

دفن عند قدم زيتونة وحيدة، في اعلى أكمة. بكاه الإمام عثمان بدموع حارة، ثم وعد بتشييد تذكار في المكان الذي ينام فيه الشهيد، أين سيجيء للخشوع و تذكره تلاميذ الدولة الإسلامية المستقبلية.

حزن شرحبيل لفقدان ابن عمه و رثاه، و حث الكتيبة أن تكون في مستوى هذه التضحية. في انتظار تعيين أمير جديد، كلف نافا بإدارة مقاليد الإمارة بالنيابة.

" لماذا بالوكالة؟ قيادة الكتيبة تعود إليك قانونا." قالتها زبيدة.

عامل الراديو-اللاسلكي الذي جاء محملا بالتعليمات، اخفض رأسه.

ترجت زبيدة من العامل أن ينسحب ليتركها وحدها مع نافا.

" أتريد أن يجيء أحدهم ، ليستولي على القيادة، وليرميك ربما إلى رتبة مقاتل بسيط.؟"

" ماذا تريدني أن أقوم به، فشرحبيل هو الذي يقرر."

" لنذكره، و لنقول له بأنه لا داعي للبحث عن قائد مادام أن القائد موجود بعين المكان."

" سيتهمنا بالتمرد."

" لاتتركهم يمشون على أقدامك ، سينتهون بسحقك."

" لا تصري، لا أريد أن أسقط في مصيدتهم."

اقتربت زبيدة منه، مرتجفة أكثر من أية مرة. وضعت يدها على كتفه، تسللت أصابعها، الواحد تلو الاخر نحو عنقه، داعبت لحيته.

استدار نافا.

همست له زبيدة:

" لا تخف عني زرقة عينيك، فأنت كمن يحضر عني زرقة السماء التي أفضلها."

قال نافا مرتبكا:

" أرجوك، فعبد الجليل لم يمر على موته إلا أقل من أسبوع."

" الأموات ليس لديهم مفهوم للوقت."

شعر نافا بتنهد حار في بطنه. شيء ما يرعشه. في لحظة ما كان يرغب في تناول اليد و حملها إلى شفتيه ليقبلها. استفاق ، دفع الأرملة ثم انسحب.

مستلق على فراشه، العينان مائلتان نحو ضوء المصباح البترولي، لم يستطع نافا التخلص من الحرائق التي تركتها يد زبيدة على عنقه. إذا كانت السبيات من النساء قد دلكن له ساقيه، فإن يد الأرملة هي وحدها التي تسكنه. كانت أجسادهن ترتجف، لكن النفس الحارق لم يندلع في جوفه إلا ساعات قبل الآن. في محاولة لإطفاء نار زبيدة ركز اهتمامه على سبية ، مراهقة خطفت ذات غزوة عقابية و قد فض بكارتها هو بنفسه. كانت جميلة بنهدين نافرتين، رجفين

مملونين، و مع أنه كان يملكها كل ليلة، فلا هي و لا الأخريات من السبيات تمكنتا من إضرام نار الرغبة كما هي النار التي خلفتها في داخله هذه الاصابع السحرية فوق كتفه،فوق عنقه وفوق لحيته. لقد سحرته زبيدة منذ زمان. كان يحلم بها، منذ أن رآها ذات صباح في سيدي عياش.

انزاح ستار المخبأ، و بنشوة و سحر دخلت. عدل نافا من جلسته بسرعة حتى أن رأسه ارتطم بعارضة. نظرت زبيدة إلى المرأة السبية نظرة قاسية. اليدان مرشوقتان على الخصر ، طردتها. انتظرت المراهقة من سيدها أن يرخص لها بالانسحاب.

"- اغربي ، قال لها."

قامت و انسحبت في الليل.

صلبت زبيدة ذراعيها على صدرها. عيناها القاسيتان كانتا تمسحان الكوخ، توقفتا قليلا عند المصباح البترولي، ثم ، واسعتان أغرقتا عيني الأمير.

" منذ زمان و أنت تترصد خيالي في السر، و ها أنت الان تتهرب مني إذ انني حرة طليقة."

" أنا لا أهرب منك."

" إذن ، رتل الفاتحة."

" لماذا؟"

" أريد أن أكون زوجتك الشرعية."

" ألا تعتقدين بأن ذلك مبكر قليلا."

" نحن في حرب و لاأحد يتوقع ما الذي سيقع غدا... أو الا اذا لم تعد ترغب في."

" أنا؟"

" في هذه الحالة، ماذا تنتظر لترتيل الفاتحة؟" قالت ذلك و هي تفك حزامها بحركة مثيرة و مشهية.

جمع نافا يديه، راحتا الكف في اتجاه السماء، ثم قرأ الفاتحة. كان يرتعش كطفل.

حركت زبيدة سالفها الطويل الذي انسدل خلف ظهرها ثم بدأت في فك أزرار سترتها. كان نهداها الفائران قد يبسا حلق الرجل.

" قل لي بأنني أعجبك، يا زوجي."

" إنك تعجبينني. ".

" قل لي بأنك تريدني."

" أريدك."

" إطفئ الضوء."

" أريد أن أتأملك قبل . جلست، شمرت جبتها، لمست بطرف شفتيها الساقين المزغبين ثم صعدت درجة درجة، الفخذين العضليتين المرتجفتين.

وشوشت له:

" لقد أعجبتني منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى سيدي عياش. عيناك الزرقاوتان سحرتاني. ما عشت إلا لكي أسبح فيهما ، ذات ليلة، حيث ضياء القمر بريق ابتسامتك."

أطفأ نافا المصباح.

كانت أجمل ليلة في حياته.

قالت له و هي تتقب شفتيه:

" لقد فكرت طويلا. إذا ما كان و لابد بأمير للكتيبة، ستكون أنت. لا يمكن التنازل أو التراجع عن ذلك. سنصر على ذلك. يكفي أنك ترغب في ذلك يا عزيزي. أتريد ان تكون أميرا؟!"

" أريد ذلك."

" حسنا. لم يبق لنا إلا أمر واحد يجب القيام به و الذي ليس باستطاعتهم الاعتراض عليه أو عدم احترامه. شيء مدوي، و الذي سيعصف بهم كالإعصار. لا تقاطعني. اذا كنت تريد أن ترفع من مقامك و تسير إلى الأمام، فاستمع الي."

" اني أسمعك."

" يقال إن أبا طلحة يحب المذابح الجماعية، و أن سعادته تقاس بعدد الضحايا. إذن ، سيجد سعادته... شتت.. ان لي فكرة في هذا الأمر. كنت أحسب أنني أتحدث مع عبد الجليل. اليوم أعرضها عليك. أتعرف قرية قاسم؟"

" تلك القرية التابعة للجيش الإسلامي للإنقاذ؟"

" تماما، لقد رفض سكانه الأسلحة التي اقترحها عليهم الطاغوت. يظنون أن البغاة قادرون على حمايتهم. ما يجهلونه، هو أننا سنلتهمهم في لقمة واحدة."

" توجد ثكنة على بعد أقل من خمسة عشر كلمترا."

" لن يتدخل العسكر. إنهم يدركون ان القرية إسلامية متطرفة، و هم يحذرون من سكانها منذ حادثة الكمينين اللذين نصبا لهم. وحتى في حالة إخطار العسكر في الوقت المناسب، فإنهم سيشكون في ذلك و يعتقدون أن تلك خدعة وفخ منصوب، لذلك لن يتحركوا قبل طلوع النهار."

" واصلي، إنك تفيدينني."

" إن لي مخططا لا مثيل له. إننا سنقضي على هذه الدودة. وعندما سيعلم أبو طلحة أن قرية قاسم قد تم حذفها من على الخريطة، سيحاول أن يعرف من هو ذاك الساحر أصل تلك اللعبة الخفيفة. وهنا، ياعزيزي، لن أفاجأ إذا ما رأيتك على رأس الناحية كاملة."

" هل تعتقدين في ذلك حقا."

" إنني على يقين."

قبلته بلطف و حنان في فمه:

" سأجعل منك زعيما. شخصية مثالية للجهاد، و يوم النصر ، سأكون إلى جانبك لنفتح و نغزو فضاءات أخرى. في الحياة، يا أميري يجب التحلي بالجرأة. العالم ينتمي الى أولائك الذين يذهبون للبحث عنه."

مال نافا على مرفق، وضع حنكه في راحة كفه، بالطريقة التي تجعله يهيمن بنظره على وجه زوجته الرائع:

" حدثيني الآن عن مخططك، يا عزيزتي الساحرة. لا أدري لماذا و لكن شيئا ما يقول لي إن قرية قاسم سنفتقدها كثيرا."

بعد صلاة الفجر، طلب نافا من أبي تراب ان يجمع الرجال لأجل مهمة أساسية.

" كم سنبقي من الرجال لحماية المعسكر؟."

" لا أحد."

" في الحالة هذه ما نفعل بالسبايا؟"

" اذبحهن."

ما كان على قاسم أن يرمي بخلفته فوق هذه الهضبة العارية القرحاء المعلقة في آخر الغابات. منسية من قبل الالهة و الناس، ستدفع ثمن هذا العلو غاليا. كان دوارا بائسا، انه عبارة عن خيام فقيرة مرمية بفوضى وسط الحقول، دون ممرات، ومن غير حتى مسجد، فقط بلبلة أحواش تمد الواحدة ظهرها للأخرى، و التي لا تختلف كثيرا عن زريبات المواشي. أطفال بأسمال بالية يلعبون في البساتين على الرغم من المطر و عصف البرد. صرخاتهم تختلط

بوعوعة الجراء. على الطريق الترابي الوحيد الوحل المؤدي إلى الدوار، مجموعة من الرجال يحاولون تصليح جرار. هنا و هناك، النساء منشغلات بأمورهن المنزلية رؤوسهن مغطاة بخرق. بعض المداخن يتصاعد منها الدخان، بعض النوافذ تصطفق، و رغم كل ذلك لم ير نافا أي سبب للتراجع عن مشاريعه.

في السماء المتورمة بغيوم نحاسية، شمس المساء كانت ترفض أن تظهر. كما و أن الذي يحضر لا يعنيها في شيء. برق أسكت الرعد. ثم هطل المطر عنيفا على المكان، دون أن يستفيق لحاله...

صرخت زبيدة :

" لا ترحموا لا أنذالهم و لا دوابهم."

مفرقة على أربع مجموعة، طوقت الكتيبة القرية. لم يكن للفلاحين الذين تجمعوا حول الجرار الوقت الكافي لاستدراك ما هم فيه. ضربات الفأس الأولى حطمت جماجمهم. أوقف الأطفال ضوضاءهم. فجأة أدركوا بأسهم فهربوا نحو الخيام. لقد انطلقت العملية. لا شيء بمقدوره أن يوقف عجلة القدر. شبيهون بأغوال الليل، كان الهمج الوحوش ينقضون على فراسهم: السيف يضرب، الفأس تسحق، السكين يقطع. عويل النساء و الصغار يغطي عويل الريح. الدموع تنضح أعلى من الدم. أبواب الأكواخ البئيسة تنهار تحت الرفس. المجرمون الذباحون ينكلون دون رحمة أو شفقة. تقطع سيوفهم سباق الصغار الواله. بعد قليل ستراكم الجثث في ساحات الأحواش، بعد قليل سيحمر الدم برك ماء المطر. ها هو نافا يضرب، يضرب، يضرب؛ إنه لا يسمع سوى غضبه و كلبه يخفق في صدغيه، و لا يرى غير ذعر الوجوه

المعذبة. مأخوذا في عنف تيار الصرخات و الغضب، فقد فقد الصواب تماما.

حين استعدت حالي، كان الأمر قد قضي. لم تحدث المعجزة. ما استطاع ملاك أن يرد يدي، و ما كان لأي برق أن يقاطعني. كنت هناك، فجأة ملكتني صحوة، رضيع مخضب بالدم بين يدي. كان الدم قد وصل حتى إلى عيني. وسط هذه الغرفة المشوشة العائمة في فوضاها الكابوسية المغطاة بجثث الأطفال، ما عادت الأم تتوسل. كانت تقبض بيديها على رأسها ، غير مصدقة، منذهلة متحجرة في ألمها.

في الخارج، جثث مسجاة بين هياكل الدواب المبقورة، في كل مكان، على مد البصر. ألسنة النار تلتهم الأكواخ، لتنير لنا الميدان حتى تتسنى لنا الرؤية الجيدة. رائحة الجثث المحروقة أضافت إلى الكارثة مسحة القيامة. إن المشهد مأساوي دانتي، لكنه كان مكتوبا.

جالسا على صخرة، كان الإمام عثمان يبكي.

" إذا كان لا شيء يستحق الاعتبار في عينيك، قل لنفسك إنك لا تساوي شيئا ذي قيمة. قالها الشيخ عثمان متمتما في شبه صلاة."

" بماذا تهذي؟ "

أشار بيد مرتجفة مروعة إلى الدوار الذي يحترق.

" إن عملنا الرائع هذا فوق كل تعليق."

" إننا في حرب."

" إننا خسرناها يا أمير. تخسر الحرب عندما يغتال الأطفال."

" قف."

" لا أستطيع."

" قف، هذا أمر عسكري."

" لا أستطيع، قلت لك."

صوبت مسدسي نحوه و قتلته.

و اندفعنا في الغابات، سرنا ردحا من الليل ثم استرحنا قليلا في واد. و هناك، و أنا أسمع طقطقة شفراتنا مع نباتات الأدغال، تساءلت بم تحلم الذئاب و هي في عمق وكرها، حينما بين هريرين ممتلنين، يتحرك لسانها في الدم الساخن الطري لفريستها المعلقة في أفواهها التي تثير الغثيان، كما تتعلق في أذيال ألبستنا أشباح ضحايانا.

بعد غد، مصعوقين بما أثارته فيهم بربريتهم و همجيتهم التي صنعوها بأيديهم، ستة من رجالنا تخلوا عنا.

لم نعد نهائيا إلى معسكرنا.

هاجمتنا زمرة من الجيش الإسلامي للإنقاذ و نحن في فرجة غابة. دامت المواجهة ساعات، استطعنا أن ننسحب منها.

بعيدا، لاحقتنا مروحيتان على قمة جبل، مكثنا هناك حتى وصول الطاغوت. ضحيت بسرية كي أحافظ على الأخرى.

وصلنا إلى أعالي منطقة تواجدنا، شاهدنا دخانا كثيفا يتصاعد من المعسكر أين استقر جنود آخرون.

انعطفنا نحو دشرة لكي نتمون بالمؤونة و بالماء الشروب. استقبلنا عناصر الحرس البلدي بهيجان مطلق.

شبيهين ببنات آوى المطاردة، تهنا في الغابات، النهار و الليل، غير قادرين على العثور على ثغرة للانفلات من خلالها من خطة العدو.

كلمني شرحبيل عبر الراديو-اللاسلكي:

" منذ أيام و أنا أحاول الاتصال بك، أين أنت؟"

" لا أدري."

" ما سر هذه القوة العسكرية في قطاعك؟"

" إنها تلاحقني."

" ما الذي حدث؟"

" لقد هاجمت دوار قاسم."

" ماذا؟ هذا أنت ؟ ما الذي دهاك؟ من الذي أعطاك الأمر ، أيها الحمار؟ لقد تجرأت على اختراق سلطتي.أين تعتقد نفسك؟ قلت لك عليك انتظار وصول الأمير الجديد. إن غلطتك هي السبب في مقتله وهو في الطريق إليكم. ماذا كنت تريد أن تبرهن عليه من خلال هذا التصرف أيها الغبي؟ كنت تريد حرق المراحل، اليس كذلك؟

" أردت انتهاز فرصة."

" أيها المعتوه، ما هو حجم خسائرك؟"

" خسائر معتبرة."

" أريد أرقاما."

" واحد و عشرون ميتا، سبعة جرحى و ستة مفقودين."

" لا، هذا غير ممكن، لا يمكنك أن تنال مني بهذه الطريقة. ليس مني أنا. و ليس الآن. إنها ضربة قاضية. خيانة. لن أسامحك عليها أبدا. أريد أن أراك في مقر القيادة بسرعة، بسرعة، بسرعة...

اصفر وجه عامل الراديو-اللاسلكي.

إنه يرى شبحي.

قالت لي زبيدة بثبات:

" لا تتركهم يقتلونك."

" إنها غلطتك."

" لقد قررنا أن نتحمل مسؤولياتنا ، فلنضطلع بها. انه مخطط ناجح و جيد. لولا هؤلاء الأوغاد من قوات الطاغوت

لكنا غادرنا المنطقة في الوقت المناسب. ثم، اننا لم نتوقع رجالنا، هؤلاء الذين تخلوا عنا. إنهم هم الذين خدعونا. لقد خسرنا فصلا ، و لكننا لم نخسر المعركة كاملة."

أرعبتني برودتها.

أخذتني جانبا و استأمنتني قائلة:

" لقد راكم عبد الجليل ثروة عندما كان يقود السرية المتنقلة. إني أعرف أين خبأها. هناك مال كثير و مجوهرات كافية لأن تكون كتيبة خاصة بنا."

" سأذهب لرؤية شرحبيل و أشرح له الأمر."

" في كل الأحوال سيقتلك. أرجوك لا تضيع الشمال. إن غنيمة عبد الجليل لا تقدر. بهذه الأموال سيكون بامكاننا تشكيل سريتين أو ثلاثة."

" شرحبيل سيقضي علينا."

" إذن لنعد إلى بليدة أو الجزائر العاصمة. بمالنا ، نشتري مخابئ و نطلق مجموعاتنا الهجومية على الوزارات."

" لله اصمتي، و أتركيني أعيد ترتيب أفكاري ."

انعزلت الليل بطوله في كهف.

في الصباح، انفرط رجالي، دون شك، إذ علموا بتهديدات شرحبيل و التي نقلها إليهم عامل الراديو-اللاسلكي، فضلوا الالتحاق بمقر القيادة القطاعية بدوني. لم يكن هناك ما يتهمون به.

لم يبق سوى حنضلة، كان أخوه الأصغر مصابا بالربو وقد أصر على أن يعيده إلى البيت، علي و رفيق هما ابنا عمومة التحقا بنا منذ مدة قصيرة و لم يتمكنا من التأقلم، دوجانة ، قائد السرية والذي رأسه مهددة كما هو رأسي وزبيدة.

" هكذا، أعز أصدقائي، أبو تراب يتخلى عني."

قالت لي زبيدة:

" إنه لم يرحل، انه في مكان ما في الأنحاء، هناك خلف التلة."

كان أبو تراب مستندا إلى جذع شجرة يرمي بحصى في خصلة عشب. حركاته كانت تبين عن شخص قد أسلم نفسه على اللاشيء.

قرفصت قبالته.

رفض أن ينظر إلي و واصل رمي الحصى في اتجاه اخر.

" ظننت أنك ذهبت."

" إلى أين تريدني أن أذهب؟"

" لم نخسر بعد شيئا."

" ليس ذلك ما أعتقده."

" سنعود إلى الجزائر العاصمة. لقد كلمتني زبيدة عن كنز مخبأ. بمجرد أن نضع أيدينا عليه نعود إلى ذوينا. نشتري مخابئ ونكون جماعة خاصة بنا."

تفحصني بنظرة احتقار.

." هذا كل ما عندك في الرأس: مواصلة المعركة."

" لم تنته المعركة بعد."

" بالنسبة لي لقد انتهى كل شيء."

"أتفكر في تسليم نفسك؟."

" للطاغوت، للكلاب التي جعلت مني وحشا؟ أبدا لا. سأسعى للحصول على أوراق لأرحل من هذا البلد. إنه لم يعد بلدي."

" إنك لست جادا."

" ما كنت يوما ما و لو لمرة واحدة جادا، أما هذه المرة فنعم."

" الديك فكرة ما عن مقصدك؟"

" ساتصرف. أما الآن فلم أتخلص بعد من هذا الملجأ."

" سنواصل المعركة، يا أبا تراب. الدولة الاسلامية تتحقق غدا."

" وهم، أنظر حواليك، المعبد في انهيار و الناس ما عادوا يتوقون السماع عنا. لقد تجاوزنا الحدود. لقد كنا غير عادلين. لقد كنا وحوشا قذرة طليقة في الطبيعة، هذا هو ما أصبحناه. كنا نسحب خلفنا الاف الأشباح في شكل قذائف نارية، كنا نورم ونفسد كل شيء نلمسه. ما عدنا نساوي شيئا. ما عاد أحد يقبلنا. حتى في الجحيم، سيطالب المعذبون و الشياطين من الله تحويلنا إلى جهنم أخرى في أقاصي جحيمهم."

" لا تكفر."

" لقد تغيرت كثيرا، يا نافا. إن الطموح يعميك. كل ما يلمع هو ذهب في عينيك. تريد أن تكون مدللا، مكرما، مهابا مثلهم."

استقمت في جلستي و قلت له:

" امنعك من الحديث إلي بهذه الطريقة. كان علي أن أقطع رأسك."

" ما يمنعك من ذلك؟"

تمالكت نفسي:

" أنت حليفي الوحيد الذي لم يتخل عني."

جمعنا القليل من الأغراض مما تركه لنا الآخرون ثم مشينا حتى تعبنا. منهكين، وحيدين، كنا نتقدم فوق طرق مسننة حادة. كان علينا أن نغادر و بكل سرعة المنطقة التي هي تحت سيطرة ورقابة شرحبيل. كانت زبيدة تقودنا، رشيقة كهندية. كنا نرتاح النهار و نواصل الطريق ليلا، محددين مسارنا بدقة، متجنبين بعض الأماكن التي يمكنها أن تخبئ لنا

كمينا. مرات، مجرد صوت تافه، كان يجمدنا لساعات طويلة.كنا نشتم الهواء على طريقة الوحوش، في ترقب لأية رائحة مشتبه فيها. بعد أسبوع من السير الشاق، مترنحين متمايلين من الجوع ومن العطش، هاجمنا ضيعة بحثا عن الأكل.

في مساء اليوم الثامن، فتحت جبال شريعة لنا ذراعيها. كم كانت سعادتنا ونحن نتأمل أضواء مدينة بليدة، أضواء الحضارة. و أخيرا، خرجنا من الأزمنة المظلمة. كانت البنايات التي تبدو صغيرة عند قدم الجبال، تتبدى لنا أعلى من برج بابل. كان المنظر خرافيا رائعا، ولأننا لم نكن نصدق ذلك، فإننا كنا نشعر ، على الرغم من بعد المسافة، و كأننا نسمع أزيز السيارات.

نمنا في العراء، تحت النجوم.

في تلك الليلة حلمت بأبي...

" نافا" هزني أبو تراب.

طلع النهار. كانت السماء زرقاء، و كان الجبل شاهقا وسيدا. كشر أبو تراب مغتاظا:

" اختفت زبيدة."

بحثنا عنها كل الصبيحة. لم نجد سوى حقيبتها مرمية في طية نهر مع بذلتها العسكرية و حذاءها الرياضي.

غمغم حنضلة:

" دون شك، كانت لديها بذلة مدنية أخرى، هنا في الحقيبة. لقد غيرت لباسها و هربت."

" لقد خدعتنا و أغرتنا بقصة الغنيمة، حتى نرافقها إى تخوم المدينة. إنها الآن بعيدة."

صرخت:

" لتذهب إلى الشيطان."

لكن لا أحد صدقني.
لا داعي للعودة إلى العاصمة و نحن في مثل حالنا هذه. إن قوات الأمن تراقبنا دون أن تضرب. إننا بحاجة كي نحلق ذقوننا و أن نتخلص من ألبستنا الأفغانية . حددنا منزلا معزولا. كانت هناك مرآة فوق خزانة. كدت أن أهرب مني حين رأيتني في المرآة. لقد رعبت مني. لم أتعرف على نفسي. لم يكن بملامحي أي شيء إنساني. كنت شبيها بحيوان فار من تخيلات مضطربة.
حلقنا لحانا، قصصنا شعورنا و استحممنا في مورد ماء. كانت خدودنا شديدة البياض مشرحة فوق وجوهنا المحروقة.الجزائر العاصمة في انتظارنا. في انتظار أن نستعيد وجوها بشرية، أقمنا حواجز مزيفة خاطفة على الطرق الثانوية كي نسلب المسافرين أموالهم ومجوهراتهم وألبستهم. و سرقنا هاتفا متحولا أيضا. و في نزلة من هذا القبيل، جلبت أنظارنا سيارة كبيرة. أنهى رجل تغيير عجلة. في اللحظة التي سحب فيها الكريك (الدافعة) ، اكتشفنا من حوله. مرعوبا، رفع يديه في السماء بخطى إلى الوراء.
كان ضخما أسود اللون، مربع الجسم كحلبة ملاكمة، أنفه مفلطح و جبينه كجبين مصارع.
قلت له:
" العالم صغير."
حملق و برقت عيناه:
"نافا؟"
" بلحمه و عظمه، حميد. ما الذي دهاك كي تتجول في هذه النواحي و في ساعة مثل هذه."
تساءل فيما إذا كان بإمكانه إنزال ذراعيه أم لا.
لم أساعده.

" اننا عائدون من جنازة السيدة راجا. لقد توفيت المسكينة البارحة. لقد أوصت أن تدفن بالقرية مسقط رأسها."

" كانت امرأة طيبة."

كان بداخل السيارة رجل نائم.

نقرت على زجاج السيارة بعقب مسدسي كي أوقظه.

قلت باستهزاء:

" إنه هو جينيور المبجل، دائما متحايل و متفاسد."

" لم يتحمل هذه الضربة مني ." حاول حميد ان يرفق من حالي.

فتحت الباب و سحبت جينيور من مقعده. اضطرب، فصفق بيديه و بجفنيه، لم يكن مستيقظا تماما، و قد اصفر تحت أسلحتنا المشهرة. خنقني نفسه ذو الرائحة المخمرة.

تمتم قائلا:

" أين نحن ؟ أين رميت بي يا حميد؟."

ثم، مدركا خطورة الوضعية التي هم فيها، رفع يديه في السماء.

" لا تقتلوني، أرجوكم."

" إنه أنا، نافا، ألا تتذكرني؟"

تأملني، حتى كادت أن تتمحي حاجباه. و أخيرا تذكرني و لم يدر إن كان عليه أن يكون مبتهجا أو مرتجفا.

هو الآخر، مثل حميد، لم أساعده.

قال حميد بتضايق:

" هل ستقتلنا؟"

" سأشعر بالحرج."

ارتبك جينيور و انهار ، فتشبث بباب السيارة.

قلت له:

" إركع ، فأنا القائد هذا المساء."

" أتوسل اليك يا نافا، لقد كنا أصدقاء فيما مضى. تذكر الوقت الممتع الذي أمضيناه سوية."

" عن أي وقت تتحدث؟ عن ذاك الذي كان فيه هذا القذر يجعلني أقاسي، حيث لم أكن سوى مجرد خرقة للمسح، ممسحة أو دواسة أقدام تحت جزمتيه؟... اركع.

استقام جينيور فجأة.

" مستحيل."

قال له حميد مترجيا:

" افعل ما يأمرك به."

" طبعا لا، إن أحدا من آل راجا لايركع أبدا أمام أي كان."

" انه لا يعرف ما يقوله، قالها حميد متوسلا اليّ، انه الحزن.."

" اركع، يا ابن الكلب."

متعنتا قال جينيور:

"ها هنا، إنك تطلب مني الكثير."

" لا تكن أبلها." قالها حميد بجنون.

" ربما أكون ثملا ، كاس زائدة، لكنني لا أزال ثابتا على قدمي، و في كل الحالات سيجزروننا. إنهم ليسوا سوى إرهابيين متعطشين للدم. إنهم لا يعرفون عمل أي شيء سوى القتل. إذا كان قدري سينتهي هنا فالأفضل أن أموت واقفا."

صفعته.

تمايل دون أن يقع.

" حقيقة إنك ستموت، أيها المدلل. لكن قبل ذلك، أقسم لك بانك ستزحف ذليلا، ستلعق جزمتي و ستتوسل إلي كي أقضي عليك."

" لا تنتظر مني ذلك."

شهق حميد بغيظ:

" إنه لا يعرف ما يقوله، إن حزنه يدمره و يجعله طائشا."

" إنني واع و صاح يا خو. أتريد أن تعيش في بلد حيث صعاليك من هذا النوع يتصرفون ويعتقدون أنهم الفاتحون؟."

صرخ حميد في جينيور:

" إخرس."

استدار جينيور نحو حارسه الشخصي، مليئا كغليون، رفع أصبعا غائما و صوتا غليظا خشنا.

" أتدري، إنك تتحدث إلى واحد من ال راجا؟(استدار نحوي ثم واصل) لم أعتبرك أبدا كدواسة الأقدام. كنت سائقا وكنت السيد. هذه هي الحياة. الفقر و الرفاهية ما هما إلا واجهتان. كل واحد يحمل شقاءه فيه. سواء أكان مرتديا الحرير أو العليل الخفيف، إن هذا لا يغير كثيرا في قلقه. والدليل ، أضاف و هو يوسع ما بين ذراعيه، إن الفقراء يتهمون الأغنياء بأنهم هم السبب في إلامهم. أما الأغنياء فيظنون أن الفقراء لا يضرون سوى أنفسهم. هذا غير صحيح. فالعالم خلق هكذا، و هذا ليس ذنب أحد. يجب معرفة تحمل الألم بالصبر. فالقدر سيظل سيد التفاهات و الحقارات إذا لم يخف سر لعبته. والعالم لا يعني شيئا إذا لم نجد فيه رفضا وتعنتا. نعتقد أننا نعرف و في الواقع إننا لا نعرف شيئا أبدا. وإذ نرفض بقبول ذلك والتسليم به نصبح مرتبطين به وبجنون."

سحب أبو تراب سكينه من غمده.

أرسل حميد لكمة على وجهه، شد وثاقه و جرده من سلاحه ووضع حد السكين تحت الحنجرة.

" أي حركة تصدر منكم، سأقضي على صديقكم، إلى الخلف، إلى الخلف..."

أشرت إلى رجالي كي يطيعوا، ألا يتحركوا.

" إصعد في السيارة و ارحل يا جينيور."

" لا أتركك وحيدا مع هذه الوحوش."

" إذهب، سأتدبر أمري."

تسلق جينيور السيارة و أقلع و انطلق كالإعصار.

كان أبو تراب يختنق، و خيط رفيع من الدم ينزل من عنقه.

قال لي حميد:

" لقد نبهتك يا نافا، إن جنيور هو غذائي الروحي، هو عطاء لي من الله. لن أترك أحدا يمسه بسوء. إلى الخلف.."

نظر إلى اليمين و إلى اليسار.

" عندما أشعر بأنك رميت بكل حظوظك أرضا، لمجرد جرعة زائدة غير مأسوف عليها."

سحب أبا تراب إلى غاية حافة حفرة، رماه بداخلها ثم قفز في إثره. ما كان باستطاعتنا إطلاق النار دون أن نصيب رفيقنا. استغل حميد الوضع ثم اندفع في الغابة مسرعا متمايلا.

هتف حنضلة لعمه.

" إنه رجل ثقة. لقد فقد ابنا في الجبل. سيأوينا مدة من الوقت ريثما نحدد المستقبل بروية و هدوء."

لم يكن أبو تراب موافقا. لكنه لم يكن له بديل لذلك.

جاء عم حنضلة لملاقاتنا على طريق، عند سقوط الليل. على متن شاحنة مغطاة أخذنا إلى حي في الضواحي. كانت الشقة ضيقة، في الطابق الثالث.

قلت:

" يجب أن أذهب لزيارة العجوز أمي زيارة خاطفة."

" إنتظر بضعة أيام، فنحن لم نكد نصل بعد." ، نصحني أبوتراب.

" لن أبقى طويلا."

ثم وجهت حديثي إلى عم حنضلة:

" هل تستطيع إيصالي؟"

" أنا تحت تصرفك التام."

أميرة هي التي فتحت لي الباب.

على الأقل، ما بقي منها.

عيناها الغائبتان لم تكادا تلحظاني:

" لقد سمنت."

هذا كل ما وجدت قوله، بعد أزيد من سنتين من الفراق.

عادت إلى الصالون. شعرها لم يكن ممشوطا، مصفرة الوجه، عائمة كانت في فستانها الفضفاض الأسود. لقد نحفت كثيرا. لم تكن سوى ظلا لأخت بدت بعيدة. جلست و ثنت رجليها فوق وسادة مثقوبة، ثم عادت للحياكة من جديد. لم تكن من عادتها أن تدير ظهرها. فأميرة، إنها لم تكن طبيعية.

كان الصالون في فوضى. مخدات مرمية على الأرضية. الكراسي المحشوة المغلفة فقدت ذاكرتها.من بين المصابيح الثلاثة للثريا اثنين لا يضيئان. كانت الظلمة مخيمة على البيت.

" هل أنت لوحدك؟."

" إنني وحدي."

" أين الوالدة؟"

" إنها ليست هنا."

" متى ستعود؟"

" لن تعود."

واصلت الحياكة. متجاهلة وجودي.
بعد ذلك و بصوت أحادي النبرة بدأت تروي:
" خرجت لشراء زوج نعل لنورة. انفجرت قنبلة في السوق. لم نعثر من نورة سوى عصابة رأسها."
تحيك، تحيك.
واضعة صنارتي الحياكة، بدت و كأنها حائرة إذ وجدتني لا أزال هنا بجوارها.
" ظننت أنك قد ذهبت."
و أنا في الشاحنة المغطاة انتبهت إلى أنني لم أسألها عن أخبار سعاد.
" هيه !! أفيقوا."
سحبني رفيق من السرير.
كان حنضلة و أخوه الأصغر قد استيقظا من قبل، و قد وقفا منذهلين في بهو الشقة.
الليل لا يزال مخيما.
" ما الذي جرى؟"
" إن أمرا ما يحدث في سلم العمارة." قالها أبو تراب ساحبا بسرعة بندقيته من حقيبته.
" أين هو عمك، يا حنضلة؟"
" لا أدري."
كان علي يسترق السمع عند الباب.
وشوش قائلا:
" يبدو و كأنما هم يرحلون سكان العمارة."
حاول أن ينظر من عين القفل، ثم من خلال العينية. طلقة نار وإذا برأسه ينفجر.
أقسم دوجانة:
" يا إلهي ! ، لقد خلقنا مثل الجرذان."

* * *

الإيداع القانوني :2002– 2486

ردمك :8-211-54-9961

دار الغرب للنشر و التوزيع

حي 52 مسكن رقم ENSEP 101 – وهران –

الهاتف:(041).41.65.31/ الفاكس: (041).41.94.31



(بم تحلم الذئاب) التي أقدمها اليوم للقارئ بالعربية، رواية تزاوج ما بين أسلوب الأدب البوليسي الذي برع في كتابته ياسمينة خضرا و الأدب الروائي الفني القائم على واقعية قريبة من أدب أمريكا اللاتينية. لقد ذكرتني هذه الرواية حين قرأتها ثم تأكد لي ذلك و أنا أترجمها برواية (اللص و الكلاب) للروائي الكبير نجيب محفوظ.

تلتقي (بم تحلم الذئاب) ب(اللص و الكلاب) في الحركية الكبيرة التي تتميز بها الشخصيات الروائية و في إيقاع أسلوب الكتابة المراوح ما بين الأدب البوليسي بكل ما يتميز به من فنيات خاصة و الأدب الروائي الفني بكل ما يميزه من تأمل شعري و تحليل نفساني و لغة محلقة تارة و وصفية مباشرة تارة أخرى.

إن رواية (بم تحلم الذئاب) نص مخصص أساسا لدراسة و تحليل ظاهرة الإرهاب الديني المسلح في الجزائر، هذه الظاهرة التي عرفت البلاد و ملأت النفوس حقدا و ضغينة كما أنها جعلت البلاد على حافة التشرذم و التفكك و الفنــــــاء.





دار الغرب للنشر و التوزيع